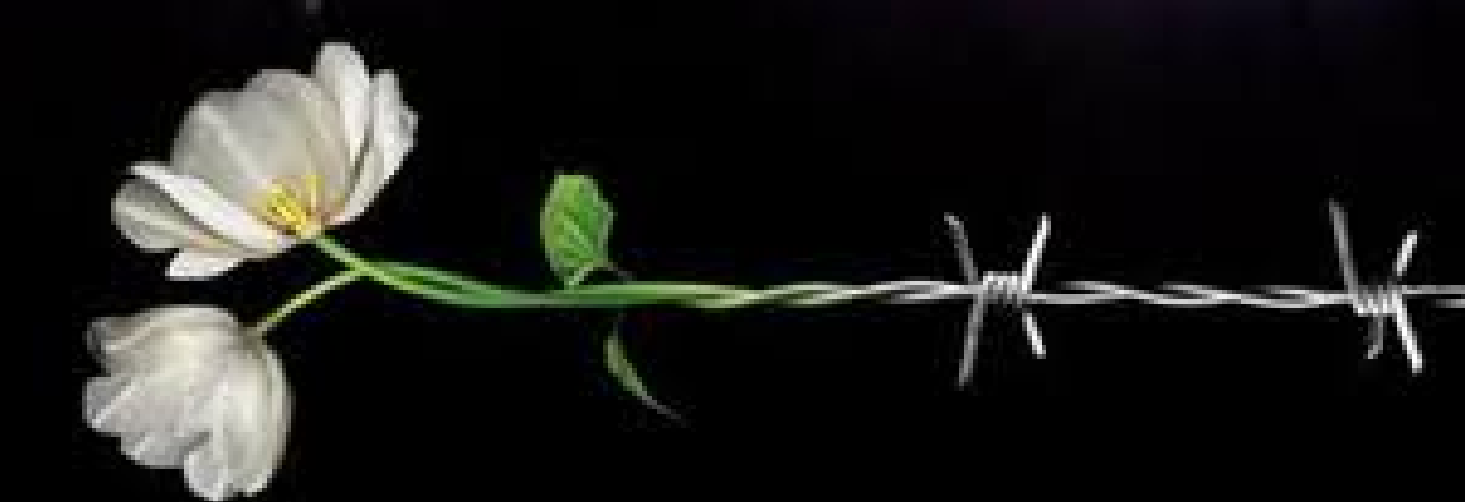


رفاعى سرور





هادف

بسم الله الرحمن الرحيم

قــــدر الـــــدعـــوة

الطبعة الثانية

تأليف

الشيخ رفاعي سرور

مقدمة

الموضوع الأساسي لهذا الكتاب هو تحديد منهج الدعوة بتصور القدر والسنن وأحاديث آخر الزمان، وهذا التصور الذى يتحدد به منهج الدعوة قائم على قضية الأسماء والصفات ونشأة الخلق والوجود والحركة الكونية كأثر لأسماء الله وصفاته.

ومن هنا ينطلق التحديد المنهجي للدعوة من خلال هذه القضية باعتبارها الإطار العقيدي لتفسير الخلق والوجود، وباعتبار أن واقع الدعوة جزء من هذا الوجود داخل ضمن حركته الكونية؛ وبذلك تكون موضوعات الكتاب هي عرض قضية الأسماء والصفات كتفسير للخلق والوجود حيث نتعرف من خلال هذا العرض على (حقائق الإظهار)، لآثار الأسماء والصفات التي تمثل بذاتها القواعد الأساسية لهذا الوجود وحركته الكونية.

وبينما يعالج الكتاب مفهوم الإظهار وحقائقه في الخلق والوجود نتعرف على قضية من أخطر قضايا الدعوة وهي (قضية السنن الثابتة).

وبذلك يكتمل القسم الأول من الكتاب، وهو التصور القدرى العام ويشتمل على موضوع الأسماء والصفات وحقائق إظهار آثار الأسماء والصفات والسنن الثابتة.

ثم ينتقل الكتاب إلى القسم الثاني، وهو المقتضي الواقعي للتصور القدري العام والمعالج لتفصيل الخلق والوجود الناشيء كأثر للأسماء والصفات من خلال ثلاثة أبعاد:

- البعد الكوني الذي يتضمن التفسير الإسلامي للحركة الكونية.

- البعد البشرى الذى يتضمن التفسير الإسلامي للتاريخ...

حيث يمتد هذا التفسير خلال هذين البعدين إلى آخر الزمان، ليكون البعد الثالث: وهو التفسير السلفي لأحاديث آخر الزمان وعلامات الساعة في إطارها العقيدي العام.

ومن مجموع قضايا القسم الأول والثاني، تتكون أساسيات التحديد القدري لمنهج الدعوة، ولكننا بمجرد البدء في مهمة التحديد نكتشف أن واقع الدعوة وإن كان واقعا كونيا بشريا داخلا ضمن الوجود وحركته إلا أن له في هذا التصور ومقتضاه الواقعي

إختصاصا جوهريا مما جعل مهمة التحديد تتطلب معالجة هذا الاختصاص إبتداء ليكون (الاختصاص القدري لواقع الدعوة)، هو موضوع (القسم الثالث).

ثم يدخل البحث في قضيته الأساسية حيث يبدأ في تحديد منهج الدعوة من خلال الاختصاص القدري لواقع الدعوة، مضيفا كل الحقائق الناشئة عن هذا التصور وذلك الاختصاص إلى منهج الحركة بكل أبعاده وأساليبه، فيتحدد التصور القدري للجماعة والدعاة ومنهج التربية والأساليب الأساسية للحركة، مثل التبليغ والقتال، وكذلك الأساليب الاستثنائية مثل الهجرة والعزلة، ثم يتحدد التصور القدرى لقيام الحكم وتكوين الدولة الإسلامية...

وبهذا البحث تتحقق عدة أهداف:

الأول: تحقيق الصبغة السلفية لمنهج الحركة الإسلامية لتتم العلاقة الصحيحة بين الدعوة والتصور السلفي لها من خلال العقيدة والحركة معا.

الثاني: تفادي الخطأ في فهم السنن والفتن وأحاديث آخر الزمان والخطأ في فهم العلاقة بين النصوص الإخبارية والنصوص التكليفية في إطار مهمة التحديد المنهجي للدعوة.

الثالث: حماية الحركة الإسلامية من مادية الفكر وتنظيم الدور العقلي في مهمة التحديد المنهجي لها باعتبارها دعوة مرتبطة بالقدر ولها أسباب وسنن

الرابع: التفسير الكوني للحركة الإسلامية من خلال النظرية السلفية للكون والتاريخ كهدف في ذاته وكمواجهة لمحاولة التأصيل الكوني للجاهلية بكل إتجاهاتها الباطلة.

ونود أن نذكر للقارىء أن النقول السلفية في هذا الكتاب كتبت في السجن، وأن كتابات (ابن القيم) كانت من أكثر المراجع التي تيسر وجودها في هذا المكان.

ولما عافانا الله وتيسرت المراجع بقي الرأي على أن يخرج الكتاب بنفس النقول بعد أن أدركنا أن ابن القيم يكاد يكون أهم من أعطي قضية إرتباط الخلق والوجود بالأسماء والصفات حقها الكامل، فعلمنا فضل الله في تيسير مراجع ابن القيم عند الكتابة، ورأينا في هذا تيسيرا للقارىء إذا أراد الرجوع إلى المراجع السلفية لقضية الكتاب.

ولتلك الأسباب سيلاحظ القارئ إن شاء الله، أن الاستدلال بأقوال السلف الواردة في الكتاب يرتكز بصفة أساسية على كتابات ابن القيم رحمه الله كما سيلاحظ القارئ صعوبة أسلوب الكتاب، وهو الأمر الذى نعتذر عنه إبتداء، وذلك راجع إلى طبيعة القضية التي يتناولها هذا الكتاب لذا نأمل في قراءته قراءة متأنية.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل...

رفاعي سرور

القسم الأول
التصور القدري العام

1) ارتباط الخلق بالأسماء والصفات:

إن بداية الحقيقة لفهم الكتاب هي معرفة تعلق الوجود خلقا وأمرا بأسماء الله الحسنى والصفات العلي، وارتباطه بها، وأن العالم بما فيه ما هو إلا آثارها ومقتضياتها، وتلك هي أخطر القضايا السلفية التي ينبثق عنها التصور الإسلامي الصحيح عن الخلق والوجود.

وقد تميز ابن القيم بتبني هذه القضية بصورة واضحة وكاملة من خلال مجموع كتاباته مما يجعل النقل عنه في عرضها أمرا مفيدا فيقول في كتابه (مدارج السالكين) في مشهد الأسماء والصفات (وهذا من أجل المعارف وأشرفها)، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة، فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال، وكل صفة لها مقتضى وفعل إما لازم أو متعد، ولذلك الفعل تعلق بمفعول وهو من لوازمه، وهذا في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها.

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال، وتعطيل الأفعال عن المفعولات، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله، وأفعاله عن صفاته؛ وصفاته عن أسمائه، وتعطيل أسمائه عن ذاته.

وإذا كانت أوصافه كمالا، وأفعاله حكما ومصالح، وأسماؤه حسني، ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل في حقه، ولهذا ينكر سبحانه على من عطله عن أمره ونهيه وثوابه وعقابه وأنه بذلك نسبه تعالى إلى ما لا يليق به وإلي ما يتتره عنه، وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه، و أن من نسبه تعالى إلى ذلك فما قدره حق قدره ولا عظمه حق تعظيمه، كما قال تعالى في حق منكري النبوة، وإرساله الرسل وإنزال الكتب: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ).

وقال تعالى في حق منكري المعاد والثواب والعقاب: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وقال في حق من جوز عليه التسوية بين المخلفين كالأبرار والفجار والمؤمنين والكفار: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)، فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق بأسمائه وصفاته.

وقال سبحانه: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ)، فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)، عن هذا الظن والحسبان الذي تأباه أسماؤه وصفاته.

ونظائر هذا في القرآن الكريم كثيرة ينفي فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته إذ ذلك يستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها.

فاسمه (الحميد، المجيد) يمنع ترك الإنسان مهملا معطلاً لا يؤمر ولا ينهي ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبي ذلك، و (الملك)، واسمه (الحي) يمنع أن يكون معطلاً من الفعل بل حقيقة (الحياة) الفعل فكل حي فعال، وكونه سبحانه (خالقا، قيوما) من موجبات حياته، واسمه (السميع، البصير) يوجب مسموعا مرئيا، واسمه (الخالق) يقتضي مخلوقا، وكذلك (الرازق)، واسمه (الملك) يقتضي مملكة وتصرفا وإعطاء ومنعا وإحسانا وعدلاً وثوابا وعقابا، واسمه

(البر، المحسن، المعطي، العفو)، فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات، ولا بد من جناية تغفر وتوبة تقبل وجرائم يعفي عنا، ولا بد لاسمه (الحكيم) من متعلق يظهر فيه حكمه إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم (الخالق، الرازق، المعطي، المانع) للمخلوق والمرزوق والمعطي والممنوع، وهذه الأسماء كلها حسني.

والرب تعالى يحب ذاته وصفاته وأسمائه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر ببال.

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله ويحلم ويتوب عليه ويسامحه من موجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك وما يحمد به أهل سمواته وأهل أرضه ماهو من موجبات كماله ومقتضيات حمده، وهو سبحانه الحميد المجيد وحمده ومجده يقتضيان آثارهما.

ومن آثارهما مغفرة الذلآت وإقالة العثرات والعفو عن السيئات والمسامحة على الجنايات، مع كمال القدرة على استيفاء الحق. والعلم منه سبحانه وتعالى بالجناية ومقدار

عقوباتها فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته، كما قال المسيح عليه السلام: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك، ولست كمن يغفر عجزا ويسامح جهلا بقدر الحق، بل عليم قادر على استيفائه، حكيم في الأخذ به.

ومن تأمل سريان الأسماء والصفات في العالم[1] وفي الأمر[2] تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد وتقديرها هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال، وأن غاياتها أيضا مقتضى حمده ومجده كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته.

ولله في كل ما قضاه الحكمة البالغة والآيات الباهرة والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته واستدعاء محبتهم له وذكرهم وتعبدهم له بأسمائه الحسنى، إذ كل اسم له تعبد مختص به ومعرفة وحال، وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء.

والصفات التي يطلع عليها البشر فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر فلا يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم، الرحيم) أو يحجبه اسمه (المعطي) عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه (الرحيم والعفو والغفور) عن التعبد باسمه (العليم، البر)، واللطف والإحسان عن أسما (العدل والجبروت والعظمة والكبرياء)، ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكمل من السائرين إلى الله وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، والدعاء بها يتناول المسألة ودعاء الثناء ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته.

فهو (عليم) يحب كل عالم، (جواد) يحب كل جواد، (وترآ) يحب الوتر، (جميل) يحب الجمال، (عفو) يحب العفو وأهله، (حيي) يحب الحياء وأهله، (برآ) يحب الأبرار، (شكور) يحب الشاكرين، (صبور يحب الصابرين، (حليم) يحب أهل الحلم، فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة والعفو والصفح خلق من يغفر له ويتوب عليه ويعفو عنه وقدر عليه ما يقتضي وقوع المكروه والمبغوض ليترتب عليه المحبوب له المرضي له، فتوسط كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب.

---

[1] يعني الأقدارالكونية.

[2] يعني الأقدار الشرعية.

وارتباط الخلق بآثار الأسماء إنما هو إظهار لكمالها، ذلك أن كل اسم له بين أسماء الله كمال بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، فجاء الخلق مرتبطا بمقتضي الكمال في أسماء الله إفرادا واقترانا فله بذلك جميع أقسام الكمال كمال من هذا الاسم بمفرده وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر، مثال قوله تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)، (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فالغني صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا، وعلمه كمال وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضا، وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالغفرة كمال، وكذلك العفو مع القدرة، (فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً)، واقتران العلم بالحلم، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ)، وحملة العرش، أربعة اثنان يقولان: (سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، ..)، واثنان يقولان: (سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك).

فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)، ومن هنا كان قول المسيح عيسى عليه السلام: (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) أحسن من أن يقول: فإنك أنت الغفور الرحيم، أي إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة وهي كمال القدرة، وعن حكمة وهي كمال العلم، وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، ولم يقل: فإنك عزيز حكيم، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر لهم وترحمهم بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة كما في الحديث: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الله تعالى مشتقة من أوصاف ومعاني قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقتران به من فعله وأمره.

ويبين ابن القيم أن كمال اقتران الأسماء الحسنى ببعضها هو مصدر الخلق والأمر، فيقول في تفسير اقتران اسم (العزيز) باسم (الحكيم) في تفسير (أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). أي مصدر ذلك وسببه وغايته صادرا عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة، والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضي سبحانه وتعالى بما شاء ويأمر وينهي ويثب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

ويواصل ابن القيم شرح كمال الاقتران بين الأسماء الحسنى فيقول: ولهذا جعل سبحانه اسمه (الجبار) مقرونا (العزيز والمتكبر)، وكل واحد من هذه الأسماء الثلاثة

الآخرين، وهذه الأسماء الثلاثة نظير الأسماء الثلاثة وهي (الخالق والبارىء والمصور)، (فالجبار المتكبر) يجريان مجري التفصيل لمعني (العزيز) كما أن (البارىء المصور) تفصيل لمعني (الخالق)، (فالجبار)، وهي من أوصافه يرجع إلى كمال القدرة والعزة والملك ولهذا كان من أسمائه الحسنى.

وكما يكون كمال الإظهار بارتباط الخلق بكمال الإفراد والاقتران في الأسماء يكون كذلك في الصفات ذلك أن من الحقائق الثابتة في الصفات سبق الرحمة للغضب لقول النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل: (وأن رحمتي سبقت غضبي)[3]، فنجد أن لهذه الحقيقة مقتضى في الخلق، وأن هذا المقتضي يمتد من بداية الخلق إلى نهايته ومن خلال كل جزيئاته، ويحدد ابن القيم هذه الحقيقة فيقول: ومقتضي سبق الرحمة للغضب هو أن الرحمة وسعت كل شيء، وبها قامت الموجودات، فوصلت رحمته سبحانه حيث وصل علمه، وأن تفسير الرحمة بالنسبة للمؤمنين هي أنهم اكتسبوا أسبابا استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها وأن تفسير الرحمة بالنسبة للكافرين هي أنهم اكتسبوا أسبابا استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم، وأن الجنة مقتضى الرحمة، وينشىء لها أهلاً وهي باقية بعد النار، وأن النعيم صفة ذات، وأن العذاب صفة فعل بدليل قوله تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)، وأن الرحمة مقصودة لذاتها، وأن العذاب وسيلة، وأن النار وضعت لإزالة الشرور، وأن الله سبحانه وتعالى جعل الشدائد والآلام في هذه الدنيا بتراء لا دوام لها، وجعل الشدة بين فرجين: فرجا قبلها، وفرجا بعدها.

ويواصل ابن القيم تحديد مقتضيات سبق الرحمة للغضب، فيبين في موضع آخر أن سبق الرحمة للغضب أنشأ في الخلق سنة هامة وهي أن الرحمة واللذة لا يوصل إليها إلا على جسر التعب والمشقة مما يعني أن أي تعب وألم غايته الرحمة واللذة، فلا يوصل إلى الرحمة واللذة إلا على جسر التعب والمشقة، وهذا يريك أن المصائب والآلام حشوها نعم ولذات وهذا لأن الرحمة لها السبق والغلبة فما في طي النقم والعقوبات من الرحمة أسبق من العقوبة وهي الغاية للغضب، فلا بد أن يغلب أثرها أثر الغضب كما غلبت الصفة الصفة.

كما يفسر ابن القيم غلبة جند الله بمقتضي هذه الحقيقة فيقول في تفسير قوله عز وجل: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ). فيقول: فكما غلبت الرحمة غلب جنودها، ولهذا أورد البخاري في باب (وَلَقَدْ

[3] حديث صحيح متفق عليه: البخاري في (بدء الخلق) [6/287]، ومسلم في (الذكر والدعاء) [17/68-67].

سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)، قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لما قضي الله الخلق كتب عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي)[4].

وارتباط الخلق بالأسماء والصفات إنما يكون بحكمة تامة وتناسب مطلق.

ويفسر ابن القيم ذلك من خلال ارتباط العرش باسم (الرحمن) فيقول: : ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا. كقوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)، (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَن)، فاستوى على عرشه باسم الرحمن لأن العرش محيط بالمخلوقات قد وسعها والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم كما قال تعالى: (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ).

فاستوى على العرش أوسع المخلوقات بأوسع الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لما قضي الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده موضوع على العرش؛ أن رحمتي سبقت غضبي)[5]، وفي لفظ: (فهو عنده على العرش)...

ويعطي ابن القيم تصورا شاملا لارتباط الخلق بقضية الأسماء والصفات، وذلك من خلال البصيرة في تلك القضية فيقول تحت عنوان "البصيرة في الأسماء والصفات": هي أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالي مستويا على عرشه متكلما بأمره ونهيه بصيرا بحركات العالم علوية وسفلية، أشخاصه وذواته، سميعا لأصواته، رقيبا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره في أقطار الممالك موصوفا بصفات الكمال، منعوتا بنعوت الجلال، مترها عن العيوب والنقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه وفوق ما يصفه به خلقه، حي لا يموت، قيوم لا ينام، عليم لا يخفي عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات بأختلاف اللغات على تفنن الحاجات، تمت كلماته صدقا وعدلا، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبها ومثلا، وتعالت ذاته أن تشبه شيئا من الذوات أصلا، ووسعت الخلقية أفعاله عدل او حكمه ورحمه وإحسانا وفضلا، له الخلق والأمر، وله النعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثناء والمجد، أول ليس قبله شيء، وأخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلها صفات كمال ونعوته كلها نعوت جلال، وافعاله كلها

[4] سبق تخريجه.
[5] سبق تخريجه.

حكمه ورحمه ومصلحه وعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السموات والارض وما بينهما باطلا، ولا ترك إنسانا سدى عاطلا، عإلى زيادة كرامته، تعرف إلى عباده بأنواع التعرفات، وصرف لهم الآيات، ونوع لهم الدلالات، ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب، ومد بينه وبينهم من عهده أقوى الاسباب، فأتم عليهم نعمه السابعة، وأقام عليهم حجته البالغة، أفاض عليهم النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وضمن الكتاب الذى كتبه أن رحمته تغلب غضبه.

2) مفهوم الاظهار:

وبعد إثبات تعلق الوجود خلقا وأمرا بالأسماء الحسنى والصفات العليا، نواصل إثبات ذلك من خلال تحديد مفهوم الاظهار وقيمة (الواقع) في تحديد هذا المفهوم...

وقيمة الواقع فى مفهوم الاظهار تقوم على أساس الشهادة فى قول الله عز وجل: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

إذ يقول ابن القيم: وتضمنت هذه الدلالة على وحدانيه المنافيه للشرك، وعدله المنافى للظلم، وعزته المنافيه للعجز وحكمته المنافيه للجهل والحكمه، ولهذا كانت أعظم شهادة وهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثه: السمع والبصروالعقل.

أما السمع فبسمع آياته القولية المتضمنة لإثبات صفات كماله ونعوت جلاله وعلوه على عرشه فوق سبع سموات، (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)، وقوله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)، وقوله: (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)، وقوله: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)، وقوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، وقوله: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ)، وقوله: (دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)، وقوله: (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)، وقوله: (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ)، فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه واعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم وإهانة أولئك وإذلالهم وكبتهم قال تعالى ($).

أما آياته العيانية الخلقية والنظر فيها والاستدلال بها، فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية والسمعية، وأيات الرب هي دلائله وبراهينه التي بها يعرفه العباد، وبها يعرفون

أسماءه وصفاته، وتوحيده وأمره ونهيه، فالرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به وهو آياته القولية، ويستدلون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك، وهي آياته العيانية...

والعقل يجمع بين هذه وهذه فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة.

ويقول: وشهادة الله تضمنت أربعة مراتب: علم الله سبحانه بذلك، وتكلمه، وإعلامه وإخباره لخلقه له، وإلزامهم به...

ومرتبة الإعلام نوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل. والمقصود أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله، فتتطابق شهادة القول وشهادة الفعل، كما قال تعالى: (سنريهم آياتنا في الآفاق)، أي أن القرآن حق، فأخبر أنه يدل بآياته الآفاقية والنفسية على صدق آياته القولية والكلامية...

ويواصل ابن القيم تحديد قيمة الواقع في إظهار آثار أسماء الله وصفاته فيقول: وخلق الأسباب المتقابلة التي يقر بعضها بعضا، ويكسر بعضها بعضا، هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة والحكمة التامة والملك الكامل، وأن كمال شأن الربوبية كامل في نفسه ولو لم تخلق هذه الأسباب، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه وقدرته وحكمته وظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال وموجب من موجباته، فتعتبر مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته.

وفي (شفاء العليل)[6] يقول: إن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخيث وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، فأستخرج أحكم الحاكمين مافي قوي هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه أثارها، ومافي قوي أولئك من الشر ليترتب عليه أثارها وتظهر حكمته في الفريقين وينفذ حكمه فيهما ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه السابق.

ونواصل تحديد المقتضي الواقعي أو قيمة الواقع في تحقيق الإظهار ويعلمنا القران تلك القيمة من خلال إثبات أن للواقع دلالة على علم الله فيقول عز وجل: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ). وقوله عز وجل: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) حيث أن دلالة العلم هنا هي الحديث في

[6] شفاء العليل في القضاء والقدروالحكمة والتعليل.

الواقع لأن الله يعلم قبل الحدوث في الواقع من يتبع الرسول ويعلم من ينصره ولهذا جاء في تفسير (إلا لنعلم) إلا لنري؛ لأن الرؤية تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فإنه يتعلق بالموجود والمعدوم[7].

واعتبار أن للواقع دلالة على علم الله يأتي من أن الواقع الذي يحدث مكتوب ومعلوم، فينشيء الله الواقع وفق علمه وكتابته بقدرته. وعندما يتوافق ما علمه الله سبحانه وتعالى وكتبه مع ما وقع بحكمته يصير الواقع مظهرا للعلم والقدرة والحكمة.

واعتبار الواقع دلالة للعلم الإلهي حقيقة بني عليها الحساب ثوابا وعقابا، ولهذا يقول ابن القيم في تفسير: (وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ). ما يؤكد هذه القاعدة فيذكر أن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم معه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها له أو عليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن الله سبحانه ليستشهد على العبيد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين[8]...

ويذكر ابن القيم في حكمة خلق الواقع قوله: ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علما مطابقا لما في الواقع[9].

وحد الإظهار لا يتوقف عند الحدوث والإيجاد في الواقع فحسب، ولكنه يبلغ درجة تجسيد الأعراض، مثل أن يصبح الموت كبشآ ويذبح بين الجنة والنار، ومثل تعاطف التسبيح والتحميد والتهليل حول العرش ويصبح له دوي كدوي النحل، ومثل تمثيل العمل لصاحبه رجلا في قبره، ومثل أن تصعد الصلاة المقبولة وتقول لصاحبها: حفظك الله كما حفظتني، وكذلك الصلاة غير المقبولة وتقول ضيعك الله كما ضيعتني، ومثل أن تجيء سورة البقرة وآل عمران في صورة غمامتين.

ويقول ابن القيم في كتاب حادي الأرواح[10] والتفسير القيم[11]: والله ينشيء من الأعراض أجساما تكون الأعراض مادة لها، وينشيء من الأجسام أعراضا، كما ينشيء

---

[7] ابن كثير ص 404 تفسير سورة العنكبوت.
[8] الفوائد ص 70
[9] شفاء الغليل.
[10] ج 1 ص 251/246
[11] ص 354

سبحانه من الأعراض أعراضا ومن الأجسام أجساما، والأقسام الأربعة ممكنة ومقدورة للرب تعالى...

وتحديدا لمعني التجسيد في إطارمفهوم الإظهار: نأتي إلى تجسيد أهم حقائق القدر وهو الكتاب الذي يتضمن أسماء أهل الجنة وأسماء أهل النار، وهو ما ورد في تفسير قول الله عز وجل: (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده كتابان فقال: (أتدرون ما هذان الكتابان؟). قلنا: لا. إلا أن تخبرنا يا رسول الله قال صلى الله عليه وسلم للذي في يمينه: (هذا كتاب من رب العالمين بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم لا يزاد منهم ولا ينقص منهم أبدا). ثم قال للذي في يساره: (هذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، ثم أجمل على آخرهم لا يزاد منهم ولا ينقص منهم). فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلأي شيء نعمل إن كان أمر قد فرغ منه؟ قال رسول الله عليه وسلم: (سددوا وقاربوا، فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإن عمل أي عمل وإن صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وإن عمل أي عمل). ثم قال صلى الله عليه وسلم بيده فقبضها ثم قال: (فرغ ربكم عز وجل من العباد)، ثم قال: باليمني فنبذ بها فقال: (فريق في الجنة)، ونبذ باليسري وقال: (وفريق في السعير)[12].

وبإيجاد المخلوقات وتجسيد الأعراض يتحقق الكمال الواقعي للإظهار بحيث تصبح كل مادة وعرض داخلة في إطار الإظهار لآثار أسماء الله وصفاته...

وبكمال الإظهار يتحدد التفسير الإسلامي للوجود مادة وحركة حتى أن ابن القيم يقول في تفسير ظاهرة المادة المهملة في الوجود: ولما كان جوده وفضله أوسع من حاجة الخلق، لم يكن بد من بقاء كثير منه مبذولا في الوجود مهملا، وهذا كضوء الشمس مثلآ...

والقرآن الكريم هو الكتاب المتضمن لتصور الدلائل الكونية للحقائق الاعتقادية.

لا من حيث الدلائل والحقائق، ولكن من حيث تصور العلاقة بينهما، وهذا تفسير قول الله تعالى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ

[12] أخرجه أحمد في المسند (2/167)، والترمذي في (القدر) (6/350)، وقال: (حسن صحيح غريب)، والنسائي في التفسير - كما قال المزي في أطرافه (6/343) - وأخرجه أيضا أبو نعيم في الحلية (5/168)، وغيرها كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي. وسنده صحيح كما قال الشيخ شاكر في شرح المسند (6563).

جَدَلاً)، إذ أن معنى الآية أن الله يضرب المثل من الواقع القائم لإثبات الحقبقة الاعتقادية (يراجع تفسير ابن كثير)، بما في ذلك الخوارق الكونية ولذلك أورد الإمام أحمد حديثا يؤكد حقيقة المثل في الخارقة الكونية فيقول: عن عبد الله بن عمرو أنه حدثهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ضاف ضيف رجلا من بني أسرائيل وفي داره كلبه مجح فقالت الكلبة: والله لا أنبح ضيف أهلي. فعوي جروها في بطنها، قال: قيل ما هذا؟ فأوحي الله إلى رجل منهم: هذا مثل أمة تكون من بعدكم يقهر سفهاؤهم أحلامها...)[13].

وكذلك حديث الذئب والراعي: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاه فطلبه الراعي فالتفت الذئب فقال: من لها يوم السبع (الافتراس)، يوم ليس لها راع غيري. قالو: سبحان الله أذئب يتكلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر)[14]...

والمعنى في هذه الخارقة التي تضمنها الحديث هي أن هذا الموقف صورة للواقع الجاهلي الذي نري فيه الذئب هو الشيطان في الواقع ونري فيها الغنم هم الناس، وبذلك يحدد الحديث موقع الشيطان في الجاهلية حيث يحتل موقع السلطة ومكان الراعي، فيتحدد بذلك التصور الاعتقادي عند المسلم لأي سلطة جاهلية على أنها ولاية شيطانية يجلس فيها الحاكم على كرسي صنعه من صنع لإبليس كرسيا فوق الماء ليجلس عليه ويبعث سراياه فيفتنون الناس[15]...

والإظهار بالنسبة للواقع الكوني ليس مجرد ظاهرة أو مجموعة ظواهر، بل إن هدف الإظهار يستوعب الواقع الكوني إلى الحد الذي يصبح هذا الإظهار هو الصيغة الكونية الاعتقادية لتفسير أي ظاهرة نعجز عن تفسيرها بالصورة الطبيعية، وهكذا يعلمنا ابن كثير فيقول في البداية والنهاية: قال وهب بن منبه: أوحي الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له (أرميا) حين ظهرت المعاصي أن قف بين ظهراني قومك فأخبرهم أن الدواب تذكر أوطانها فتترع إليها وأن هؤلاء القوم تركوا الأمر وهي ظاهرة هجرة الطيور والأسماك إلى أوطانها التي تفسر باعتبارها دلالة كونية على العودة إلى الفطرة،

---

[13] أخرجه أحمد في المسند (2/170)، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد) [7/280] [رواه أحمد والبزار والطبراني وفيه عطاء ابن السائب وقد اختلط)، قلت: وهو عند البزار في (الفتن) [4/131] بلفظ آخر، وصححه الشيخ شاكر في شرح المسند (6588).

[14] البخاري في فضائل الصحابة (7/42)، ومسلم رقم (2388) في فضائل الصحابة أيضا.

[15] راجع كتاب عندما ترعي الذئاب الغنم للمؤلف.

ويفسر العلم الحديث هذه الظاهرة بنفس المنطق فيقول: (أ. كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وكتابه (الإنسان لا يقوم وحده): إن الطيور لها غريزة العودة إلى الموطن، فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوبا في الخريف ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي، وفي شهر سبتمبرتطير أسراب من معظم طيورنا إلى الجنوب وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار ولكنها لا تضل طريقها، وسمك (السلمون) الصغير يمضي سنوات في البحر ثم يعود إلى نهره الخاص به، والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهير الذي ولد فيه، فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد؟ إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعداً إذا نقلت إلى نهير آخر أدركت تواً أنه ليس جدولها فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ثم تحيد ضد النهر إلى مصيرها...

وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل، وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك، فإن تلك المخلوقات العجيبة متي اكتمل نموها هاجرت من مختلف البرك والأنهار، وإذا كانت في أوروبا قطعت آلف الأميال في المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي (برمودا).

وهناك تبيض وتموت، أما صغارها، تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة، فإنها تعود أدرجها وتجد طريقها إلى الشاطيء الذي جاءت منه أمهاتها، ومن ثم إلى كل نهر وبحيرة أو بركة صغيرة، ولذلك يظل كل جزء من الماء آهلاً بثعابين البحار. لقد قاومت التيارات القوية وثبتت للأمداد والعواصف وغلبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطيء وهي الآن يتاح لها النمو حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تتم الرحلة كلها، فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك؟ لم يحدث قط أن صيد ثعبان أمريكي في المياه الأوروبية أو صيد ثعبان أوروبي في المياه الأمريكية، والله تعالى جعل الطبيعة تبطيء في إنماء ثعبان الماء الأوروبي سنة وأكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها (إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكي) تري هل الذرات والهباءات إذا توحدت معا في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ؟

ولقد بلغت العلاقة بين غاية الإظهار والواقع الكوني من التوافق حد الاستيعاب إلى الدرجة التي تصبح الظواهر الكونية أساسا قياسيا لإثبات الحقائق الاعتقادية.

ودليل ذلك قول الله عز وجل في طبيعة الاستقامة والانحراف بقياس قصد السبيل الاعتقادي على السبيل الكوني في قوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

يقول ابن كثير: لما ذكر تعالى مايسار عليه من السبل الحسية عرج منه على الطرق المعنوية النافعة الدينية كقوله: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)، وقال تعالى: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)، ثم شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه فيبين أن الحق منها ما هي موصل إليه فقال: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)، كقوله: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)، وقال: (قالَ هَذَا صِرَاطٌ على مُسْتَقِيمٌ)، قال مجاهد في قوله: (وعلى الله قصد السبيل)، قال: طريق الحق إلى الله، قال السدي: الإسلام...

وإذا كان الطريق في الأرض مثالا اعتقاديا على الطريق إلى الله فإن الكون كله مثال اعتقادي عل الحقائق الغيبية وعلى العقل البشري أن يسلم بالتفسير الاعتقادي للواقع الكوني وللظواهر الكونية...

فظاهرة (النجم الثاقب) لا تقبل تفسيرا لها سوي أن النجم يترل على الشياطين التي تسترق السمع في السماء بدليل قول الله: (وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً)، وكذلك أشد ما نجد من الحر والبرد حيث يروي أبو هريرة رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف)[16], بهذا الأسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا اشتد البرد فأبردا بالصلاة فإن شدة الحر من فيح جهنم)[17]...

وفي رواية البخاري ومسلم (فأشتد ما تجدون من البرد من زمهرير جهنم وأشد ما تجدون من الحر من حر جهنم).

---

[16] البخاري في بدء الخلق (6/330)، ومسلم رقم (617)، والترمذي (2595) في صفة جهنم وهو في المسند (238، 2/462)، والموطأ من حديث عطاء بن يسار.

[17] أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (2/15) باب الإبراد بالظهر في شدة الحر، ومسلم رقم (615) في المساجد باب أستحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر، والحديث عند الترمذي (157)، وأبي داود (402)، والنسائي (1/248)، الموطأ (1/15) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو في المسند (2/26).

ولا يتوقف أمر الدلالة الإعتقادية على (العناصر)، و (الظواهر الكونية)، بل يمتد إلى (الأوضاع الكونية)، ولعل أهم مثال لذلك هو وضع بيت المقدس والسور الذي فيه، حيث جعله الله مثالا كونيا لوضع السور الذي بين الجنة والنار في الآخرة ودليل ذلك هو ما ورد في تفسير قول الله

عز وجل: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)، حيث تضمن ذلك السور هو سور بيت المقدس عند وادي جهنم وهو الوارد عن عبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت وكعب الأحبار وعلى بن الحسين وزين العابدين.

ثم تعقيب ابن كثير على هذا الرأي بقوله: وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك لا أن هذا هو الذي أريد من القرآن بهذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادي المعروف بوادي جهنم؛ فإن الجنة في أعلي عليين والنار في الركات أسفل سافليين، وتعقيب ابن كثير بأنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالا لذلك، لا يفهم على أنه مجرد تمثيل بأي مكانين بينهما فاصل وإلا لأصبح أي مكانين في الدنيا بينهما فاصل مثالا لذلك، ولكن قول ابن جرير المروي عن عبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت يفيد أن بيت المقدس ووادي جهنم والسور الذي بينهما هم على وجه الخصوص صورة مادية للحقيقة الغيبية المتعلقة بالسور الذي بين الجنة والنار الوارد في الآية كما ورد قول ابن جرير أن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادي جهنم، ويؤكد هذا التخصيص إطلاق اسم جهنم على الوادي الذي خلف السور وإطلاق اسم باب الرحمة على الباب الذي في السور، وعلى هذا يكون القول في المسألة أن السور الوارد في الآية هو الذي بين الجنة والنار، وأن السور الذي بين بيت المقدس ووادي جهنم هو على وجه التحديد مثال أوجده الله سبحانه إظهارا كونيا لحقيقة غيبية...

والجدير بالذكر أن هذا المكان هو الذي سيشهد قتل عيسى ابن مريم للدجال حيث كان يصلي عيسى ببيت المقدس ويقف الدجال خلف الباب[18] وقد أورد الآلوسي في تفسير (روح المعاني)، قولا آخر هو أن المقصود من الآية: أن موضع الجنة والنار والسور بينهما سيكون هو نفس موضع بيت المقدس ووادي جهنم، والسور الذي بينهما، وذلك في حال تبدل الأرض والسموات وذلك في تفسير الآية: (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)، حيث أورد قول ابن جرير فقال: أخرج عبد بن حميد عن أبي سنان قال: كنت مع على بن عبد الله بن عباس عند وادي جهنم يعني

[18] سيأتي النص الدال على ذلك في فصل (علامات الساعة إن شاء الله تعالى).

المكان عند وادي جهنم، وأخرج هو وابن جرير والمنذر والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن السور الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن: (فضرب بينهم بسور له باب)، هو سور بيت المقدس (باطنه فيه الرحمة)، المسجد (وظاهره من قبله العذاب)، يعني وادي جهنم وما يليه...

3) كمال الإظهار:

وكمال الإظهار، هو الحد النهائي لمفهوم الإظهار فإذا كان مفهوم الإظهارهو الدلالة الاعتقادية لحقائق الخلق، فإن كمال الإظهار هو إثبات الكمال في الدلالة الاعتقادية التي تظهر بالواقع، فإذا كان إثبات القدرة هو مضمون تلك الدلالة، فإن كمال الإظهار هو إثبات كمال هذه القدرة...

وأدلة كمال اظهار القدرة منها ما هو كوني مثل قول الله: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)، وكون النار من الشجر فإن هذه دليل قدرة ولكن أن تكون النار من الشجر الأخضر الريان بالماء يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ثم يصير هو وقود النار بعد اللدونه والإخضرار، فإن هذا يضيف إلى القدرة كمالها...

ومثال قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الحبة السوداء فيها شفاء من كل داء)[19]، فإن كون لكل داء دواء هذا دليل قدرة ولكن حبة صغيرة سوداء فيها من كل داء فإن هذا يضيف إلى حقيقة القدرة كمالها...

غير أن واقع الدعوة هو المجال الذي يثبت فيه كمال الإظهار بصورة واضحة والصيغة الأساسية لهذا الظهور هو أن نصوص إظهار القدرة الإلهية تبدأ من واقع الضعف البشري الكامل أو إثبات التأييد الإلهي من بدايته وهذه هي الحكمة في أن يخبر القرآن في قصة وحي الله ليوسف وهو في البئر (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)، لأن وجود يوسف الصغير الملقي في البئر هي نقطة الضعف الكامل التي ستجعلها القدرة الإلهية الكاملة بداية للتمكين التام وهو موضوع القصة كلها

وصيغة إظهار القدرة الإلهية بالتأييد في لحظة الضعف التام لأصحاب الدعوة هي الصيغة الأولى من صيغ إثبات القدرة. أما الصيغة الثانية فهي إظهار القدرة الألهية بالإهلاك

---

[19] حديث صحيح رواه الجماعة: أخرجه البخاري في (الطب) (10/143)، ومسلم في السلام (2215)، والترمذي في الطب (2042) كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في لحظة القدرة الكاملة لأعداء الدعوة، من أجل ذلك جعل الله يأجوج ومأجوج يصلون قبل إهلاكهم إلى حد القدرة الكاملة، قال قائلهم: هؤلاء أهل الأرض فرغنا منهم وبقي أهل السماء، فقال قائل ثم يهز أحدهم حربته ثم يرمي بها إلى السماء فترجع إليه مختضبة دما للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك بعث الله دودا في أعناقهم كنغف الجراد الذي في أعناقه[20] فيصبحون موتى لا يسمع لهم حس...

ثم نأتي إلى المثال الجامع للصيغتين، وهي قصة موسى وفرعون وذلك في قول الله: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)، وتبدأ أول لحظات تحقيق الإرادة الإلهية بأضعف موقف في قصة موسى و وحيه إلى أم موسي: (أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، بعد إثبات علو فرعون في الأرض.

والحقيقة أن هناك مثال يؤكد أن كمال الإظهار أمر مقصود لذاته وهو ما ورد في قصة أيوب حيث أن الله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يرزق أيوب رزقه بصورة غير طبيعية وهي أنزال جراد الذهب عليه. جراد من الذهب... جراد لأن الجراد سبب طبيعي للهلاك والقحط والخراب. ولكنه سيكون في هذه المرة بقدرة الله الكاملة سببا للنعيم والخير والبركة.

وهذا المثال الأخير يدل على أن إثبات كمال القدرة أمر مقصود تماما وإلا فلما لم يرزق أيوب بصورة أخرى غير جراد الذهب...

4) حقائق الإظهار:

علمنا مما سبق أن الله يعرف بآثار صفاته وأفعاله؛ وهذا الخلق جزء من تلك الآثار ابتداء من مادة الخلق وعناصره والعلاقة بين تلك العناصر، ومرورا بكيفية الخلق ومراحله

[20] الحديث أخرجه أحمد في (مسنده) [510 -2/115) [2/77]، والترمذي (597- 8/598) في التفسير، وابن ماجد في (الفتن) رقم (4079) من حيث أبي هريرة وسنده حسن إن شاء الله كما قال الترمذي، وقال ابن كثير (4/426) في تفسيره: (إسناده جيد قوي) ثم استنكر دفعه، ولا نكارة كما بينه الألباني في الصحيحه (1735)، والحديث أخرجه الحاكم (4/488)، وصححه ووافقه الذهبي.

والعلاقة بين تلك المراحل، وانتهاء بنظام الخلق وظواهره والعلاقة بين تلك الظواهر بما في ذلك ما يسمي غرائب الطبيعة فإننا نؤمن أن لها دلالة اعتقادية تثبتها وتظهرها وإن لم تدرك حكمتها؛ هذا من حيث الواقع الكوني.

أما من حيث الأسماء والصفات فإن حقيقة جمع الأفعال والأسماء والصفات هو أساس الإظهار ومعني حقيقة الجمع هو أن أفعال الله راجعة ومجتمعة في أسمائه كما أن جميع أسمائه راجعة ومجتمعة في صفاته فإذا كان الخلق من أفعال الله وأن أفعال الله تكون بالحكمة، فإن الحكمة تكون بذلك أصل حقائق الإظهار من حيث الأسماء والصفات ومن حيث الخلق...

أ) حقائق الإظهار من حيث الأسماء والصفات: وأصلها الحكمة؛

وفي إثباها يقول ابن القيم: أن مجرد الفعل من غير قصد ولا حكمة ولا مصلحة يقصدها يقصدها الفاعل أصلاً لا يكون متعلقا للحمد؛ فلا يحمد عليه حتى لو حصلت به مصلحة من غير قصد الفاعل لحصولها لم يستحق الحمد عليها كما تقدم؛ بل الذي يقصد الفعل لمصلحة وحكمة وغاية محمودة وهو عاجز عن تنفيذ مراده أحق بالحمد من قادر لا يفعل لحكمة ولا لمصلحة ولا لقصد الإحسان هذا المستقر في فطر الخلق...

ويواصل ابن القيم إثبات الحكمة فيقول في (شفاء العليل): (ولم يكن طلوع الشمس وغروبها على هذا النظام لغير علة ولا حكمة مطلوبة فكم من حكمة ومصلحة في ذلك: إقامة الليل والسكن فيه، والنهار والمعاش فيه، فلوجعل الله عليهم الليل سرمدا لتعطلت مصالحهم وأكثر معايشهم؛ والحكمة في طلوعها أظهر من أن تنكر ولكن تأمل الحكمة في غروبها إذ لولا ذلك لم يكن هدوء ولا قرار ولا راحة وكان الكد الدائم فتتلف أبدانهم وتسرع فسادها وكان ما على الأرض يحرق بدوام الشمس من حيوان ونبات فصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم وقوامه ونظامه...

وكذلك الحكمة في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمة الأربعة وما في ذلك من الحكمة فإن في الشتاء تغور الحرارة في الشجر فيتولد من ذلك مواد الثمار وتكيف الهواء فتنشأ منه السحاب، ويحدث المطر الذي به حياة الأرض والحيوان وتشتد أفعال الحيوان، وتقوي الأفعال الطبيعية، وفي الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد الكامنة في الشتاء، وفي الصيف يسخن الهواء فتنضج الثمار، ويتحلل فضول الأبدان، ويجف وجه

الأرض فيهيأ للبناء وغيره، وفي الخريف يصفو الهواء ويعتدل فيذهب بسورة حر الصيف وسموسه إلى أضعاف ذلك من الحكم...

وكذلك الحكمة في تنقل الشمس فإنها لو كانت واقفة في موضع واحد لفاتت مصالح العالم ولما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأن الجبال والجدران يحجبها عنها، فاقتضت الحكمة الباهرة أن جعلتها تطلع أول النهار من المشرق وتشرق على ما قابلها من وجه الغرب، ثم لا تزال تغشى وجها بعد وجه حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها أول النهار، فتأخذ جميع الجهات منها قسطا من النفع...

وكذلك الحكمة الباهرة في انتهاء مقدار الليل والنهار إلى هذا الحد فلو زاد مقدار أحدهما زيادة عظيمة لتعطلت المصالح والمنافع وفسد النظام، وكذلك الحكمة في ابتداء القمر دقيقا ثم أخذه في الزيادة حتى يكتمل ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى. فكم في ذلك من حكمة ومصلحة ومنفعة للخلق فإنهم بذلك يعرفون الشهور والسنين والآجال، وأشهر الحج، والتاريخ، ومقادير الأعمار، ومدد الإجارات بذلك، وغيرها... وهذا وإن كان يحصل بالشمس إلا أن معرفته بالقمر وزيادته ونقصانه أمر مشترك فيه الناس كلهم...

وكذلك الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل فإنه من الحاجة إلى الليل وظلمته لهدوء الحيوان وبرد الهواء عليه وعلى النبات لم يجعل الليل ظلاما محضا فيه فلا يمكن فيه سفر ولا عمل وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت في النهار ولشدة الحر، فيتمكنون في ضوء القمر من أعمال كثيرة. وجعل نوره باردا ليقاوم حرارة نور الشمس، فيرد سمومه، فيعتدل الأمر، ويكسر كيفية كل منهما كيفية الآخر، ويزيل ضررها...

وكذلك الحكمة في خلق النجوم فإن فيها الهداية في البر والبحر والاستدلال على الأوقات وزينة السماء وغير ذلك...

وكذلك الحكمة في خلق النار على ما هي عليه كامنة في حاملها؛ فإنها لو كانت ظاهرة كالهواء والماء والتراب لأحرقت العالم وما فيه ولم يكن بد من ظهورها في الاحايين للحاجة إليها فجعلت مخزونة في الأجسام توري عند الحاجة إليها فتمسك بالمادة والحطب ما احتيج إلى بقائها ثم تخبو إذا ما استغني عنها، فجعلت على خلق وتقدير وتدبير حصل به الاستمتاع والانتفاع مع السلامة من ضررها، ثم للنار خلة أخرى وهي أنها مما خص به الإنسان دون سائر الحيوان؛ فإن الحيوانات لا تستعمل ولا تتمتع بها، ولما اقتضت الحكمة

الباهرة لذلك اغتنيت الحيوانات عنها في لباسها وأقواتها، فأعطيت من الشعور والأوبار، وجعلت أغذيتها بالمفردات التي لا تحتاج إلى طبخ وخبز. ولما كانت الحاجة إليها شديدة جعل من الآلآت والأسباب ما يتمكن به من إثارتها إذا شاء ومن إبطالها. ومن حكمتها هذه المصابيح التي يوقدها الناس فيتمكنون بها من كثير من حاجاتها ولولاها لكان نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور، وأما منافعهم في إنضاج الأغذية والأدوية والدفء، فلا يخفي.

وقد نبه تعالى على ذلك بقوله: (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ). أي تذكر بنار الاخره فيتحرز منها ويستمتع المقوون وهم النازلون بالفيفاء وهي الأرض الخالية. وخص هؤلاء بالذكر لشدة حاجتهم إليها في خبزهم وطبخهم حيث لا يجدون ما يشترونه فيغنيهم عن ما يصنعونه بالنار.

وكذلك الحكمة في خلق النسيم وما فيه من المصالح والعبر؛ فإنه حياة هذه الأبدان وقوامها من خارج ومن داخل، وفيه هذه الأصوات فيؤديها إلى السامع، وهو الحامل لهذه الأراييح يؤديها إلى المسام، وينقلها من موضع إلى موضع، وهو الذي يزجي السحاب ويسوقه من مكان إلى مكان على ظهره كالروايا على ظهور الإبل، وهو الذي يسير السحاب أولا فيكون كسفا متفرقة فيؤلف بينه ثانيا فيصير طبقا واحد، ثم يلقحه ثالثا كما يلقح الفحل الأنثي فيحمل الماء كما تحمل الأنثي من لقاح الفحل، ثم يسوقه رابعا إلى أحواج الأماكن والحيوان إليه، ثم يعصره خامسا حتى يخرج ماؤه، ثم يذر ماؤه بعد عصره سادسا حتى لا يسقط جملة فيهلك ما يقع عليه، ثم يربي النبات سابعا فيكون له بمنزلة الماء والغذاء يجففه بحرارته ثامنا لئلا يعفن ولا يمكن بقاءه.

ولهذا اقتضت الحكمة الباهرة أن تكون الرياح مختلفة المهاب والصفات والطبائع.

فزعم نفاة الحكمة أن هذا كله أمر اتفاقي لا سبب ولا غاية، وهذا لو تتبعناه لجاء عدة أسفار بل لو تتبعنا خلقه الإنسان وحده وما فيه من الحكم والغايات لعجزنا نحن وأهل الأرض عن الإحاطة بتفصيل ذلك.

وينفي العلم الحديث أن يكون الوجود مصادفة ويثبت الحكمة فيقول (كريسي موريسون) صاحب كتاب (العلم يدعو للإيمان): فإذا لم تكن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق، وأن تكون قد نشأت عن طريق المصادفة فما هي تلك المصادفة؟ حتى نتدبرها ونرى كيف تخلق الحياة؟ إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس

الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع حيث لا نعلم الحكم الصحيح المطلق، وتضع هذه النظريات أمامنا الحكم الأقرب إلى الصواب مع تقدير احتمال الخطأ في هذا الحكم. ولقد تقدمنا في دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدما كبيرا حتى أصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي تقول إنها تحدث بالمصادفة والتي لا تستطيع أن تظهر نفس ظهورها بطريقة أخرى (مثل قذف الزهر في لعبة النرد)، وقد صرنا بفضل تقدم هذه الدراسات قادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه وأن يجب احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في مدي معين من الزمان.

ولننظر الآن إلى الدور الذي تستطيع أن تلعبه المصادفة في نشأة الحياة. إن البروتينات من المركبات الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي: الكربون والإيدروجين والنتروجين والأكسجين والكبريت، ويبلغ عدد الذرات في الجزيء الواحد 405.000 ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيماوية في الطبيعة 39 عنصرا موزعة كلها توزيعا عشوائيا فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة التي تكون جزئيا من جزئيات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط لكي تؤلف الجزيء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد قام العالم الرياضي السويسري (تشارل زيوجين جاي) بحساب هذه العوامل جميعا فوجد أن الفرصة لا تتهيأ عن طريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة 160/1 أي بنسبة رقم عشرة في نفسه 160 مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات. وينبغي أن تكون المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات، ويتطلب تكوين هذا الجزيء، وعلى سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بملايين لا تحصي من السنوات قدرها العالم السويسري بأنها مضروبة في نفسها 342 مرة من السنين (10 - 342) سنة.

إن البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية فكيف تتألف ذرات هذه الجزئيات؟ إنها إذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها تصير غير صالحة بل تصير في بعض الأحيان سموما. وقد حسب العالم الإنجليزى (سيثر) الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزئيات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ الملايين

(48/10)، وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تبني بروتينا واحدا!

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة ولا تدب فيها إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئا؛ إنه العقل اللانهائي[21] وهو الله وحده الذي علم سبحانه ببالغ حكمته أن مثل هذا الجزيء البروتيني يصلح أن يكون مستقرا للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة.

وبعد إثبات أصل الحكمة نأتي إلى حقائق الإظهار الخمسة المرتبطة بهذا الأصل.

أولا: الحق:

وفي ارتباط الحق بالحكمة يقول ابن القيم: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، والحق هو الحكم والغايات المحمودة التي لأجلها خلق ذلك كله، ويفصل ابن القيم هذه الحكم فيقول: هي أنواع كثيرة منها: أن يعرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته، ومنها أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع، ومنها أن يأمر وينهي ويشرع الشرائع، ومنا أن يدبر الأمر ويبرم القضاء ويتصرف في المملكة بأنواع التصرفات، ومنها أن يثيب ويعاقب فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته فيوجد أثر عدله وفضله موجودا مشهودا فيحمد على ذلك ويشكر، ومنها أن يعلم خلقه أنه لا إله غيره ولا رب سواه، ومنها أن يصدق الصادق فيكرمه ويكذب الكاذب فيهينه، ومنها ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها في الوجود الذهني والخارجي فيعلم عباده ذلك علما مطابقا لما في الواقع، ومنها شهادة مخلوقاته كلها بأنه وحده ربها وفاطرها ومليكها وأنه وحده إلهها ومعبودها، ومنها ظهور أثر كماله.

المقدس فإن الخلق والصنع لازم كماله فإنه حي قدير، ومن كان كذلك لم يكن إلا فاعلا مختارا، ومنها أن يظهر أثر حكمته في المخلوقات بوضع كل منها في موضعه الذي يليق ومحبته على الوجه الذي تشهد العقول والفطر بحسنه، فتشهد حكمته الباهرة، ومنها أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم ويعفو ويغفر ويسامح، ولا بد من لوازم ذلك خلقا وشرعا، ومنها أنه يحب أن يثنى عليه ويمدح ويمجد ويسبح ويعظم ومنها كثرة شواهد ربوبيته ووحدانيته وإلهيته، إلى غير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق، فخلق مخلوقاته

[21] هذه عبارة كريسى موريسون.

بسبب الحق ولأجل الحق وخلقها ملتبس بالحق وهو في نفسه حق فمصدره حق وغايته حق وهو متضمن للحق[22].

وقد بوب البخاري بابا في قول الله عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ). ثم روي حديث ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو من الليل وذكر دعاءه وفيه: (أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق)، ويعلق ابن القيم على ذلك بقوله: وذلك من البخاري إشارة إلى مذهب أهل السنة في إثبات الحكمة.

ثانيا: العدل:

وفي ارتباط الحكمة بالعدل يقول ابن القيم: والدليل على هذا هو إنكاره سبحانه أن يسوي بين المختلفين أو يفرق بين المتماثلين وأن حكمته وعدله يأبى ذلك.

أما الأول فكقوله: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)، فأخبر أن هذا حكم باطل جائر يستحيل نسبته، إليه كما يستحيل نسبة الفقر والحاجة والظلم إليه، ومنكروا الحكمة والتعليل يجوزون نسبة ذلك إليه، بل يقولون بوقوعه وقال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)، وقال: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ). فجعل سبحانه ذلك حكما سيئا يتعالى ويتقدس عن أن يجوز عليه فضلا عن أن ينسب إليه بل أبلغ من هذا أنه أنكر على من حسب أن يدخل الجنة بغير امتحان له وتكليف يبين به صبره وشكره وأن حكمته تأبي ذلك كما قال تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابرينَ)، وقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)، وقال: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً). فأنكر عليهم هذا الظن والحسبان لمخالفته لحكمته.

وأما الثاني: وهو أنه لا يفرق بين المتماثلين فكقوله: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً)، وقوله: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)، وقوله: (الْمُنَافِقُونَ

[22] راجع شفاء العليل ص 198

وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ)، وقوله: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ)، وقوله: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)، وقوله: (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُم)، وقوله: (دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا)، وقوله: (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً)، وقوله: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)، وقوله: (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل). فسنته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرهم وإهانة أولئك وإذلالهم وكبتهم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)، والقرآن مملوء من هذا. يخبر تعالى أن حكم شيء في حكمته وعدله حكم نظيره وماثله وضد حكم مضاده ومخالفه وكل نوع من هذه الأنواع لو استوعبناها لجاء كتابا منفردا.

ثالثا: الإحسان:

وفي ارتباط الإحسان بالحكمة يقول ابن القيم: إخباره بأن حكمه أحسن الأحكام وتقديره أحسن التقادير ولولا مطابقته للحكمة والمصلحة المقصودة المرادة لما كان كذلك، إذ لو كان حسنه لكونه مقدورا ومعلوما كما يقوله النفاة لكان هو وضده سواء فإنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، فكان كل معلوم مقدور أحسن الأحكام وأحسن التقادير وهذا ممتنع قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

وقال: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ). فجعل هذا أن يختار لهم دينا سواه ويرتضي دينا غيره كما يمتنع عليه العيب والظلم، وقال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)، وقال: (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)، وقال: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)، فلا أحسن من تقديره وخلقه لوقوعه على الوجه الذي اقتضته حكمته ورحمته وعلمه[23].

رابعا: الرحمة:

وفي ارتباط الرحمة بالحكمة يقول ابن القيم: اتصافه بالرحمة وأنه أرحم الراحمين وأن رحمته وسعت كل شيء، وذلك لا يتحقق إلا بأن تقصد رحمة خلقه بما خلقه لهم، وبما أمرهم به فلو لم تكن أوامره لأجل الرحمة والحكمة والمصلحة وإرادة الإحسان إليهم، لما كانت رحمه. ولو حصلت بها الرحمة لكانت إتفاقية لا مقصودة، وذلك لا يوجب أن

[23] أ. ه كلام ابن القيم رحمة الله 0

يكون الآمر سبحانه أرحم الراحمين، فتعطيل حكمته والغاية المقصودة التي لأجلها يفعل إنكار لرحمته في الحقيقة وتعطيل لها. وكان يشيع هذا المذهب جهم بن صفوان يقف على الجذامى[24] – ويشاهد ما هم فيه من البلايا ويقول: أرحم الراحمين يفعل مثل هذا يعني انه ليس ثمت رحمة في الحقيقة، وأن الأمر راجع إلى محض المشيئة الخالية عن الحكمة والرحمة ولا حكمة عنده ولا رحمة فإن الرحمة لا تعقل إلا من يفعل الشيء لرحمة غيره ونفعة والإحسان اليه، فإذا لم يفعل لغرض ولا غاية ولا حكمة، لم يفعل الرحمة والإحسان.

خامسا؛ الخير:

ثم نأتي إلى الحقيقة النهائية والأساسية في آثار أسماء الله وصفاته، وعليها يكون مدار الإظهار وأفعال الله دائرة بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة، وكل ما ينسب إلى الله فهو خير فالله تعالى خالق الخير، والشر في بعض مخلوقاته، لا في خلقه وفعله، أما خلقه وفعله وقضائه وقدره خير كله إذ أن الشر حقيقة؛ هو وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرا والأسماء الدالة على أن الله يضع الشيء في محله هي (القدوس، السلام، العزيز، الجبار، المتكبر)، (القدوس)، المتره عن الخطأ، (السلام)، الذي سلم من إرادة الظلم والشر ومن التسمية ومن فعله ومن نسبته إليه، ولهذا وصف ليلة القدر بأنها سلام (وهي ليلة القدر الحولي)، (العزيز)، البراءة من كل عيب وسوء ونقص، (المتكبر)، المتكبر عن السوء، فإذا فعل العبد القبيح المنهي عنه كان قد فعل الشر والسوء، والرب جعله فاعلا لذلك والفعل منه: عدل وحكمة وصواب، فجعله فاعلا والمفعول شر صفة تقتضي عدم الخير كعدم العفة والصبر والعدل في حق الغني فيحصل الشر في غناه بعدم هذه الصفات[25].

وعلى ضوء هذا التصور نفهم قول الله: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ).

حيث تفيد الآية أن ما خلقه الله فهو أمر وجودي به كمال المخلوقات وتمامه، أما عيبه ونقصه فمن عدم قبوله، وعدم القبول ليس أمرا مخلوقا يتعلق بفعل الوجود الذي فيه آفات.

ويحدد النبي صلى الله عليه وسلم العلاقة بين الخير والشر في هذا الوجود فينفي على أساس هذا التصور أن يكون الخير سببا ذاتيا للشر وذلك عندما سأله أعرابي قائلا: يا

[24] أي المصاب بمرض الجذام

[25] شفاء العليل ص 383.

رسول الله أو يأتي الخير بالشر؟! فسكت النبي صلى الله عليه وسلم قلنا يوحي إليه وسكت الناس كأن على رؤوسهم الطير ثم أنه مسح عن وجهه الرحضاء فقال: أين السائل آنفا؟ وخير هو (ثلاث) إن الخير لا يأتي إلا بالخير وإنه كلما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم كلما أكلت حتى إذا آمتلأت خاصرتها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ورتعت[26].

ولعلنا نلحظ عمق الإجابة بما يتفق مع عمق السؤال؛ وخصوصا عندما نحاول تفسير الإجابة ومضمونها إنه مثلما ترعي بقرتان مما ينبت الربيع فرعت واحدة وأكلت بصورة خاطئة فحبطت وماتت ورعت الأخرى وأكلت بصورة صحيحة ثم (استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت)، فإن هذا يعني أن أخذ البقرة الأولى (لما ينبت الربيع)، هو الذي قتلها وأخذ البقرة الثانية (لما ينبت الربيع)، هو الذي أفادها وعلى هذا كانت الإجابة أن الخير لا يأتي إلا بالخير، ولكن أخذ الناس للخير بصورة خاطئة هو الذي ينشيء الشر[27].

ويقول ابن القيم في تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك)[28]، فهذا النفي يقتضي امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه. فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله. وتحقيق ذلك أن الشر ليس إلا الذنوب وعقوبتها كما في خطبته صلى الله عليه وسلم: (الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا)[29]، فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه.

مثال له: إن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير، فإنها خلقت من الأصل متحركة لا تسكن فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت، وإن تركت تحركت بطبعها في خلافة وحركتها من حيث هي حركة إنما تكون شرا بالإضافة، لا من حيث هي حركة.

---

[26] الحديث رواه البخاري في الجهاد (6/48) باب فضل النفقة في سبيل الله، وكرر في الرقاق (11/244)، ومسلم في الزكاة (6/142) كلاهما من حديث عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

[27] حكمة الدعوة للكاتب.

[28] هو قطعة من حديث أخرجه مسلم في (صلاة الليل) [6/57)، وأهل السنن الأربعة من حديث عبد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

[29] حديث صحيح أخرجه أبو داود في النكاح (6/153)، وابن ماجه وأحمد (3721).

والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه فلو وضع في موضعه لم يكن شرا فعلم أن جهة الشر فيه نسبة إضافية، ولهذا كانت العقوبة الموضوعة في محالها خيرا في نفسها وإن كانت شرا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به لما أحدثت من الألم وكانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة فصار الألم شرا بالنسبة لها وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه موضعه، فإنه سبحانه لا يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك، بل قد يكون ذلك المخلوق شرا ومفسدة ببعض الاعتبارات، وفي خلقه مصالح وحكم واعتبارات أخر أرجح من اعتبارات مفاسدة.

بل الواقع منحصر في ذلك فلا يمكن في جانب الحق جل جلاله أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه بكل اعتبار لا مصلحة في خلقه بوجه ما هذا من أبين المحال فإنه سبحانه بيده الخير، والشر ليس إليه بل كل ما إليه خير والشر إنما لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه فلو كان إليه لم يكن شرا فتأمله، فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرا.

فإن قلت لم تنقطع نسبته اليه خلقا ومشيئتة، قلت: هو من هذه الجهة ليس بشر فإن وجوده هو المنسوب إليه وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه. والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

فإن أردت مزيد إيضاح ذلك فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة:

الإيجاد، والإعداد، والإمداد، فهذه هي الخيرات وأسبابها فإيجاد السبب خير وهو إلى الله، وإعداده خير وهو إليه أيضا وإمداده خير وهو إليه أيضا، فإذا لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى فاعل، وإنما إليه ضده، فإن قلت: فهلا أمده إذ أوجده؟! قلت: إذا اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده فإنه سبحانه يوجد ويمد، وما اقتضت الحكمة إيجاده وترك إمداده أوجده بحكمته، ولم يمده بحكمته، فإيجاده خير والشر وقع من عدم إمداده.

ب) حقائق الاظهار من حيث أصول الخلق:

بعد إثبات حقائق الإظهار من حيث الأسماء والصفات والأفعال يأتي بعدها حقائق الإظهار من حيث الخلق، وهي الأخرى لها عدة أصول تحقق إظهار آثار أسماء الله وصفاته في جميع الخلق، وهي بذاتها الحقائق العامة الشاملة لجميع الخلق وهي:

1) حقيقة التنوع.
2) حقيقة التقابل.

3) حقيقة التوازن.

1) حقيقة التنوع:

وهي أبرز ظواهر الخلق، فهذه الجمادات والحيوانات المختلفة الأشكال والمقادير والصفات والمنافع، والقوي والأغذية والنباتات التي هي كذلك، فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفة وتجربته على مر الدهور، ومع ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله بل لو اتفق جميع الأمم لم يحيطوا علما بجميع ما أودع واحد من ذلك النوع من الحكم والمصالح.

هذا إلى ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود الخالق ومشيئته واختياره، وعلمه وقدرته وحكمته؛ فإن المادة الواحدة لا تحتمل بنفسها هذه الصور الغريبة والأشكال المتنوعة والمنافع والصفات. فحصول هذا التنوع والتفاوت والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الرب تعالى ودلائل ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعال لما يريد اختيارا ومشيئة، فتنوع مخلوقاته وحدوثها شيئا بعد شيء من أظهر الدلالات.

وتامل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وقوله: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)، وقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، وقال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشى مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف، فيشير إلى يسير منه فالطير كلها تشترك في الريش والجناح

وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغال وتفاوتها فيما وراء ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها فى الخلق والمنافع والاشكال، واشتراك حيونات الماء في كونها سابحه تأوى فيه وتتكون وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، واشتراك الماشى منها على بطنه في ذلك وتفاوت نوعه واشتراك الماشى على رجلين فى ذلك، وتفاوت نوعه أعظم تفاوت.

وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحايل على جلب مصالحه ودفع مضاره يعجز كثير منها نوع الأنسان فمن أعظم الحكم الداله الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل، فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة بالنوع من قادر واحد حكيم واحد بجميع هذه الأنواع أوضعافها مما لا تعلمه العقول البشرية كما قال: (وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)، وقال: (فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لا تُبْصِرُونَ)، فيجمع غايات فعله وحكمة خلقه وأمره إلى غاية واحدة هي منتهي الغايات وهي إلهية الحق التي كل إلهية سواها فهي باطل ومحال، فهي غاية الغايات ثم يترل منها إلى غايات أخر هي وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة إلى ما دونها، (وأن إلى ربك المنتهى).

فليس وراءه معلوم ولا مطلوب ولا مذكور إلا العدم المحض وليس في الوجود إلا قدرة الله ومفعولاته وهي آثار أفعاله، وأفعاله آثار صفاته، وصفاته قائمة به من لوازم ذاته.

والمقصود أن الغايات المطلوبة العلم بإحاطة علم واحد من عالم واحد، وفعل واحد من فاعل واحد، وقدرة واحدة من قادر واحد، وحكمة واحدة من حكيم واحد؛ بجميع ما فيه على أختلاف ما فيه، واجتمعت غايات فعله وأمره إلى غاية واحدة وذلك من أظهر أدلة توحيد الإلهية كما ابتدأت كلها من خالق واحد، وقادر واحد، ورب واحد، ودل على الأمرين أعني توحيد الربوبية والإلهية النظام الواحد، والحكمة الجامعة للأنواع المختلفة.

ودل افتقار بعضها إلى البعض، وتشبك بعضها ببعض، ومعاونة بعضها ببعض، وارتباطه به على أنها صنع فاعل واحد ورب واحد ليس معه آلهة وأرباب غيره، كما لا ترضي ملوك الدنيا أن يحتاج مملوك أحدهم إلى مملوك غيره مثله لما في ذلك من النفص والعيب المنافي لكمال الاقتدار والغناء، ودل انتظامها في الوجود ووقوعها في ثباتها واختلافها على أكمل الوجوه وأحسنها على انتهائها إلى غاية واحدة ومطلوب واحد هو الهها الحق ومعبودها الأعلي الذي لااله لها غيره ولامعبود له سواه.

فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات وثباها واجتماعها فيما اجتمعت فيه وافتراقها فيما أفترقت على إله واحد، ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله سبحانه وتعالى. وللتنوع قاعدة عامة تعرف باسم (القسمة الرباعية)، وهي التي أشار إليها ابن القيم في تنوع الخلق وتنوع عملهم فيقول من حيث تنوع الخلق: ولهذا خلق سبحانه النوع الإنساني أربعة أقسام أحدها لا من ذكر ولا أنثي وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم والثاني من ذكر بلا أنثي كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غي أن تحمل بها أنثي، ويشتمل عليها بطن، والثالث خلقه من أنثي بلا ذكر كخلق المسيح عيسى ابن مريم، والرابع خلق سائر النوع الإنساني من ذكر وأنثي، وكل هذا ليدل على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، وأن الأمر ليس كما يظنه أعدائه الجاحدون له والكافرون به من أن ذلك أمر طبيعي لم يزل هكذا ولا يزال، وأنه ليس للنوع أب ولا أم وأنه ليس إلا أرحام تدفع وأرض تبلغ وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد، ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال أن الطبيعة قوة وصفة فقيرة إلى محلها محتاجة إلى فاعل لها وأنها من أدل الدلائل على وجود أمره بطبعها وخلقها. وأودعها الأجسام وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة. فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته، ومملوك من مماليكه وعبيده مسخرة لأمره تعالى، منقادة لمشيئته. ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بأنها مخلوقة مصنوعة لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف في ذاتها ونفسها فضلاً عن إسناد الكائنات إليها.

وبعد تطبيق قاعدة القسمة الرباعية على النوع الإنساني ينتقل إلى تطبيقها على السلوك الإنساني وذلك من حيث الإخلاص والمتابعة والعلم والعمل كمثال تطبيقي لقاعدة القسمة الرباعية.

أما من حيث الإخلاص والمتابعة من الخلق: فيقول ابن القيم في مدارج السالكين[30]: والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أربعة أقسام:

أحدهما: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة.

والثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة.

والثالث: من هو مخلص في عمله لكنها على غير متابعة.

والرابع: من أعماله على متابعة الأمر بغير اخلاص لله.

[30] ص: 45

ومن حيث العلم والعمل: وهداية الجنس البشري ففيه قول الله عز وجل: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ). حيث يأتي تفسيرها فيقسم الناس أربعة أقسام:

القسم الأول: (الأيدي القوي في تنفيذ الحق، والأبصار البصائر في الدين والأنبياء هم أشرف الأقسام في الخلق).

والقسم الثاني: بعكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قدرة على تنفيذه الحق وهم أكثر الخلق.

والقسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه والدعوة إليه وهذا حال المؤمن الضعيف.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة ولكنه ضعيف البصيرة في الدين.

2) التقابل:

وهو الحقيقة الثابتة بعد التنوع وهو مقتضى حكمة الخالق، وفيه يقول ابن القيم: إن الحكمة إنما تتم بخلق المتضادات والمتقابلات كالليل والنهار، والعلو والسفل، والطيب والخبيث، والخفيف والثقيل، والحلو والمر، والبرد والحر، والألم واللذة، والحياة والموت، والداء والدواء، فخلق هذه المتقابلات هو محل

ظهور الحكمة الباهرة ومحل ظهور القدرة القاهرة والمشيئة النافذة والملك الكامل التام فتوهم تعطيل خلق هذه المتضادات تعطيل لمقتضايات تلك الصفات وأحكامها وآثارها. وذلك عين المحال، فإن لكل صفة من الصفات العليا حكما ومقتضيات وأثرا هو مظهر كمالها، وإن كانت كاملة في نفسها لكن ظهور آثارها وأحكامها من كمالها فلا يجوز تعطيله، فإن صفة القادر تستدعي مقدورا، وصفة الخالق تستدعي مخلوقا، وصفة الوهاب الرزاق المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر المعز المذل العفو الرؤوف تستدعي آثارها وأحكامها، فلو عطلت تلك الصفات عن المخلوق المرزوق المغفور له المرحوم المعفو عنه لم يظهر كمالها وكانت معطلة عن مقتضياتها وموجباتها، فلو كان الخلق كلهم مطيعين عابدين حامدين لتعطل أثر كثير من الصفات العلى والأسماء الحسنى، وكيف كان يظهر أثر صفة العفو والمغفرة، والصفح والتجاوز، والانتقام والعز والقهر، والعدل والحكمة التي تنزل الأشياء منازلها وتضعها مواضعها؛ فلو كان الخلق كلهم أمة واحدة لفاتت الحكم والآيات والعبر والغايات المحمودة في خلقهم على هذا الوجه، وفات كمال

الملك والتصرف. فإن الملك إذا اقتصر تصرفه على مقدور واحد من مقدوراته فإما أن يكون عاجزا عن غيره فيتركه عجزا أو جاهلا بما في تصرفه في غيره من المصلحة فيتركه جهلا. وأما أقدر القادرين وأعلم العالمين وأحكم الحاكمين فتصرفه في مملكته لا يقف على مقدور واحد لأن ذلك نقص في ملكه.

فالكمال كل المكمال في العطاء والمنع، والخفض والرفع، والثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والإعزاز والإذلال، والتقديم والتأخير، والضر والنفع، وتخصيص هذا دون هذا، وإيثار هذا على هذا ولو فعل هذا كله بنوع واحد متماثل الأفراد لكان ذلك منافيا لحكمته. وحكمته تأباه كل الإباء، فإنه لا يفرق بين متماثلين، ولا يسوي بين مختلفين. وقد عاب على من يفعل ذلك وأنكر على من نسبه إليه والقرآن مملوء من إنكاره على من يفعل ذلك فكيف يجعل له العبيد ما يكرهون، ويضربون له المثل السوء، وقد فطر الله عباده على إنكار ذلك من بعضهم على بعض، وطعنهم على من يفعله وكيف يعيب الرب سبحانه من عبادة شيئا ويتصف هو به وهو سبحانه إنما عابه لأنه نقص فهو أولى أن يتتزه عنه.

وإذا كان لابد من ظهور آثار الأسماء والصفات ولا يمكن ظهور آثارها إلا في المتقابلات، المتضادات لم يكن في الحكمة بد من إيجادها إذا لو فقدت لتعطلت الأحكام بتلك الصفات وهوالمحال[31].

ويقول ابن القيم في موضع آخر من نفس الكتاب: إن من أسمائه الأسماء المزدوجة كالمعز المذل، والخافض الرافع، والقابض الباسط، والمعطي المانع، ومن صفاته الصفات المتقابلة كالرضا والسخط، والحب والبغض، والعفو والانتقام، وهذه صفات كمال وإلا لم يتصف بها و لم يتسم بأسمائها وإذا كانت صفات كمال فإما أن يتعطل مقتضاها وموجبها وذلك نقص وعيب يتعالي عنه؛ فيتعين تعلقها بمحالها التي تليق بها وهذا وحده كاف في الجواب لمن له فقه في باب الأسماء والصفات.

3) التوازن:

وهو الظاهرة الأساسية والنهائية بعد التنوع والتقابل.

[31] شفاء العليل ص 460.

وفيها يقول ابن القيم: الموجودات بأسرها كمعسكر واحد لملك واحد وسلطان واحد يحفظ بعضه ببعض، وينظم مصالح بعضه ببعض، ويسد خلل بعضه ببعض، فيمد هذا بهذا، ويقوي هذا بهذا، وينقص من هذا فيزيده في الآخر يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، فيبيد هذا فينشيء مكانه من جنسه ما يقوم مقامه ويسد مسده فيشهد حدوث الثاني أن الذي أحدثه وأوجده هو الذي أحدث الأول لا غيره، وأن حكمته لم تتغير منها، ولا يضمحل باضمحلاله، ولا يتلاشي بتلاشيه، بل هو الحي القيوم العزيز الحكيم، هذا إلى ما في لوازم كثرتها وانتظام بعضها ببعض، وما يصدر عنها من الأفعال والآثار من حكم وأفعال أخرى وغايات أخرى حكمها حكم موادها وحواملها، كما نشاهده في أشخاصها وأعيانها.

مثال ذلك في أحدوثة واحدة أنك تري المعدة تشاق الغذاء وتجتذبه إليها، فانظر لوازم ذلك قبل تناوله، ولوازمه بعد تناوله، وما يترتب على تلك اللوازم من عمارة الدنيا، فإذا جذبته إليها أنضجته وطبخته كما تنضج القدر ما فيها فتنضجه الإنضاج الذي تعده لتغذي جميع أجزاء البدن وقواه وأرواحه به وهي إذا أنضجته لأجل نصيبها الذي ينالها منه فهو قليل من كثير بالنسبة إلى انتفاع غيرها به فيدفع ما فضل عن غذائها عنها إلى من هو شديد الحاجة إليه على قدر حاجته، من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به، ولكن قد قصده وأحكمه من هو بكل شيء عليم وعلى كل شي قدير، يدبره بحكمته ولطفه وساقه في المجاري التي لا ينفذ فيها الإبر لدقة مسالكها حتى أوصله إلى المحتاج إليه الذي لا صلاح له إلا بوصوله إليه، وكانت طبيعة الكبد ومزاجها في ذلك تلي طبيعة المعدة وفعلها يلي فعلها، وكذلك الأمعاء وباقي الأعضاء كالكبد للقلب في إعداد الغذاء، والقلب للرئة، والرئة للقلب في إعداد الهواء وإصلاحه فالأعضاء الموجودة في الشخص إذا تأملتها وتأملت أفعالها ومنافعها وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به كشكلة ووصفه ومزاجه ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين علمت علما يقينا أن ذلك صادر عن خالق واحد ومدبر واحد، وحكيم واحد، فانتقل من هذا إلى أشخاص العالم شخصا من النوع الإنساني تجد الحكمة الواحدة الظاهرة في تلك الأفراد الكثيرة قد نفعت بعضهم ببعض وأعانت بعضهم ببعض حراثا لزراع، وزراعا لحاصد، وحائكا لخياط، وخياطا لنجار، ونجارا لبناء، فهذا يعين هذا بيده، وهذا برجله، وهذا يعينه بعينه، وهذا بأذنه، وهذا بلسانه، وهذا بماله.

وإذ لا يقدر أحدهم على جميع مصالحه، ولا يقوم بحاجاته ولا توجد في كل واحد منهم جميع خواص نوعه فهم بأشخاصهم الكثيرة كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض قد كمل خواص الإنسانية في صفاته وأفعاله وصنائعه وما يراد منه، فإن الواحد منهم لا

يفي بأن يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء فجعل ذلك في النوع الإنساني بجملته.

والله سبحانه قد فرق كمالات النوع في أشخاصه، وجعل لكل شخص منها ما هو مستعد قابل له، بحيث لو قبل أكثر من ذلك لأعطاه؛ فإنه جواد لذاته قد فاض جوده وخيره على العالم كله، وفضل عنه أضعاف ما فاض عليه فهو يفيضه على تعاقب الآنات أبدا، وكذلك يفضل في الجنه عن أهلها فينشىء لها خلقا يسكنهم فضلها، وإنما يتخصص فضله بحسب استعداد العوامل والمعدات وذلك بمشيئته وحكمته، فهو الذى أوجدها، وهو الذى أعدها، وهو الذى أمدها.

ولما كان جوده وفضله أوسع من حاجة الخلق لم يكن بد من بقاء كثير منه مبذولا في الوجود مهملا وهذا كضوء الشمس مثلا، فإن مصالح الحيوان لا تتم إلا به، وهي تشرق على مواضع فضلت عن حوائج بني آدم والحيوان وكذلك المطر والنبات وسائر النعم، ومع ذلك فلم يعطل وجودها عن حكم ومصالح وعبر ودلالات، وعطاء الرب، ونعمة أوسع من حوائج خلقه فلا بد أن يبقي في المياه والأقوات والنبات وغير ذلك أجزاء مهملة؛ ولا يقال ما الحكمة في خلقها فإن هذا السؤال جاهل ظالم؛ فإن الحكمة في خلق الأرض وما عليها ظاهرة لكل بصير، والمعمور بعضها لا كلها، والرب تعالى واسع الجود دائمة، فجوده وخيره عام دائم فلا يكون إلا كذلك، فإن ذلك من لوازم عمله وقدرته وحكمته.

ولعلمه وقدرته وحكمته العموم والشمول والكمال المطلق بكل اعتبار، فيعلم من استقراء العالم وأحواله، انتهاؤه إلى عالم واحد، وقادر واحد وحكيم واحد، أتقن نظامه أحسن الإتقان، وأوجده على أتم الوجود.

وهو سبحانه ناظم أفعال الفاعلين مع كثرتها، ورابط بعضها ببعض ومعين بعضها، وجاعل بعضها، وجاعل بعضها سببا لبعض وغاية لبعض، وهذا من أدل الدليل على أنه خالق واحد ورب واحد وقادر واحد دل على قدرته كثرة أفعاله وتنوعها في الوقت الواحد وتعاقبها على تتالي الآنات وتغير تصرفاته في مخلوقاته على كثرتها.

ودل على علمه وحكمته كون كل شيء كبير وصغير ودقيق وجليل داخلا في النظام الحكمى ليس منها شيء حتى مسام الشعر في الجلد ومراشح اللعاب في الفم ومجاري الشعب الدقيقة من العروق في أصغر الحيوانات التي تعجز عنها أبصارنا ولا تنالها قدرتنا. هذا فيما دق لصغره وفيما جل لعظمة كالرياح الحاملة للسحب الى الأرض الجرز

التي لا نبات بها فيمطرها عليها فيخرج بها نباتا، ويحي بها حيوانا ويجعل فيها جزئين من الطعام والشراب والأقوات والأدوية دع مافوق ذلك من تسخير الشمس والقمر والنجوم، واختلاف مطالعها ومغاربها لإقامة دولة الليل والنهار وفصول العام التي بها نظام مصالح من عليها.

فإذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد، فيه جميع عباده، فالسماء سقفه الأرض بساطة، والنجوم زينته، والشمس سراجه، وفيه مصالح سكانه، فالليل سكنهم، والنهار معاشهم، والمطر سقياهم والنبات غذاؤهم ودوائهم وفاكهتهم والحيوان خدمهم ومنهم قوتهم ولباسهم، والجوهر كنوزهم وذخائرهم كل شئ منها لم يصلح له، وذلك أدل دليل على محدايته والتوازن لايقف عند مجرد العلاقة بين العناصر ولكنه يمتد إلى العلاقة بين الحجم والعمر والعدد في وجود العنصر الواحد، مثال ذلك الانسان حيث ان قاعدة التوازن في وجوده تقوم على عدة حقائق أنما كلما زاد العدد صغر الحجم ونقص العمر ففي الوقت الذي كان فيه حجم الانسان كبيرا وعمره طويلا كان عدده قليلا ففي بداية الخلق كان أدم طوله ستون ذراعا ولايزال الخلق يتناقص[32] وكان عمر أبنائه ألف عام في المتوسط عندما كان عددهم قليل، وكلما مر الوقت تغير الحجم فأصبح قليلا وقل العمر وسار عددهم يزيد.

زظاهرة التوازن بين العدد والحجم والعمر ظاهرة كونية عامة أوردها كريسي موريسون في كتاب (الأنسان لايقوم وحده)، حيث قال: وحول تلك الخلائق التي تدب على الأرض أنواعا وأجناسا وأشكالا وأحجاما فلا يحصيها إلا الله وأصغرها كأكبرها معجز في خلقه، معجز في تصريفه، معجز في تناسب حياته على هذه الارض لايزيد جنس معين عن حدود معينة تحفظ وجوده وامتداده، وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان أبادة وإفناء واليد الممسكة بالأنواع والأجناس، التي تزيد عليها وتنقص بحكمة وتركب في كل منها من الخصائص والقوي والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعا.

فالنسور جارحة عمرها مديد ولكنها في مقابل هذا نذره قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير وكيف كانت تقضي على جميع الطيور، والأسود كذلك في عالم الحيوان كأسرة ضارية فكيف لو كانت تنسل كالظباء والشاه، انها كانت تقضي على كل لحم في الغابة، ولكن اليد التي تمسك بالزمام تجعل نسلها محدودا بالقدر المطلوب، وتكثر من ذوات اللحوم من الظباء والشاه وما إليها لسبب معلوم، والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة مئات الالوف وفي مقابل هذا لاتعيش إلا حوال أسبوعين أثنين فكيف لو

[32] رواه البخاري في الاستئذان (11/3)، وغيره، ومسلم في الجنة رقم (2841)

أافلت الزمام وعاشت الزبابة الواحدة أشهر أو سنين لكان الذباب يغطي يغطي الأجسام، ويأكلون العيون، ولكن اليد المدبرة هناك تضبط الأمور وفق تقدير محسوب، فيه حساب لكل الحاجات والأحوال والظروف.

ويقول في موضع أخر: ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى صورة من هذا التوزان في علاقات بعض الأحياء ببعض، كما أشرنا بشئ من التفصيل في صورة أخرى إلى التنافس في بناء الكون، إن الجوارح التي تتغذي بصغار الطيور لأنها قليلة البيض قليلة التفريغ فضلا على أنها لاتعيش إلا في مواطن خاصة محدودة وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار، ولو كانت مع عمرها الطويل كثيرة الفراخ مستطيعة الحياة في المواطن لقضت على صغار الطيور وأفنتها على كثرتها وكثرة تفريخها، أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه.

الجوارح وسواها من بني الانسان، وللقيام بأدوارها الأخرى ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض:

بغاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلات نذور وذلك للحكمة التي قدرها الله، كما رأينا، كي تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح، والذبابة تبيض ملايين البويضات فيها بهذه النسبة لغطي الزباب الأرض بنتاجه وأصبحت حياة كثير من الأجناس، وأولها الإنسان مستحيلة على وجه الأرض، ولكن عجلة التوازن لاتختل في يد القدرة التي تدبر هذا الكون، وازنت بين كثرة العدد وقصر العمر فكان هذا الذي نراه، والميكروبات وهي أكثر الأحياء عددا، وأسرعها تكاثرا وأشدها فتكا، هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمرا تموت بملايين الملايين في البرد ومن الحر ومن الضوء ومن أحماض المعدات ومن أمصال الدم ومن عوامل أخرى كثيرة ولا تتغلب على عدد محدود من الحيوان والأنسان، ولو كانت قوة المقاومة طويلة العمر لدمرت الحياة والاحياء.

أساسيات التوازن:

ويقوم التوازن على عدة أساسيات:

أ) أساسية البدء والإعادة:

والبدء والإعادة من أفعال الله ودليل ذلك قوله عز وجل: (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ)، والبدء والإعادة أثر الأسماء: (الملك، القدير، العليم، الحكيم، المهيمن).

والمعنى الأول للتوازن في حقيقة البدء والإعادة:

هو أن البدء والإعادة يحقق دورة قدرية ثابتة تعطي للوجود وحركته الكوني إطارا ومحورا ثابتا.

وتفسيرا ذلك أن البدء والإعادة عندما يكونا تكرار لحدث بعينه، فإن هذا التكرار لن يكون منفصلا عن طبيعة العلاقة بين هذا الحدث وبقية الأحداث المرتبطة به، وعلى هذا فإن تكرار حدث بعينه هو تكرار لعلاقات كاملة بين الأحداث: لان العلاقة بين الأحداث إما أن تكون سببا أو نتيجة أو علة أو مقتضى ومن هنا تكرار حدث حدث هو استمرار لظاهرة الثبات في حركة الأحداث وهذا معنى التوازن.

وتوضيح ذلك أن من أحاديث البدء والأعادة هو قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل، ويفشو الزنا[33]، فنلاحظ العلاقة بين الأحداث، وإن كان كل حدث بذاته يمثل علامة إلا ان مجموع الأحداث محكومة بحقيقة السبب والنتيجة والعلة والمقتضي، فرفع العلم سبب لتزول الجهل، ونزول الجهل سبب في كثرة الزنا، وهذا هو المقصود بالعلاقة بين الأحداث.

ولتوضيح هذا المعنى أيضا حديث أخر وهو حديث الجهاد بعد قتال الجدال ويذكر فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (وتضع الحرب أوزارها، وتنبت الأرض نباتها بعهد ادم، ويكون الثور بكذا وكذا، وتكون الفرس بالدريهمات)، قالوا: يارسوال الله، وما يرخص الفرس؟ قال رتركب لحرب أبدا، قيل: فما يغلي الثور؟ قال تحرث الارض كلها[34] فنجد ان توقف الجهاد تبعه حرث الأرض، ذلك لن العلاقة المتقابلة بين الجهاد والزراعة هي الأساس الذي بني عليه ترتيب العلامات في اخر الزمان كما في هذا الحديث أما دليل التقابل فهو مأخوذ من عدة أحاديث منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لاينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم[35] وقول النبي صلى الله علية واله وسلم في اله الزراعة الذي أورده البخاري في باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بألة الزرع أو مجاوزة الحد

[33] البخاري في العلم (1/178)، وغيره، ومسلم في العلم رقم (2671)، والترمذي في الفتن رقم من 2205 حديث أنس.

[34] أخرجه بن ماجة في الفتن 4077 من حديث أبي أمامة الباهلي وسنده ضعيف

[35] أخرجه أبو داود في البيوع (335 - 9/336)، واللفظ له واحمد في المسند (2/28) من حديث ابن عمر وسنده وحسن.

الذي أمر به: عن أبي أمامة الباهلي قال ورأي سكة[36] وشيئا من ألة الحرث، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (لا يدخل هذا بيت قوم إلا دخله الذل)[37].

والمعنى الثاني للتوازن في حقيقة البدء والإعادة.

هو التطابق الكامل في إعادة الآحداث وتكرارها بحيث لايكون الأمر مجرد تشابه أو تقارب إذ أن معنى عودة الحدث هو تكراره بعينه، وإعادته بصورة مطلقة، دليل ذلك أن عودة الإنسان إلى الله إنما يكون كما بدأه الله سبحانه وتعالى. ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (وأنه أول من يكسي من الخلائق إبراهيم، وأنه بأناس من أمتي ذات الشمال...)[38].

وقد وضح من الحديث أن إعادة الإنسان ستكون مثل البداية حتى أن الجزء الذي قطع منه في الختان سيعود إليه وهو معنى غرلا.

غير ان هناك حديثا في البدء والإعادة يدل على أن التكرار ليس فقط من خلال الشكل ولكن أيضا من خلال الحركة الدقيقة، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لاتقوم الساعة حتى تضطرب إليات نساء دوس على هذه الخصلة)[39] وهكذا تكون الدقة المطلقة في الإعادة والتكرار: ذو الخصلة تضطرب اليات نساء دوس عليها كما كانت في الجاهلية تماما.

والمعنى الثالث للتوازن في حقيقة البدء والإعادة:

هو ثبات مستويات البدء والإعادة ابتداء بمستوي العمر الفردي للأنسان، فمن حيث العلم يولد الإنسان لايعلم شيئا وفيه يقول الله: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)[40] ثم يعود لايعلم شيئا: (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ

[36] في لسان العرب: السكة في هذا الحديث الحديدة التي يحرث بها الارض وقريب من هذا الحديث الأخر: العز في نواصي الخيل والذل في أذناب البقر.
[37] تفرد به البخاري فأخرجه في الحرث والمزارعة (5/4) من حديث أبي أمامة صدي بن عجلان.
[38] البخاري في الرقائق (11/377)، ومسلم في فناء الدنيا (17/194) من حيث سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.
[39] البخاري في الفتن (13/76)، ومسلم في الفتن أيضا (2906) من حديث أبي هريرة.
[40] النحل: 78

الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)[41]، ومن حيث القوة والضعف يولد الأنسان ضعيفا ويعود ضعيفا لقوله سبحانه: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ)[42]. وأنتهاء بالبدء والإعادة على مستوي التاريخ الطبيعي لعمر الإنسان على الأرض وفيه يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بداية الحشر من عدن: تخرج من قعر عدن ترحل الناس إلى المحشر[43] فهذا الحديث يدل دلالة تامة على دقة البدء والإعادة.

إذ أن عدن وهي المكان الذي بدأ منه الوجود البشري[44] هو نفسه المكان الذي ستبدأ منه نهاية هذا الوجود. والمعنى الرابع للتوازن في حقيقة البدء والإعادة هو التوافق:

فإذا كان البدء والإعادة هو التطابق التام لدورة الأحداث بمستوياتها الثابتة، فإن التوافق هو التماثل التام لحدث معين في تلك الدورة.

وللتوافق أمثلة في واقع الدعوة الإسلامية لعل أهمها (التوافق العددي) بين أهل بدر والذين قاتلو مع طالوت فقد روي البخاري في صحيحه من حديث إسرائيل، وزهير، والثوري عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: (كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر و لم يجاوز معه إلا بضعة عشر وثلاثمائة)[45].

وكذلك توافق أهل بدر وأصحاب المهدي المنتظر بدليل حديث على بن أبي طالب الذي رواه الحاكم[46] على شرط مسلم: عن محمد بن الحنيفة: (كنا عند على رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي؟ فقال: هيهات، ثم عقد بيده سبعا فقال: ذلك يخرج في آخر الزمان إذا قال الرجل: الله، قتل، ويجمع الله له قوما قزع كقزع السحاب يؤلف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد دخل فيهم، عدقم عدة أهل بدر لم

---

[41] الحج: 05
[42] الروم 54
[43] الحديث انفرد بأخراجه مسلم الفتن (2901) من حديث حذيفة بن أسيد وهو عند أهل السنن الأربعة.
[44] وذلك طبقا للرأي القائل بأن جنة آدم كانت على الأرض وقد أورد ابن القيم هذه المسألة في مفتاح دار السعادة.
[45] البخاري في المغازي (7/290) (باب عدة أصحاب بدر). خالص
[46] أخرجه الحاكم في الفتن (4/554)، وقال: صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

يسبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون. وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر).

ولعل أهم أمثلة التوافق أيضا، (التوافق الزمني) بين نجاة نزح بالسفينة، ونجاة موسى من فرعون في يوم عاشوراء كما جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء فقال: (ما هذا؟)، قالوا: اليوم الذي نجي به موسى وبني إسرائيل من الغرق وغرق فرعون، وهذا يوم استوت السفينة على الجودي فصام نوح وموسي شكرا لله عز وجل. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا أحق بموسي وأحق بصوم هذا اليوم)[47].

والتوافق ليس بظاهرة مجردة ولكنها ذات فاعلية قدرية ولها مقتضياتها المنهجية:

أما دليل الفاعلية فهو أن التوافق الزمني بين دعاء المؤمنين ودعاء الملائكة يحقق المغفرة من الله عز وجل وذلك لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله ما تقدم ذنبه)[48].

أما المقتضي المنهجي لحقيقة التوافق فله صيغ متعددة، أولها: تحقيق التوافق في واقع الدعوة القائم مع واقعة تاريخية طيبة. والمثال الواضح على ذلك هو دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة ساجدا وأمره للصحابة بأن تقول كلمة (حطة)، وقال لهم إنها الكلمة التي أمر الله بها إسرائيل أن يقولوها.

ومن صيغ المقتضي المنهجي للتوافق الصيغة التعبدية وهي أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بصيام عاشوراء، كما جاء جاء في حديث التوافق بين نجاة نوح وموسي في هذا اليوم، وصيام رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم من أجل ذلك. وقد مر الحديث آنفا.

وأهم الشعائر التعبدية قائمة على حقيقة المناسبة والتوافق مع كل الأحداث الطيبة، فكان من مناسك الحج الطواف بين الصفا والمروة توافقا مع ما فعلته أم إسماعيل عندما

---

[47] أخرجه أحمد في المسند (359 - 2/360)، وهو في البخاري في الصوم (4/213)، ومسلم في الصيام (1125) من حديث عائشة

[48] البخاري في (صفة الصلاة) (2/262)، و الدعوات ومسلم (409) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

كانت تبحث عن الماء، وكان رجم إبليس توافقا مع ما فعله الخليل إبراهيم عندما حاول منعه ذبح ابنه إسماعيل؛ وغير ذلك من المناسك.

وهناك وجه آخر لصيغة المقتضي المنهجي للتوافق وهي ترك التوافق مع أحداث الشر تفاديا للآثر السيء، ومثال ذلك التوافق المكاني مع أهل العذاب، وفيه النهي عن الدخول على القوم الذين عذبوا.

قال الإمام أحمد: (عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقي التاس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجلوا ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله فأهرقوا القدور، وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال لهم: إني أخشي أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم)[49].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالحجز: (لا تدخلو على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم)[50].

والأساسية الثانية للتوازن بعد حقيقة البدء والإعادة هي حقيقة السببية:

ب) السببية:

ودلالة السببية في إظهار أسماء الله وصفاته متعلقة باسم (القيوم، الغني)؛ ذلك أن (القيوم)، تعني القيام بالنفس أي الوجود كله أسباب ومسببات قائمة ببعضها؛ وليس في هذا الوجود عنصر خارج عن صفة السببية.

وكذلك اسم (الغني)، حيث أن افتقار المسببات إلى أسبابها يشمل كل المخلوقات فمشيئته هي السبب في الحقيقة وما يشاهد أو يعلم من الأسباب مجرى لنفوذ المشيئة لا أنه مؤثر وفاعل. فالوسائط لا بد أن تنتهي إلى أول سبحانه قدر المقادير، وكتب الآثار والأعمال، والشقاء والسعادة، والثواب والعقاب، حيث لا وساطة ولا سبب ولا علة.

[49] المسند (2/117) من حديث نافع عن ابن عمر وسنده صحيح وهو في الصحيحين أيضا وفي المسند بمعناه رقم (4561)، وهو صحيح أيضا، أخرجاه في الصحيحين من غير وجه.
[50] البخاري في الأنبياء (6/378)، ومسلم في (الزهد والرقائق)، (2980)

كذلك اسم الله (الأول)، و (الآخر)، فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب، والوقوف والالتفات إليها، وتجريد النظرإلي مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدىء في الإحسان من غير وسيلة من العبد إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده. وأى وسيلة كانت هناك وهو عدم محض وقد أتي عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد وفضله سابق على الوسائل. والوسائل من مجرد فضله وجوده و لم تكن بوسائل أخرى. فمن نزل باسمه (الأول) على هذا المعنى أوجب فقرا خاصا وعبودية خاصة وعبوديته باسمه (الآخر) تقتضي أيضا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها فإنها تنعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرين، ويبقي الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلق بما يعدم ويتقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول، ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفني به. كذا نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، وكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقي بعد الأسباب كلها، فكان الله و لم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية الأسمين وما يوجبانه من صحة الاضرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شئ سواه، وأن الأمر أبتداء منه وإليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لاسبب ولا وسيلة وإليه تنتهي الأسباب والوسائل فهو أول كل شئ، وأخره.

ولما كانت السببية هي الصيغة الكونية للأظهار، وكانت هذه الصيغة متضمنة لحقيقة الحكمة.

لذا يقول ابن القيم: إن الذي يخلقة الله سبحانه بقدره من الأمور نوعان: غايات وسائل، وقد اقتضت حكمته أن الوسائل تضمحل وتبطل اذا حصلت غايتها، ولذلك يعرف ابن القيم الحكمة بقوله الحكمة حكمتان علمية وعملية فالعملية الاطلاع على بواطن الاشياء ومعرفة ارتباط الاسباب بمسسبباتها خلقا وامرا وقدرا وشرعا ثم يعرف ابن القيم الدرجة الأولى من الحكمة فيقول: أن تعطي كل شئ حقه، ولاتعديه حده، ولاتجعله وقته، ولاتؤخر عنه، ثم يشرح ذلك بقوله هذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا فإضاعتها تعطيل للحكمة، بمترلة إضاعة البذر وسقي الأرض، وتعدي الحد في سقيها عن حاجاتها بحيث يغرق البذر والزرع، ويفسد وتجعيلها عن وقتها كحصاده قبا ادراكه وكماله.

ومن هنا يعرف ابن القيم التوكل: بأنه القيام بالاسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب واعتقاد انه بيده فإن شاء امتنع اقتضائها، وإن شاء جعلها مفضية لضد أحكامها،

وإن شاء أقام موانع وصورا فتعارض اقتضتاءها وتدفعه، وقد جمع لضد أحكامها، وإن شاء أقام موانع وصورا فتعارض أتقضاءها وتدفعه، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم: (إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز)[51]، فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالسبب، ونهاه عن العجز وهو نوعان: تقصير في الاسباب وعدم الحرص وتقصير في الاستعانة بالله وتجريدها فالدين كله ظاهر وشرائعه تحت هذه الكلمات والله اعلم أثبات مبدأ السببية الحقيقية من حقائق الوجود الكوني له صيغ قدرية متعددة من أمثلتها أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عندما أراد أن تتحقق معجزة الاسقاء لشرب الصحابة كان حريصا على أن يبقي بقية من الماء ليضع فيه أصابعه وبطبيعة الحال فأن الأمر إذا كان خارقا فلا يمنع أن يأتي المال من غير هذه البقية، لكن بقية المال هنا تمثل مبدأ السببية ومن هنا جاءت كل الأحاديث الواردة في نبع الماء من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم مؤكدة على بقية الماء التي يضع النبي صلى الله عليه وسلم يده فيها.

ومنها هذا الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: (كنا نعد الأيات بركة وأنتم تعدونها تخويفا، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال: اطلبوا فضلة ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل فأدخل في الأناء ثم قال: حي على الطهر المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم)[52].

ومما يؤكد مبدأ السببية ما كان في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام عندما وجد يعقوب ريح يوسف وفيه قوله الله عز وجل: (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ).

والمعنى المأخوذ من الآية ان يعقوب لم يجد ريح يوسف الا عندما فصلت العير، وفصل العير هي مفارقة البلد التي كانت فيها ودخولها إلى البلد الذي فيه يعقوب، وبمجرد دخول العير إلى البلد ليس سببا طبيعيا لوجود يوسف إذ أن الآمر معجزة أو خارقة ولكن إثباتا لمبدأ السببية لم يجد يعقوب ريح يوسف إلا بعد أن فصلت العير

ومنها قوله سبحانه لمريم بنت عمران وهي نفساء: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)، مع ان النساء في حالة الوضع ليس بهن قوة، بل ان الرجل

[51] انفرد به مسلم فرواه في القدر رقم 2664 من حديث أبي هريرة وطرفه: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير أحرص

[52] أخرجه البخاري في المناقب (6/587) علامات النبوة، وهو عند الترمذي والنسائي من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: هذا الحديث مما انفرد به البخاري دون مسلم.

الشديد لو هز نخلة ما استطاع ان يسقط منها رطبا، واثباتا للسببية إلى يوم البعث يذكر النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث اخر الزمان قوله: يترل ماء من السماء يشبه المني فينبت الإنسان من الأرض بأذن الله[53].

ذلك إنه لما كان المني سبب في الخلق الأول كان الماء الذي سيترل من السماء للبعث وهو الخلق الثاني شبيها بسبب الخلق الأول، وفي هذا إثبات لمبدأ السببية في كل مراحل الخلق والوجود.

والأساسية الثالثة للتوازن بعد حقيقة البدء والإعادة وحقيقة السببية هي حقيقة السنن:

ج) السنن:

اتفقا ان اظهار آثار أسماء الله وصفاته في الخلق له أحكام كونية، وأ ن هذه وحقائق الأظهار بالنسبة للوجود إما أن تكون معلقة بأصل الوجود مثل التنوع والتقابل، أو متعلقة بحركة الوجود مثل التدافع التبادل أو المتعلقة بتوازن تلك الحركة مثل البدء والإعادة والتوافق، فإذا أضيف إلى هذه المفاهيم أن الوجود (الكوني والبشري) له مرحلة ثابته هي البدء والاستمرار والنهاية فان السنن تكون (هي مجموع حقائق الاظهار في الوجود الكوني والبشري بصفته الاساسية مادة وحركة وتوازن وبصفته المرحلية (بدءا واستمرارا وانتهاءا)

ولا تخرج السنن عن هذا التعريف، وبمقتضي هذا التعريف تتوافر في السنة عدة خصائص بأن تشمل السنة الواقع الكوني والبشري وهي مانسميها خصيصة العموم، وأن لايكون للسنة انقطاع زمني وهي مانسميها خصيصة الدوام، وأن لايكون للسنة تبديلا وهي مانسميها خصيصة الثبات، وأن لايكون للسنة تحويلا وهي مانسميها خصيصة الأطلاق.

وحقيقة السنة هي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وعلى أساس هذه الحقيقة يكون الاستدلال بالسنة إذ يقول ابن تيمية: وحقيقة الأستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشئ بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين وهو الاعتبار المأمور

[53] البخاري في التفسير (689-8/690) سورة النبأ ومسلم رقم (2955) في الفتن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: ثم يترل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل الأحكام هي بذاتها قواعد الوجود الكوني: واتفقا أن أرتباط هذا الوجود مع غاية الأظهار هي التي تنشأ عنها حقائق الأظهر.

به القران كقوله تعالى: (قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)، وقوله عز وجل: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ).

وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وان متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الامر في المستقبل مثلما كان في الماضي فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه السنة الله وعادته ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسنته وانه لا ينقصها ولا يبدلها (أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ).

هذا تطبيق الاعتبار والقياس ثم قال: (أم لكم براءة في الزبر)، ففي الدليل العقلي والسمعي، فيقول إذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجو من العذاب مع مماثلتهم لهم.

والتسوية بين المتامثلين والتفريق بين المختلفين هي أساس كل القوانين العقلية والعلوم النظرية، ولهذا يقول ابن تيمية في النبوات أيضا: أصل العلوم العقلية النظرية اعتبار الشئ بمثله، وان الحكم حكم بمثله فإذا جوزتم ان يكون الشيئان متماثلان من كل وجه، وأن العقل يجزم ثبوت أحدهما وانتفاء الآخر كان هذا قد جافي أصلا كل علم وعقل.

وليس لحقيقة النة أي أستثناء في الخلق والوجود حتى معجزة الأنبياء التي قد تفهم على أن معناها قائم على خرق السنة؛ فإننا نجد أن معناها لا يقوم أصلا إلا على أساس حقيقة السنة، فيقول ابن تيمية: وحقيقة الأمر أن ما يدل على النبوة هو آية على النبوة وبرهان عليها، فلا بد أن يكون مختصا بها، ولا يكون مشتركا بين الأنبياء وغيرهم، فإن الدليل وهو مستلزم لمدلوله يجب ألا يكون أعم وجودا منه، فآية النبي لا تكون لغير الأنبياء لكن إذا كانت معتادة لكل نبي أولكثرة من الأنبياء لم يقدح هذا فيها فلا يضرها أن تكون معتادة للأنبياء. وكون الآية خارقة للعادة أو غير خارقة هو وصف لم يصفه القرآن أو الحديث ولا السلف. وقد بينا أن هذا وصف لا ينضبط، وهو عديم التأثير فإن نفس النبوة معتادة للأنبياء خارقة للعادة بالنسبة إلى غيرهم، والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)، وقال: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً).

وهي التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين. فهو سبحانه إذا ميز بعض المخلوقات بصفات يمتاز بها عن غيره ويختصه بها، قرن بذلك من الأمور ما يمتاز عن غيره ويختص به. ولا ريب أن النبوة يمتاز بها الأنبياء ويختصون بها، والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، وهو أعلم حيث يجعل رسالته، فمن خصه بذلك كان له من أهل الاختصاص بالنبوة، وتلك سنته وعادته في أمثاله يميزها بخصائص يمتازون بها عن غيرهم ويعلم أن أصحابها من ذلك الصنف المخصوص الذين هم الأنبياء مثلا فلم تكن له سبحانه عادة بأن يجعل مثل آيات الأنبياء لغيرهم حتى يقال إنه خرق عادته ونقضها بل عادته وسنته المطردة أن تلك الآيات لا تكون إلا مع النبوة والإخبار بها مع التكذيب بها أو الشك فيها. كما أن سنته وعادته أن محبته ورضاه وثوابه لا يكون إلا لمن عبده وأطاعه، وأن سنته وعادته أن يجعل العافية للمتقين، وسنته وعادته أن ينصر رسله والذين آمنو كما قال تعالى: (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً).

بعد أن علمنا أن السنة، بأعتبارها تسوية بين المتماثلين وتفريق بين المختلفين تكون بذاتها تحقيقا للتوازن، نعلم الآن كيف أن السنة بمقتضاها في الواقع تحقيق لهذا التوازن، والوجود البشري على الأرض هو الواقع التطبيقي لمفهوم التوازن في السنة لذا سنأخذه مثلا لشرح مقتضى السنة.

فنقول: ولما كانت الأرض للإنسان: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً). كانت سنن الوجود الكوني قائمة على هذا الأصل فكان أى وجود لغير الأنسان إما أن يكون مسخرا (أى تابعا له)، وإذا لم يكن مسخرا كان خافيا.

وفي هذا يقول ابن القيم في (مفتاح دار السعادة): ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها، لا يرى منها شيء، وليست شيئا قليل فتختفي لقلتها بل قد قيل إنها أكثر من الناس0 واعتبر ذلك بما تراه في الصحاري من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنمور ودروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد تري منها شيء.

وتنطبق نفس القاعدة على وجود الشيطان في الأرض فيجعله الله خافيا على الإنسان: (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ). فإذا ظهر الشيطان فإنه يخضع للإنسان بسنة الله وقدرته ويصبح أسيرا ضعيفا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إني محتاج وعلى عيال ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه كذب وسيعود، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: دعني فإني محتاج وعلى عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله. قال: أما إنه كذبك فسيعود، فرصدته الثالثة يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات إنك تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: ماهي؟ قال: إذا أويت فراشك فاقرأ آية الكرسي: (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ). حتى تختم الآية لا تزل عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما فعل أسيرك البارحة قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله. قال قال ما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، وقال لن يزال عليك حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت: لا. قال: ذاك الشيطان[54]).

وهكذا فبمقتضي سنن الوجود البشرى يصبح الشيطان إذا ظهر للإنسان ضعيفا وأسيرا للإنسان ولكن هناك سنة أخرى من سنن الوجود البشرى متعلقة بظهور الشيطان وهي أنه إذا كثرت المعاصي وبلغت حدا معينا فإن ظهور الشيطان يكون أمرا طبيعيا مثل الظروف الجاهلية التي كانت قبل الإسلام والدليل هو تلك الحادثة.

بينما كان عمر جالس إذ مر به رجل جميل فقال لقد أخطأ ظني أو أن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم، على بالرجل فدعي له فقال: (ما رأيته كاليوم استقبل به رجل مسلم[55] قال: فإني أعزم عليك إلا ما تخبرني قال: كنت كاهنهم في

[54] البخاري في (الوكالة) (4/487) من حديث أبي هريرة

[55] لأن عمر لما اتهم الرجل بالكهانة، قال الرجل لم أري عمر قبل اليوم يستقبل مسلما بمثل ما استقبل به، وكان الرجل كاهنا في الجاهلية ولكنه أسلم وتاب

الجاهلية قال: فما أعجب ما جاءتك به جنيتك، قال: بينما أنا يوما في السوق جاءتني أعرف فيها الفزع قالت: ألم تر الجن وإبلاسها من بعد إنكاسها ولحوقها بالقلاص وأحلاسها. قال عمر: صدق بينما أنا عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه يقول: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، فوثب القوم، قلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا، ثم نادي: يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله، فقمت فما لبثنا أن قيل هذا نبي).

وحسب هذه السنة فإن ظهور الشياطين في آخر الزمان سيكون أمرا طبيعيا حيث تكون الفتن والفساد أشد ما تكون، وخصوصا عند ظهور الدجال الذي سيكون أشد فتنة من الشياطين بل سيكونون جنودا له ويعملون بأمره ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يقول للرجل – يعني الدجال – أرأيت إن بعثت أباك وأمك ومن تعرف من أهلك أتعلم أني ربك؟ فيقول: نعم، ويتمثل له الشياطين على صورهم فيتبعه)، ويقول النبي في ظهور الدجال: (ويبعث الله معه شياطين ممثلة للناس).

ومن هنا يرتبط ظهور الشياطين بظهور الجهل؛ لأنه بالجهل تكون الذنوب التي يكون بها التسلط ولذلك يقول ابن تيمية: (وكلما كان القوم أجهل يعني الخوارق الشيطانية عندهم أكثر)، وهذه في نفسها سنة لا تتبدل.

وبذلك يكون واضحا أن سنن الوجود الكوني على الأرض قائمة على أساس الوجود البشري ومقتضياته... وهذا ثبات للسنن.

وأن ظهور الشيطان هو أمر خارق للعادة...

فإذا كان الظهور بغير ذنب من الأنسان... خضع الشيطان لسنن الوجود البشري كما رأينا عجز الشيطان من الإفلات من أبي هريرة... وهذا أيضا دليل آخر على ثبات السنن.

أما إذا كان ظهور الشيطان مرتبطا بظهور الجهل والذنوب، مثل أيام الجاهلية الأولى وفي آخر الزمان، فإن هذا الأرتباط في ذاته هو أيضا سنة... وفي هذا دليل ثالث على ثبات السنن وعدم تبدلها.

وبذلك يتأكد قول ابن تيمية من أن الخوارق لا تخرج عن السنن إذا حدثت بموجبها وأن السنن لا تتبدل البتة.

كمال التوازن:

وبعد عرض السنن كأساسية للتوازن... يبقي عرض السنن المحققة لكمال هذا التوازن؛ وهو ما يلزم الخلق من الهدى والتسوية والحركة والجمال ونبدأ بأولها:

الهدى:

وهو أول ما يلزم الخلق: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى).

فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج ثم الهداية والتعليم، والدلالة على سبيل بقائه، وما يحفظه ويقيمه، وهو هداية الحيوان كله ناطقة وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه؛ مثال هداية النحل إذ اختصها الله بالوحي: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

والهداية العامة هي قرينة الخلق في الدلالة على الرب تعالى وأسمائه وصفاته وتوحيده قال تعالى إخبارا عن فرعون أنه قال: (قال مجاهد: أعطي كل شيء خلقه: لم يعط الإنسان خلق البهائم، ولا البهائم خلق الإنسان. وأقول: أكثر المفسرين تدور على هذا المعنى. قال عطية ومقاتل: أعطي كل شيء صورته. وقال الحسن وقتادة: أعطي كل شيء صلاحه، والمعنى إعطاؤه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه لما خلق له، وهداه لما يصلحه في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه.

التسوية:

وفيها قول الله سبحانه: (سبح اسم ربك الاعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى).

وفيه يقول ابن القيم في شفاء العليل: فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية. وجعل التسوية من تمام الخلق، والهداية من تمام التقدير. قال عطاء (خلق فسوى): أحسن ما خلقه، وشاهده قوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ). فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه، بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال فالخلق الإيجاد، والتسوية إتقانه وإحسان خلقه. وقال الكلبي: خلق كل ذى روح فجمع خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين. وقال مقاتل:

خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق. وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستويا وإلا فالخلق والتسوية شاملة للإنسان وغيره قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا)، وقال: (فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ).

فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ).

الحركة:

وهي إرتباط الوجود الكوني بحول الله وقوته: هذه القوة هي المشار إليها بقولنا: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وشأن الكلمة عظيم فإن العالم العلوى والسفلي له تحول من حال إلى حال. وذلك التحول لا يقع إلا بقوة يقع بها التحول، وذلك التحول وتلك القوة قائمة بالله وحده، ليست بالتحويل، فيدخل في هذا كل حركة في العالم العلوى والسفلي، وكل قوة على تلك الحركة، سواء كانت الحركة قسرية أو إرادية أو طبيعية، وسواء كانت من الوسط أو إلى الوسط أو على الوسط، وسواء كانت في الكم أو في الكيف أو في الأين كحركة النبات، وحركة الطبيعة، وحركة الحيوان، وحركة الفلك، وحركة النفس، وحركة القلب، والقوة على هذه الحركات التي هي حول، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولما كان الكتر هو المال النفيس المجتمع الذي يخفي على أكثر الناس، وكان هذا شأن الكلمة كانت كترا من كنوز الجنة أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم من كتر تحت العرش وكان قائلها قد أسلم لمن أزمة الأمور بيده وفوض أمره إليه.

الجمال:

ومن أعز أنواع المعرفة معرفة الرب سبحانه بالجمال. ويكفي في الدليل على جماله أنه لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهي إليه بصره من خلقه ويكفي في الدليل على ذلك أن كل جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة فمن آثار صنعته، فما الظن بمن صدر عنه هذا الجمال، ولنور وجهه أشرقت الظلمات، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف: (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه

أمر الدنيا والآخره)[56] وقال عبد الله بن مسعود: (ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأرض من نور وجهه، فهو سبحانه نور السموات والأرض، ويوم القيامة إذا جاء القضاء تشرق الأرض بنوره)، ومن أسمائه الحسنى (الجميل)، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال) [57].

قال ابن عباس: (حجب الذات بالصفات وحجب الصفات بالأفعال)، ومن هذا المعنى يفهم بعض جمال ذاته، فإن العبد يترقي في معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئا من جمال الأفعال استدل على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات، وقوله في الحديث: (إن الله جميل يحب الجمال)[58] يتناول جمال الثياب، ويدخل فيه، بطريق العموم، والجمال في كل شيء كما في الحديث: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)[59]، (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[60].

ولمحبته سبحانه للجمال أنزل على عباده لباسا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم فقال: (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ).

وقال في أهل الجنة: (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً).

فجمل وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالسرور، وابدانهم بالحرير.

والجمال في الصورة واللباس والهيئة ثلاث أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح أو ذم. فالمحمود منه ما كان لله، وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره

---

[56] هو جزء من دعائه الطويل المشهور الذى قاله الطائف، أحرجه الطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر قال الهيثمي في (المجمع) [6/35]: (رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة وبقية رجاله ثقات)، ورواه ابن إسحاق مرسلة راجع تفسير ابن كثير (6/292)

[57] رواه مسلم في الإيمان رقم (91) باب تحريم الكبر من حديث ابن مسعود

[58] سبق تخريجه

[59] مسلم في الزكاة رقم (1015) باب (قبول الصدقة) من حديث أبي هريرة، وهو عند الترمذي أيضا (2992)، وهو مما انفرد به مسلم دون البخاري

[60] أخرجه الترمذي في الأدب (8/106 تحفة)، والحاكم (4/135)، وأحمد (8 - 67) من حديث ابن عمرو وسنده حسن

والاستجابة له، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال.

والمقصود أن الحديث مشتمل على أصلين أوله معرفة، وآخره سلوك. فيعرف الله سبحانه بالجمال ويعبد بالجمال الذي يحبه من الأقوال والأعمال والأخلاق، فيحب من عبده أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والمحبة والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه في لباسه وتطهيره له من الأنجاس والأحداث والأوساخ والشعور المكروهة وتقليم الأظافر. فيعرفه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ودينه، فجمع الحديث قاعدتي المعرفة والسلوك.

وبعد عرض السنن كأصل للوجود والحركة الكونية...

- وعرض السنن المحققة لكمال التوازن فيه...

- يبقي عرض السنن المحققة لنهايته...

- وهي سنن الإهلاك...

سنن الإهلاك:

والانتقال من مرحلة التوازن إلى مرحلة النهاية هي في حقيقتها سنة من سنن الله التي أخبرنا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: (ويأتي النقص من حيث الخلل).

وارتباط النقص بالخلل، هو الذي يعني أن تكون النهاية بفقد التوازن، حيث أن النقص هو الإهلاك، والخلل هو فقد التوازن.

أما دليل أن النقص هو الإهلاك فهو تفسير قول الله عز وجل: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ).

حيث قال ابن عباس: أو لم يروا إلى القرية تخرب حتى يكون العمران في ناحية. وقال مجاهد وعكرمة: (ننقصها من أطرافها): قال خرابها. وقال البخاري في التفسير: (أو يأخذهم على تخوف)، يعني تنقص. وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أول ما بدء

النقص في بني إسرائيل)[61] أى أول ما بدأ الهلاك ولذلك يربط المحدث الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) بين النقص والهلاك فيقول: يجيء النقص من حيث يجيء الهلاك.

والإهلاك من سنن النهاية ولذلك يربط القرآن الكريم بين إهلاك القرى وبين يوم القيامة في قوله عز وجل: (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً).

ويجتمع في قدر الإهلاك بعض السنن الأصلية وهي: 1) سنة الإنذار. 2) سنة الإمهال. 3) سنة الإستدراج. 4) سنة الستحقاق. 5) سنة الكشف. 6) سنة الميعاد. 7) سنة الإهلاك الفعلي.

ويفسر ابن القيم استحقاق الهلاك فيقول: وتحق كلمة الهلاك بإنزال الأمر والنهي، ثم إظهار قدر إتباعهم هوي أنفسهم، ثم قيام الحجة عليهم بالعدل، ثم يكون العقاب بمثلهم[62].

ويواصل ابن القيم موضوع استحقاق الهلاك فيقول: المعصية السابقة وإن كانت سببا للهلاك، لكن يجوز تخلف الهلاك عنها، ولا يتحتم، كما هو عادة الرب تعالى المعلومة في خلقه، أنه يتحتم هلاكهم بمعاصيهم. فإذا أراد إهلاكهم، ولا بد، أحداث سببا آخر يتحتم معه الهلاك، ألا تري أن ثمود لم يهلكهم بكفرهم السابق حتى أراهم الآيات المتتابعات، واستحكم بغيهم وعنادهم، فحينئذ أهلكوا. وكذلك قوم لوط لما أراد إهلاكهم أرسل الملائكة إلى لوط في صورة الأضياف فقصدوهم بالفاحشة.

وكذلك سائر الأمم إن أراد الله هلاكها أحدث لهم بغيا وعدوانا ويأخذهم على آثره، وهذه عادته مع عباده عموما وخصوصا، فيعصيه العبد وهو يحلم، ولا يعاجله، حتى إذا أراد أخذه قيض له عملا يأخذه، مضافا إلى أعماله الأولى، فيظن الظان أن أخذه بذلك العمل وحده، وليس كذلك، بل حق عليه القول بذلك؛ وكان قبل ذلك لم يحق القول بأعماله الأولى حيث عمل ما يقتضي ثبوت الحق عليه، ولكن لم يحكم به أحكم الحاكمين، و لم يمض الحكم، فإذا عمل بعد ذلك ما يقرر غضب الرب أمضي حكمه وأنفذه، قال تعالى: (فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)، وقد كانوا قبل ذلك أغضبوه بمعصية رسوله ولكن لم يكن غضبه سبحانه قد استقر واستحكم عليهم إذ كان بصدد أن يزول

[61] أخرجه أبو داود من حديث ابن مسعود رضي الله عنه
[62] مدارج ص 167 ج 1

بإيمانهم فلما آيس من إيمانهم تقرر الغضب واستحكم فحلت العقوبة. فهذا الموضع من أسرار القرآن ومن أسرار التقدير الإلهي

وعقوبات الذنوب شرعية وقدرية، فإذا أقيمت العقوبات الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العباد بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت من نوع الشرعية، وربما كانت دونها، لكنها تعم والشرعية تخص: فإن الرب تبارك وتعالي لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب فيها. وأما العقوبة القدرية: فإنها تقع عامة وخاصة.

والإهلاك، بصفة عامة، مظهر من مظاهر الحكمة؛ وفي هذا المعنى يقول ابن القيم: سبب الحسنات هو الحي القيوم والسيئات منقطع، فكل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله. فكما أن ما لا يكون به لا يكون؛ فما كان لغيره فلا يدوم، ولهذا كان لبعض حكم الله تعالى في تخريب هذا العالم أن يشهد من عبد شيئا غيره أنه لا يصلح للعبادة والألوهية، ويشهد العابد حال معبوده.

القسم الثاني
المقتضي الواقعي للتصور القدري العام

مجالات الإظهار:

اتفقنا أن لا رتباط الخلق بالأسماء والصفات مقتضيات في الواقع، وقد ارتبط ثبوتهما بمجالات الخلق ارتباطا مباشر ومن هنا لزم لكي نفهم تلك المقتضيات تقسيم الخلق والوجود ثلاثة أقسام:

1) المجال الكوني.
2) المجال البشري.
3) علامات الساعة.

والواقع أن القسم الأول من الكتاب كان تفسيرا مباشر لهذه المجالات الثلاثة؛ وذلك من خلال مناقشة موضوع ارتباط الخلق بالأسماء والصفات، ومفهوم الإظهار، والأصول الثلاثة وهي التنوع والتقابل والتوازن.

ولكنا في هذا القسم نضيف إلى كل مجال من هذه المجالات ما يتعلق بها من حقائق بصفة مستقلة مباشرة؛ إذ أن ارتباط قضية الأسماء والصفات بكل مجال من هذه المجالات بتلك الصفة المستقلة المباشرة سيكون مصدرا ذاتيا لأفكار الكتاب وحقائق موضوعة.

1) المجال الكوني:

والحقيقة الأساسية في ارتباط قضية الأسماء والصفات بالمجال الكوني هو صدور الخلق والأمر عن أسماء الله الحسنى مما يحقق توافق بينهما يقتضي الفهم والدراسة.

وقد ناقش ابن القيم هذا التوافق فعقد عدة مقارنات معبرا عن الخلق والأمر بكلمة الطبيعة والشريعة فقال تحت عنوان: مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث التعليل والأسباب والحكم:

وفيها يقول ابن القيم ردا على نفاة التعليل والأسباب والحكم وحسن الأفعال وقبحها من خلال إثبات وحدة القواعد الفقهية والطبية: يقولون ما ثم إلا محض المشيئة، لا

أن بعض الأعمال يبطل بعضها وليس فيها ما هو قبيح بعينه حتى يشبه بقبيح آخر، وليس فيها ما هو منشأ لمفسدة أو مصلحة تكون سببا لها، ولا لها علل غائبة هي مفضية إليها، وإنما هي متعلق المشيئة والإرادة والأمر والنهي فقط.

والفقهاء لا يمكنهم البناء على هذه الطريقة البتة؛ فكلهم مجمعون إذا تكلموا بلسان الفقه على بطلانها؛ إذ يتكلمون في العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم، ويفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة، والمفاسد التي هي كذلك، ويقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما، ويدفعون أقوي المفسدتين باحتمال أدناهما، ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحكم والعلل ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال ومعرفة أسبابها.

وكذلك الأطباء لا يصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قوي الأدوية، والأمزجة، والأغذية، وطبائعها، ونسبة بعضها إلى بعض، تأثير بعضها في بعض، وانفصال بعضها عن بعض، والموازنة بين قوة الدواء وقوة المرض، ودفع الضد بضده، وحفظ ما يريدون حفظه بمثله ومناسبة. فصناعة الطب وعمله مبني على معرفة الأسباب والعلل والقوي والطبائع والخواص فلو نفوا ذلك وأبطلواه وأحالوا على محض المشيئة وصرف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل، وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الداء، ليس في أحدهما الخاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر، لفسد علم الطب، ولبطلت حكمة الله فيه، بل العالم مربوط بالأسباب والقوي والعلل الفاعلية والغائية، وعلى هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم[63].

هذا وقد ربط الله الأسباب بمسبباها شرعا وقدرا فجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني والقدري ومحل ملكه ومقدراته، فإنكار الأسباب والقوي والطبائع جحد للضروريات، وقدح في العقول والفطر، ومكابرة للحق، وجحد للشرع والجزاء، فقد جعل سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، والثواب والعقاب، والحدود والكفارات، والأوامر والنواهي، والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات. والشرع كله أسباب ومسببات والمقادير أسباب ومسببات والقدر جاء عليها متصرفا فيها فالأسباب محل الشرع والقدر.

والقرآن مملوء من إثبات الأسباب كقوله: (بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)، (بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ)، (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)، (فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)، (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا

[63] مدارج السالكين ص 184 ج 1

أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)، (جَزَاءً وِفَاقاً)، (فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ)، (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ). فالسببية هي الصيغة الكونية المحققة لحقائق الإظهار والأسباب والوسائط والعلل محل أذكار المتفكرين واعتبار الناظرين ومعارف المستدلين (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ).

وكم في القرآن من الحث على النظر والاعتبار بها، والتفكر، وذم من أعرض عنها، والإخبار بأن النظر فيها والاستدلال يوجب العلم والمعرفة بصدق رسله.

فهي آيات كونية مشاهدة في الآيات القرآنية. هذا و لم يخلقها الله سبحانه عن حاجة ولا تتوقف المقادير عليها.

والدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها، والنظر إليها، وإنه لا دين إلا بذلك، كما لا حقيقة إلا به. ليس في الوجود الممكن سبب مستقل بالتأثير يؤثر في سبب البتة إلا بانضمام سبب آخر إليه وانتفاء مانع تأثيره؛ هذه في الأسباب المشهودة بالعيان. وفي الأسباب الغائبة، والأسباب المعنوية كأثر الشمس في الحيوان والنبات فإنه موقوف على أسباب أخر من وجود محل قابل وأسباب أخر تنضم إلى ذلك السبب وكذلك حصول الولد موقوف على أسباب وطء الفحل. وكذلك الأسباب مع مسبباتها، فكل ما يخاف ويرجي في المخلوقات فأعلي غاياته أن يكون جزء سبب غير مستقل بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون وقف تأثيره على شيء إلا الله الواحد القهار، ولا حول ولا قوة إلا بالله فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها.

مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث التعادل والترجيح:

ومن هاهنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات اعتبارا بمقتضي العقاب ومانعه وإعمالا لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية والأحكام القدرية، وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقا وأمرا، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدا يدافعه ويقاومه ويكون الحكم للأغلب منهما فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاق وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة، والحكم للغالب منهما. وكذلك قوي الأدوية والأمراض، والعبد

يكون فيه مقتضى للصحة ومقتضي للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له[64].

وتحت عنوان التعادل والترجيح في الخلق والشرع من حيث الأضداد يقول في (شفاء العليل): فخلقه وأمره على تحصيل المصالح الخالصة والراجحة بتفويت المرجوحة التي لا يمكن الجمع بينهما وبين تلك الراجحة وعلى دفع المفاسد الخالصة والراجحة وإن وجدت المفاسد المرجوحة التي لا يمكن الجمع بين عدمها وعدم تلك الراجحة، وخلاف هذا هو خلاف الحكمة والصواب.

ويقول في التفسير القيم[65]: قول الله: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ)، والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، وقال ابن عباس يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج. وقال في رواية أخرى حبسهم. قال مقاتل: وأوحي إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين فيقول ابن القيم: إنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتباعا لرسوله صلى الله عليه وسلم ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضية لهم دينا، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروها له من هذا الوجه ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه له فكرهه وعاقبه على ترك الخروج الذي يحبه ويرضا لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

إلي أن قال – وهو الشاهد من الكلام –: فقعودهم مبغوض له، ولكن هاهنا أمران مكروهان له سبحانه: أحدهما أكره له من الآخر لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، و لم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه، فدفع المكروه الأعلي بالمكروه الأدني، فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه؛ فإن مفسدة قعودهم تختص بهم ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين، فتأمل هذا الموضع.

مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث الحركة وعدم التوقف:

[64] مدارج السالكين ص 298 ج 1
[65] ص 296/293

والقصد أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيضة؛ إذ صاحب حفظه[66] مترق على درجات الكمال؛ فإذا أضاعه لم يبق في موضعه، بل يترل إلى درجات من النقص، فإذا لم يكن في تقدم فهو متأخر، ولا بد فالعبد سائرا لا واقفا فإما إلى فوق وأما إلى أسفل إما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة[67].

مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث حقيقة البرزخ:

أما حقيقة البرزخ فيقول فيها ابن القيم: وقد جعل الله عز وجل بين كل متباينين برزخا، كما جعل الموت وما بعده برزخا بين الدنيا والآخرة، وجعل المعاصي برزخا بين الأيمان والكفر، وجعل الأعراف برزخا بين الجنة والنار، وكذلك جعل بين كل مشعرين من مشاعر المناسك برزخا حاجزا بينهما لا من هذا ولا من هذا فمحسر برزخ بين مني والمزدلفة ليس من واحد منهما فلا يبيت به الحاج، و (بطن عرنة) برزخ بين عرفة والحرم فليس من الحرم ولا من عرفة.

وكذلك ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس برزخ من الليل والنهار ليس من الليل بطلوع الفجر ولا من النهار لعدم طلوع الشمس وإن دخل في اسم اليوم شرعا، وكذلك الشبهات هي برزخ بين الحلال والحرام.

مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث حقيقة الفلق:

وأما حقيقة الفلق ففيها يقول ابن القيم: واعلم أن الخلق كله فلق وذلك أن فلقا فعل بمعني مفعول كقبض وسلب وقنص بمعني مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ).

(فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى)، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنة، والظلام عن الإصباح. ويسمي الصبح المتصدع عن الظلمة فارقا وفرقا يقال هو أبيض من فرق الصبح وفلقه.

وكما أن خلقه فلق وفرق فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين الحق والباطل فيفرق الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه الفرقان ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه. ومنه فلقه البحر لموسي فلقا، فظهرت حكمة الاستعاذة

---

[66] أي حفظ الوقت

[67] مدارج السالكين ص 202 ج 1

برب الفلق في هذه المواضع، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرونه قدرة وأنه (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).

مقارنة بين الطبيعة والشريعة من حيث الحسن والقبح:

وهو ما ورد في تفسير: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ). فالأحسن هو المأمور وهو خير من المنهي عنه. وإذا كانت هذه سنته في أمره وشرعه فهكذا في خلقه وقضائه وقدره، فما أراد أن يخلقه أو يفعله كان أن يخلقه ويفعله خيرا من أن لا يخلقه ولا يفعله، وبالعكس وما كان عدمه خيرا من وجوده فوجوده شر وهو لا يفعله، بل هو متره عنه، إذا الشر ليس إليه.

ومضمون هذه المقارنات أن الطبيعة والخلق الكوني صادرة عن نفس القواعد التي يصدر عنها الدين والأمر الشرعي وهي قواعد التعليل والأسباب والحكم، والتعادل والترجيح، والحركة وعدم التوقف، والحسن والقبح، مما يحقق توافقا تاما بينهما...

وحقيقة التوافق بين الطبيعة والشريعة ليست حقيقة نظرية، بل إنها حقيقة يبني عليها أحكام ومن أمثلة هذه الأحكام الحكم بقتل الكافر قياسا على الفواسق[68]، حيث جاء في كتاب بغية المسترشدين لفتاوي علماء البلاد الحضرمية[69]، قول المحب الطبري في كتابه التفقيه: يجوز قتل عمال الدولة المستولين على ظلم العباد إلحاقا لهم بالفواسق الخمس[70] إذ ضررهم أعظم منها.

ونقل الأسنوي عن ابن عبد السلام أنه يجوز للقادر على قتل الظالم كالمكاس، ونحوه من الولاة الظلمة أن يقتله بنحو سم ليستريح من ظلمه؛ لأنه إذا جاز دفع الصائل ولو على درهم، حتى بالقتل بشرط فأولي الظالم المعتدي.

وفي هذا قياس لحكم الظالمين وهي العناصر المحققة للضرر من البشر على حكم الفواسق الخمس وهي العناصر المحققة للضرر في الطبيعة ولعلنا نلاحظ أن القياس بلغ حد الكيفية الواحدة للقتل. وذلك من فتوي ابن عبد السلام التي نقلها الأسنوي بجواز وضع السم لهم كما يوضع للفئران وغيرها من الفواسق.

---

[68] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس من الدواب كلها فاسق لا حرج على من قتلهن، الفأرة والعقرب والحدأة والكلب العقور والغراب وفي رواية والحية. رواه البخاري ومسلم والترمذي وأحمد

[69] ص 250

[70] السابق

وبعد تحديد التصور القدري العام ومقتضاه في المجال الكوني ننتقل إلى تحقيق مقتضى هذا التصور في المجال البشري وذلك من خلال دائرتين أساسيتين:

- الدائرة الإنسانية الذاتية.
- الدائرة الإنسانية التاريخية.

1) الدائرة الإنسانية الذاتية:

فالإنسان هو مناط حقائق الإظهار، بمعنى: أن حقائق الإظهار وجدت باعتبار أن يكون الإظهار للإنسان حتى يعرف ربه وأسماءه وصفاته.

والإنسان بذاته من أهم حقائق الإظهار، وهذه الحقيقة قائمة باعتبارين:

الاعتبار الأول: أن الإنسان هو مضمون الواقع الكوني، وأن هذا الواقع الكوني بدوره مجالا جوهريا لحقائق الإظهار.

الاعتبار الثاني: أن الإنسان هو بذاته مجال لحقائق الإظهار في الوجود العام.

وفي المضمون الإنساني للواقع الكوني يقول ابن القيم في كتابه الفوائد: إن الإنسان هو الغاية التي خلق لأجلها ما سواه من السموات والأرض والقمر والنجوم والبر والبحر، وأن شاء الله سبحانه وتعالى جمع ما فرقه في العالم في آدم فهو العالم الصغير، وفيه ما في العالم الكبير، وأن الإنسان هو خلاصة الوجود وثمرته.

وفي المضمون الإنساني للواقع الكوني تأتي حقيقة الفاعلية الإنسانية في هذا الواقع. وفي الفاعلية الإنسانية، في المجال الكوني، نري أن الإنسان هو أشد مظهر كوني وأقوي عنصر من عناصره، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فألقاها عليها، فاستقرت فتعجبت الملائكة من خلق الجبال، فقالت: يارب، هل في خلقك شيء أشد من الجبال؟ فقال: نعم، الحديد. قالت: يارب، هل من خلقك أشد من الحديد؟ قال: نعم، النار. قالت: يارب، فهل من خلقك أشد من النار؟ قال: نعم، الماء. قالت: يارب فهل من شيء أشد من الماء؟ قال: نعم، الريح. قالت:

يارب، فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها عن شماله) [71].

ولذلك يقول ابن القيم في كتابه الفوائد[72]: من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد هو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد. وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلآت والعلوم والإرادات والصناعات، كل ذلك من نطفة ماء، فلو أنصف العبد ربه لاكتفي بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته.

وفي شفاء العليل يقول ابن القيم في حكمة خلق الإنسان: فإن قيل: فلم خلقت النفس على هذه الصفة؟ قيل: من كمال الوجود خلقها على هذه الصفة، وكذلك كمال فاطرها ومبدعها اقتضي خلقها على هذه الصفة لما في ذلك من الحكم التي لا يحصيها إلا مبدعها سبحانه، وإن كان في إيجاد هذه النفس شر فهو شر جزئي بالنسبة إلى الخير الكلي الذى هو سبب إيجادها، فوجودها خير من أن لا توجد، فلو لم يخلق مثل هذه النفس لكان في الوجود نقص وفوات حكم ومصالح عظيمة موقوفة على خلق مثل هذه النفس، ولهذا لما اعترضت الملائكة على خلق الإنسان وقالوا: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ).

أجابهم سبحانه لأن في خلقه من الحكم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، والخالق سبحانه يعلمه، وإذا كانت الملائكة لا تعلم ما في خلق هذا الإنسان الذي يفسد في الأرض، ويسفك الدماء من الحكم والمصالح، فغيرهم أولى أن لا يحيط به علما.

فخلق هذا الإنسان من تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن كان وجوده مستلزما لشر فهو شر مغمور بما في إيجاده من الخير، كإنزال المطر والثلج، وهبوب الرياح، وطلوع الشمس، وخلق الحيوان والنبات والجبال والبحار.

أما الاعتبار الثاني فإن حقائق الإظهار القائمة في الأنسان ذاته: هي التنوع والتقابل، والبدء والإعادة، وفي حقيقة التنوع يرتبط الإنسان بطبيعة الوجود الكوني كما قال صلى

[71] أخرجه أحمد في المسند (3/124)، والترمذي في (التفسير) من حديث سليمان بن أبي سليمان عن أنس مرفوعا

[72] ص9

الله عليه وسلم: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك)[73].

وفي هذا يقول ابن القيم: وقد نوع خلقه تنويعا دالا على كمال قدرته وربوبيته تفسيرا لقول الله عز وجل: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ).

وفي حقيقة التقابل يرد ابن القيم على نفاة الحكمة القائلين أي الحكمة في خلق النفس مريدة للخير والشر فيقول: فإن الرب تعالى اقتضت قدرته وعزته وحكمته إيجاد المتقابلات في الذوات والصفات والأفعال.

كما يقول: إن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر والطيب والخبيث وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسل الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل القوة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوي هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليها آثارها وما في قوي هؤلاء من الشر ليترتب عليه آثارها وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيها، ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه المطلق.

وحتي في إطار النفس المؤمنة فإن التقابل طبيعتها، وهذا من آثار أسماء الله وصفاته فيها ولذلك يقول ابن القيم: فإن القلب يعترضه وارد الرجاء فلم ينشب أن يعارضه وارد الخوف وبالعكس ويعترضه وارد البسط فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض ويرد عليه وارد الأنس فيعترضه وارد الهيبة.

وينتهي كلام ابن القيم بقوله: هذا من آثار الأسماء والصفات واتصال أشعة أنوارها بالقلب[74].

فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه، وإلي بدنه وصفاته، فتري به من العجائب والصنعة ما يقتضي به العجب وكل ذلك صنع الله من قطرة ماء قذرة فتري من هذا صنعه

---

[73] أخرجه أحمد في المسند (4/406)، وأبو داود في (السنة) [12/455]، والترمذي في التفسير (8/290) من حديث أبي موسي الأشعري وصححه الترمذي وهو كما قال، وأخرجه الحاكم والبيهقي وغيرهم

[74] مدارج السالكين ص 382 ج 1

في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها؟ وما حكمته في أوضاعها وأشكالها، ومقاديرها، وأعدادها، واجتماع بعضها، وتفرق بعضها، واختلاف صورها، وتفاوت مشارقها ومغاربها؟ فلا تظن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم؛ بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا، وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى: (أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا).

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا، وما صارت إليه ثانيا، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا أو يخلقوا فيها عظما أو عرقا أو عصبا أو جلدا أو شعرا هل يقدرون على ذلك؟! بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقة وكيفية خلقه، بعد أن خلق الله تعالى ذلك، لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصور على حائط تأنق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان، وقال الناظر إليها: كأنه إنسان، عظم تعجبك من صنعة النقاش وحذقة وخفة يده، وتمام فطنته، وعظم في قلبك محله، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالحائط وبالقدرة وبالعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه، بل هو من خلق غيره، وإنما منتهي فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه! وأنت تري النطفة القذرة كانت معدومة وخلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها، وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها، وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة، فأحكم العظام في أرجائها، وحسن أشكال أعضائها، وزين ظاهرها وباطنها، ورتب عروقها وأعصابها، وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها، وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة، وخلق لها الظهر أساسا لبدنها، والبطن حاويا لآلآت غذائها، والرأس جامعا لحواسها.

ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها.

ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها، وحوطها بصدقة الأذن لتجمع الصوت فترده إلى صماخها ولتحس بدبيب الهوام إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقة فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم. ثم رفع الأنف من وسط الوجه، وأحسن شكله وفتح

منخريه، وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعة وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحا لحرارة باطنه.

وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا عما في القلب، وزين الفم بالأسنان لتكون ألة الطحن والكسر فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه وليتم بها حروف الكلام، وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت، وخلق اللسان قدرة للحركات والتقطيعات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها، ثم خلق الحناجر المختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوة، والطول والقصر حتى.

اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صورتين فرقا حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة، ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ، وزين الوجه باللحية والحاجبين، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل، وزين العينين بالأهداب.

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر المعدة لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد، فالطحال يخدمها بجذب السوداء عنها، والمرارة تخدمها بجذب الصفراء عنها، والكلية تخدمها بجذب المائية عنها، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل، والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن.

ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف، وقسم الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على جميعها ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه، إذا بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقا يضع عليها ما يريد، وإن جمعها كانت له آلة للضرب، وإن ضمها ضما غير تام كان مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجرفة له.

ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل، وليحك بها بدنه عند الحاجة. فالظفر

الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكه لكان أعجز الخلق وأضعفهم ولو يقم أحد مقامه في حك بدنه، ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل.

ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها شيئا فشيئا ولا يرى المصور ولا آلته فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آلته ومصنوعه، ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه؟! فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه! ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته، فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس، وتحرك، وخرج من ذلك المضيق، وطلب المنفذ وكأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه، ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف، واستخرجه من بين الفرث والدم سائغا خالصا، وكيف خلق الثديين، وجمع فيهما اللبن، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي، ثم فتح في حلمه الثدى ثقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجيا فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع.

ثم انظر إلى عطفة ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذي إلا باللبن فيستغني عن السن وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف، ويحتاج إلى طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان عند الحاجة، لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ثم حنن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه! فلو لم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجيا حتى بلغ وتكامل فصار مراهقا ثم شابا كهلا ثم شيخا: إما شكورا أو كفورا، مطيعا أو عاصيا، مؤمنا أو كافرا، تصديقا لقوله تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً).

فانظر إلى الطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية.

والعجب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقشا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخطه، وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه، وما أكمل صنعته، وأحسن قدرته، ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره، فلا تدهشه عظمته، ولا يحيره جلاله وحكمته!

فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها، فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلي شاهذ على عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصية الإنسان التي حجبت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض، وعجائب الآفاق والأنفس، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقربا من حضرة رب العالمين.

وليست هذه المترلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم، فإنه شر من البهائم بكثير، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة، ثم عطلها، وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل أضل سبيلا[75].

وبعد إثبات أن الإنسان هو مضمون الوجود الكوني وأن الإنسان بذاته مجالا لحقائق الإظهار بما في ذلك إثبات الفاعلية القدرية البشرية... نقدم نموذجا بشريا لتلك الفاعلية وهو داود عليه السلام وذلك لتعميق مفهوم الفاعلية القدرية للإنسان فقد كان لدلود اختصاصا قدريا وهو في عالم الذر.

كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة خلقها إلى يوم القيامة أمثال الذر، ثم جعل بين عين كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال: من هؤلاء يارب؟ فقال: هؤلاء ذريتك، فرأي فيهم رجلا أعجبه وبيص ما بين عينيه. فقال: يارب من هذا؟ قال: ابنك داود ويكون في آخر الأمم)[76].

---

[75] احياء علوم الدين (ص 421 - 425 ج 2)

[76] أخرجه الترمذي في (التفسير) [3076)، وقال: (حسن صحيح)، والحاكم في المستدرك (2/325)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي

ومن عالم الذر إلى عالم الوجود حيث يتحدد الاختصاص في التوافق الكوني مع داود في التسبيح لله سبحانه. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة، فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجرا، واجعلها لي عندك مدخرا، وضع بها عني وزرا، واقبلها كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس رضي الله عنهما: صفرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكي الرجل عن كلام الشجرة[77].

حدثنا بكر هو بن عبد الله المزني أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عن رأي رؤيا أنه يكتب فلما بلغ الآية التي يسجد بها رأي الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال: فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل يسجد بها بعد.

ويمتد الاختصاص القدري لداود من عالم الذر إلى وجوده الكوني بالتوافق في التسبيح إلى تكوينه الشخصي حيث يتحدد الاختصاص بالحكمة كما في قوله: (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ)، وبذلك يصبح داود بالتصور القدري مثالا بشريا؛ حيث تبلغ تلك المثالية حدها النهائي في الفاعلية البشرية لداود عليه السلام فتأتي تلك الفاعلية بالصفة الاجتماعية خلافة في الأرض كما جاء في قوله تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ).

وتأتي بالصفة المادية لين في الحديد: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ).

وتأتي بالصفة العقلية إلهاما بصنعه اللبوس كما قال تعالى: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ).

ثم تمتد الفاعلية البشرية بالتصور القدري لداود عليه السلام في ابنه سليمان كما قال تعالى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

---

[77] أخرجه الترمذي في (الصلاة) [579]، وحسنه، والحاكم في المستدرك (219 - 1/320)، وصححه ووافقه الذهبي وقال العلامة أحمد شاكر: (هو حديث صحيح)

ومن منطق هذا الاختصاص وتلك الفاعلية تتحدد الشروط القدرية للأداة البشرية سعيا للالتزام بها، لتحقيق أقصي فاعلية للأداة البشرية في واقع الدعوة؛ وهذا ما حدده لنا النبي صلى الله عليه وسلم.

1) شرط الارتباط بالحق، كماقال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ).

2) شرط التعبد، حيث كانت عبادة داود خير العبادة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أحب الصلاة صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقي وأنه كان أوابا)[78].

3) شرط الجهاد، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق: (وكان لا يفر إذا لاقي)[79].

4) شرط السعي للرزق بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما أكل أحد طعاما قط خير من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)[80].

2) الدائرة الإنسانية التاريخية:

اتفقنا على أن حقائق إظهار الأسماء والصفات هي بذاتها قواعد الوجود الكوني وحركته؛ وبهذا الاعتبار تصبح حقائق الإظهار أساسا لتفسير طبيعة الوجود البشري بصفته الكونية على مر الزمان، أي تفسير التاريخ، وبذلك تصبح حقائق الإظهار فرصة لتفسير التاريخ بالقدر الذي يصبح به التاريخ مجالا حيويا تطبيقيا لتلك الحقائق.

[78] أخرجه البخاري (3/16)، ومسلم (1159)، وهو عند أبي داود والنسائي وابن ماجه وأحمد كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص دون الزيادة في آخره (ولا يفر إذا لاقي)، وهذه الزيادة عند البخاري في الأنبياء (6/454)، والترمذي في الصيام (770)

[79] انظر التعليق السابق

[80] أخرجه البخاري في البيوع: (4/303) من حديث المقدام بن معديكرب

وبالطبع فإن الفرق بين حقائق الإظهار كقواعد للوجود الكوني والبشري وبين القواعد المستنبطة بشريا من استقراء الأحداث لتفسير التاريخ يكون واضحا من خلال عدة أمور:

– أن حقائق الإظهار منبثقة عن التصور الإسلامي وليست عملا بشريا وأنها لذلك ستكون حقائق نهائية، وليست مرهونة بمدي العلم البشري، ومدي استقرائها وحة استنباط القواعد منها كما هو الأمر في لتفسيرات غير الإسلامية.

– أن حقائق الإظهار المنبثقة من التصور الإسلامي أيضا تتوافق، في جوهرها، مع مفهوم الحضارة المنبثق عن التصور الإسلامي للوجود الإنساني وغايته.

وتتوافق أيضا في جوهرها، مع تفسير الفاعلية التاريخية للعنصر البشري من خلال التصور القدري المفسر للفاعلية الإلهية في الواقع الإنساني وبذلك تتوافق المرتكزات الأساسية الثلاثة لتفسير التاريخ:

1) القواعد الكلية لتفسيرالأحداث.
2) مفهوم الحضارة.
3) قضية الفاعلية التاريخية.

وبهذا التوافق يمكن القول بأن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد القادر على إعطاء تفسير صحيح للتاريخ، وأن أي محاولة خارج إطار هذا التصور باطلة لا تصح.

والمنهج الإسلامي لتفسير التاريخ يقوم على عدة أصول:

الأصل الأول: المشاهدة:

وهو أهم قواعد المنهج الإسلامي في التاريخ ولهذا يقول ابن القيم: والذي شاهدناه نحن وغيرنا بالتجارب أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها إلا سلط الله عليهم العدو وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء والعاقل من يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان.

ولكن المشاهدة في منهج البحث الإسلامي في التاريخ لها شروط وأحكام يحددها ابن القيم في تفسير قول الله عز وجل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ).

وأيام الله هي التي أمر رسله بتذكير أممهم بها وقد فسرت (أيام الله) بنعمه، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصي. فالأول تفسير ابن عباس وأبي كعب ومجاهد.

والثاني تفسير مقاتل، والصواب أن أيامه تعم النوعين وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه، ونعمه التي ساقها إلى أوليائه. وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها (الأيام) لأنها ظرف لها، فمعرفة هذه الأيام توجد للعبد استبصارا وبحسب معرفته بها تكون عبرته قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ).

ثم يبدأ في تحديد شروط (المشاهدة)، فيقول: ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض وهي متابعة الهوي والانقياد لداعي النفس الامارة بالسوء، فإن اتباع الهوي يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الصراط المستقيم، فلا تحصل العبرة معه البتة، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة قبيح والقبيح في صورة الحسن فالتبس عليه الحق والباطل فأنى له الانتفاع بالتذكر أو التفكر.

ومن المشاهدة يخرج ابن القيم بحكم عام في التاريخ وهو أن التاريخ تفصيل للأسباب الكلية في الخير والشر فيقول في الداء والدواء: إن من يعرف تفاصيل الشر والخير، تكون له بصيرة في ذلك بما يشاهد في العالم وما جربه في نفسه وغيره وما سمعه من أخبار الأمم قديما وحديثا فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله من أسباب كليه للخير والشر ومن هذا الحكم نبدأ بتحديد مفهوم الخير والشر كإطار عام لتفسير التاريخ ليكون هذا المفهوم هو القاعدة الأولى المستبطة من أصل المشاهدة.

ويرتبط بقاعدة الخير والشر القاعدة الثانية، وهي حقيقة الصراع البشري، وهي من أهم حقائق التفسير الإسلامي للتاريخ، والثابت ان للصراع البشري محاور ثابتة قد يتفق التفسير الإسلامي مع غيره في تحديد بعضها؛ ولكن الفارق الجوهري بين التفسير الإسلامي وغيره في تحديد هذا البعض إنما في تقييمه وهذه المحاور التي قد يكون الاتفاق عليها في التحديد هي:

1) المحور الديني.
2) المحور العرقي.
3) المحور المادي.

وهي في التفسير الجاهلي للتاريخ مجرد محاور مستنبطة كقاعدة كلية من استقراء الواقع البشري. ويقفون عند هذا التحديد.

ولكن التفسير الإسلامي للتاريخ يعود بحقيقة الصراع ومحاوره إلى الشيطان؛ فهذه المحاور الثلاثة منها محوران يمثلان في عمل الشيطان خط النقض لأمر الله في الأرض وهو محور الدين والعرق؛ ذلك أن الدين كان من المفروض أن يكون سبب وحدة بشرية باعتبار أن الدين واحد لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات: ديننا واحد، وأمهاتنا شتى)[81] ولكن الشيطان جعل من قضية الدين قضية صراع منذ أن جعل غاية التقرب إلى الله السبب الأول في أول اقتتال بشري في التاريخ وهو الذى كان بين ابني آدم: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).

وكذلك العرق الذي كان من المفروض أن يكون سبب تعارف بدليل قول الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

فأصبحت الشعوبية والقبلية بفعل الشيطان، الذي يمثل النقيض للحق، محورا للصراع بدلا من أن تكون سببا للتعارف أما المحور الثالث وهو المحور المادي فهو فتنة من حيث الأصل لذا كان من الطبيعي أن يرتكز الشيطان عليه بصورة أوسع وأعمق ولذا كان هذا المحور أكبر محاور الصراع.

الأصل الثاني؛ الحق:

وهو المأخوذ من مجمل شروط المشاهدة التي حددها ابن القيم، ليتحدد التصور الذي تتم من خلاله تلك المشاهدة وهو المحقق لصوابها.

ومضمون هذا التصور أن التاريخ البشري حركة دائرة بين الحق والباطل؛ وبهذا التصور يتم تفسير الحدث التاريخي والحركة التاريخية والحضارة، فالحق هو الفرقان بين معنيين لحدث واحد وهو الفرقان بين تفسيرين لظاهرة واحدة.

[81] البخاري في الأنبياء (6/478)، ومسلم (15/119) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

ففي إطار مفهوم التقدم المادي، مثلا يفرق الإسلام بين ظاهرة التقدم المادي لأمة مرتبطة بالحق، والتقدم المادي لأمة مرتبطة بالباطل، إذ أن هذا التقدم إذا كان لأمة الحق كان حسنة الدنيا وبركات السماء والأرض، وإذا كان التقدم لأمة الباطل كان التقدم ترفا واستدراجا، فليس المنهج الإسلامي للتاريخ تفسيرا مجردا، لحدث أو ظاهرة، بعيدا عن مفهوم الحق.

ومن الأصل الثاني في منهج التفسير الإسلامي للتاريخ وهو (الحق) يكون الأصل الثالث:

الأصل الثالث؛ الحضارة:

ذلك أن الحق هو أصل قيام الحضارة في التصور الإسلامي؛ الحق المستمد من السماء الذي يتم به انتفاضة البشرية من بين ركام (الجاهلية)، والذي يتم به الالهام وتحقق البصيرة في ظلمة (الجاهلية)، والذي يتم به تكوين الفئة القليلة الأولى المنشئة للأمة الجديدة والتي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (ولن تزال طائفة من أمتي قائمة بهذا الدين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله)[82] والتي ترتبط بهذا الحق ارتباطا وجدانيا وسلوكيا كاملا وهي الفئة التي ستتحمل مرحلة المواجهة بين الأمة الجديدة وبين (الجاهلية) من خلال الدعوة إلى هذا الحق، ثم غلبة هذه الفئة، وتكوين الدولة وامتدادها العسكري، ثم مرحلة النمو الاجتماعي (الإداري، الاقتصادي، السياسي).

البناء الحضاري:

وعلى أساس العلاقة بين مفهوم الحضارة والحق يمكن القول أن البناء الحضاري في التصور الإسلامي له ثلاث مرتكزات.

أ) الكتاب الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط المنهج بالحق.

ب) الحكم الذي يمثل في البناء الحضاري ارتباط السلطة بالحق.

[82] أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه، منها في الاعتصام (13/293)، ومسلم (66 - 13/67) في الإمارة كلاهما من حديث معاوية بن أبي سفيان، والحديث ورد عن جمع من الصحابة بألفاظ متقاربة هذا أحدها وهو لفظ مسلم

ج) النبوة التي تمثل في البناء الحضاري ارتباط الإنسان بالحق، باعتبار النبوة هي البداية الإنسانية للحق ثم الحواريون والمصلحون والدعاة.

ومن هنا يمكن القول بأن البناء الحضاري هو مضمون قول الله عز وجل: (أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ).

وارتباط مفهوم الحضارة بالحق له صيغة محددة وهي ارتباط الحضارة من حيث الأصل بالرسالات السماوية. ومن هنا فإن الحضارة هي الصيغة النهائية للأمة ذات الرسالة السماوية بوجودها الثابت وغايتها التامة.

ولذا يقول (توينبي)، وهو مصيب في هذا القول: (إن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله)، حتى يصبح تعريف الحضارة من خلال حقائق التوافق بينها وبين مفهوم الأمة أساسا لأزما لهذا التعريف.

الزمن الحضاري:

فلكل أمة أو حضارة زمان، ودليل هذه الحقيقة هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، قال: لا تفعلوا أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا، فأبوا وتركوا. واستأجر آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه فقال: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير فأبوا، فاستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور (انفرد به البخاري في كتاب الإجارة من العصر إلى الليل)[83].

ومن ارتباط كل أمة بالحق الذي قامت به أصبح لكل أمة أجل بدليل قول الله عز وجل: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)، وأن حقيقة الأجل ليست منطبقة فقط على الإنسان بل تنطبق

[83] أخرجه البخاري في الإجارة (4/445)

على الأمة مرورا بالإنسان والحيوان، وانتهاء بأي موجود، سواء حيوان أو نبات أو جماد، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن لهذه الأشياء أجلا)[84] يقصد الآنية.

فالأجل حقيقة كل موجود أما أجل الأمة وارتباطه بالحق فله اعتباران: اعتبار الوجود ذو الفاعلية الناشئة عن الارتباط بالحق، واعتبار الوجود المجرد من الفاعلية بعد الانفصال عن الحق.

وقد تنتهي فاعلية الأمة ويبقي وجودها المجرد: مثال الأمة اليهودية والنصرانية اللتين ستبقيا إلى قيام الساعة دون أي مضمون حضاري لانفصالهما عن الحق.

المجال الحضاري:

وكما حدد الحق أجل الأمم حدد مجالها. وما نعنيه بالمجال هو المكان والعرق؛ فلكل أمة أو حضارة مكان ارتبط قدر وجودها به ارتباطا يصل إلى حد الرمز لها في القرآن الكريم، فجاء قول الله عز وجل: (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ).

دليلا على هذا الرمزية حيث أن الآيات ترمز للأمة النصرانية واليهودية والإسلامية بهذه الرموز المكانية.

ولما كان لكل أمة حضارية مجال أوجدها الله للعمل فيه، فإن تجاوز الأمة لذلك المجال يعني نهايتها، ولعل المثال التاريخي على ذلك هو الأمة النصرانية حيث أن عيسى عليه السلام كان نبيا لبني إسرائيل، وكان هذا مجال الأمة، فكانت بداية النهاية لهذه الأمة عندما حاول أصحاب هذه الديانة الالتقاء مع الوثنيين الرومان والخروج عن حدود مجال بني إسرائيل وكذلك لكل أمة حضارة ارتباط عرقي، فاليهود ارتباطهم العرقي، قدرا، هو بنو إسحاق، والنصارى ارتباطهم العرقي، قدرا، هو بنو الأصفر (الروم)، والمسلمون ارتباطهم العرقي، قدرا، هو بنو إسماعيل، ومنهم قريش، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الناس تبع لقريش خيرهم لخيرهم، وشرهم لشرهم)[85].

مفهوم الولاء الحضاري:

---

[84] أخرجه أبو نعيم في حليته (10/26) من حديث كعب بن عجرة مرفوعا: (لا تضربوا إماءكم على إناءكم فإن لها آجالا كآجل الناس)

[85] البخاري في الأنبياء (6/526)، ومسلم في الأمارة (1818)

وارتباط مفهوم الحضارة بالحق، من حيث النشأة والصراع والامتداد، أوجد حقيقة هامة في إطار التفسير الإسلامي للتاريخ، وهي حقيقة (الولاء الحضاري) بين الحضارات التي قامت بالحق في الواقع البشري حيث ينبثق من مفهوم الولاء الحضاري تصور جميع حضارات الحق بتصور واحد يبلغ درجة الحضارة الواحدة.

فهذه الحضارات واحدة في أصلها بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (نحن معاشر الأنبياء أخوة لعلات ديننا واحد وأمهاتنا شتى)[86].

وهذه الحضارات واحدة في بنائها بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل الأنبياء كرجل بني دار فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضوع اللبنة)، وفي رواية: (فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)[87].

وقد ترك لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم شواهد متعددة لمفهوم الولاء الحضاري ولعل من تلك المواقف القائمة على هذا المعنى صيام النبي صلى الله عليه وسلم يوم عاشوراء لما علم أنه اليوم الذي نجي الله فيه موسى من فرعون.

ومنها تركه صلى الله عليه وسلم للجن الذي وقع أسيرا في يده لما تذكر دعوة سليمان[88]: (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي).

وكما تحدد مفهوم الحضارة، من خلال الارتباط بالحق يتحدد مفهوم الانهيار الحضاري بفقد هذا الارتباط.

الانهيار الحضاري:

ويكون تقييم هذه المرحلة بعد اعتبارات اهمها الترف، والعلو في الأرض بغير الحق وهو الأمر الذي يقتضي الخفض، وهذا هو الخط الأساسي للأنهيار يليه فقد الالتزام بالمضمون الحضاري، وهو الرسالة أو المنهج الذي قامت به تلك الحضارة، وبعد هذا التصور المرحلي للانهيار يجئ التحديد خطوط الانهيار، والخط الأول فيه هو ضياع الالتزام

[86] سبق تخريجه
[87] البخاري في (الأنبياء) [6/558]، ومسلم في الفضائل (2285) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
[88] البخاري في مواضع من صحيحه منها في (الأنبياء) [6/457] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

التكليفي، وكنا قد اتفقنا على أن مرحلة الحواريين والفئة القليلة المرتبطة وجدانيا بهذا المنهج هي من أهم عناصر البناء الحضاري.

وعندما يبدأ الانهيار فإن هذا الخط يتحدد من خلال عدة نقاط:

الأول: فقد الالتزام الوجداني (مرحلة إلهام الحواريين بالطاعة)؛ الدخول في مرحلة الالتزام التكليفي... (أي الالتزام وبصفة تكليفية بحتة غير ألهامية أو وجدانية.

ثم... البدء في مرحلة الحيل التكليفية... وهي مرحلة الخروج عن الشرع من خلال الشرع ذاته.

ثم توقفها...

ثم البدء في مرحلة الجحود التكليفي، والخروج عن الشرع من خلال تبديل الشريعة...

وقد حدد القرأن الكريم خط الانحراف التكليفي العام بقوله الله عز وجل: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)، (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى).

ويوازي هذا الخط ضياع الغاية الاعتقادية، وهي غاية الحضارة التي هي غاية الوجود الأنساني وهي تحقيق العبودية البشرية في الأرض لله رب العالمين، وهذا التوازي هو الذي ورد في قوله الله عز وجل: (أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ). هذه هي الأسباب الرئيسية للانهيار الحضاري يتبع هذه الأسباب أن تفقد ويبقي لها وجود المجرد لينتهي ذا الوجود المجرد بالانهيار التام أو الهلاك.

والفرق بين فقد الفاعلية وفقد الوجود المجرد مرده إلى الأجل المكتوب لكل أمة أو حضارة، وهذا الفارق هو فترة استحقاق الهلاك وتأجيله حتى تظهر الحضارة البديلة والأمة الجديدة، وهذه حكمة الأجل في اهلاك الأمم وانهيار الحضارات، وهي في الوقت نفسه فكرة تحول الحضارة إلى المحض الذي يقتضي العدم.

الأصل الرابع؛ الإنسان:

وكما ارتبط مفهوم الحضارة من خلال حقيقة الامة: فان كذلك لايكون.

إلا من خلال الصيغة الاجتماعية لتلك الأمة، وانطلاق من أن الحد النهائي للحضارة هو الأمتداد العسكري للدولة مع نموها الاداري والاجتماعي والسياسي فإنه لا يكون إلا من خلال الانسان.

ونصوص الكتاب والسنة تحدد أهم المفاهيم الحضارية المؤيدة للمفهوم القائل بأن الأنسان هو مرتكز الحضارة حيث جاء قول الله عز وجل: (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً).

بأعتبار أن الأعراب هي النوعية المنفصلة عن اطار الواقع الحضاري للدولة الإسلامية وهو البدو الرحل الذين كانوا في مواقع متناثرة من الصحراء من مكة أم القري والمدينة، وكما انفصلت الأعراب عن واقع الدولة انفصلت كذلك عن حركتها وامتدادها العسكري فكان الأعراب هم المخلفين وفي هذا جاء قول الله: (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)، وكنتيجة لانفصال العرب عن واقع الدولة كان التخلف الأجتماعي فجاءت الحضر مقابل السفر وباعتبار أن السفر هو الظرف المؤقت المانع لصاحبة من الاستقرار الإجتماعي والذي يجيز للمسافر القصر في الصلاة فارتبط بذلك معنى الأستقرار الإجتماعي بمفهوم الحضر أو الحضارة.

ولاجل ارتباط الحضارة بالأستقرار الأجتماعي فإن الإسلام يعالج الفارق الحضاري بين الدولة باعتبارها قمة الأستقرار، وبين واقع هؤلاء الأعراب باعتبار بعدهم عن الدولة.

وأهم عناصر هذه المعالجة هو التحذير من أن تكون الدولة موضعا لتأثير الأعراب وعاداتهم وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (لايغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم)[89].

ومن العناصر تلك المعالجة واجب استيعاب آثار الفارق الحضاري بين الدولة والاعراب من الناحية السلوكية، ومن أمثلة ذلك حادثة الأعرابي الذي بال في المسجد والتي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والدرامي ومالك وأبو أحمد، وفي نهي النبي الصحابة ان تقطع عليه بولته و وقال: لاتذرموهولاتقطعوا عليه بولته ثم أفهمه الخطأ بقوله: يا أخا العرب ماجعلت المساجد لهذا، وانما جعلت لعبادة الله حتى ان الاعرابي تأثر لحكمة النبي ورحمته فقال: اللهم ارحمني أنا ومحمد ولاترحم معنا احدا، فقال

[89] أخرجه مسلم في المساجد (644)، وابو داود رقم (4948) في الادب والنسائي في المواقيت (1/27) من حيث ابن عمر وتمام الحديث: 00ألا انها العشاء وهم يعتمون بالأبل واخرجه البخاري في مواقيت 2/43 من حديث عبدالله المزني بلفظ، لاتغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم المغرب، قال وتقول الاعراب: هي العشاء.

له النبي صلى الله عليه وسلم لقد حجرت واسعا، يعني ضيق رحمة الله عز وجل بهذا الدعاء والأعرابي الذي جاء إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال له: أعطني من مال الله لامالك ولامال أبيك والاخر قال: يابني عبد مناف إنكم قوم مطل.

ويدخل في إطار واجب الاستيعاب مراعاة الناحية العقلية، ومن أمثلة ذلك الأعرابي الذي تصفه الصحابة بقولهم نسمع دوي صوته ولانفقه ما يقول، حتى جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول: يامحمد، ثم يسأل ماذا فرض الله عليه في اليوم والعام والعمر فيجيبه النبي صلى الله عليه وسلم: والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص والحديث بنصه متفق عليه.

وفي النهاية يقرر النبي صلى الله عليه وسلم الأرتباط لبن البدارة والجفاوة، كحقيقة قدرية في الطبع الأنساني، فيقول: (من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل)[90] رواية: (من سكن البادية جفا)[91].

ومن مجموع هذه النصوص المقارنة بين البداوة والحضارة نستطيع أن نقدم مثالا للسلوك الحضاري وغير الحضاري.

وأهم أمثلة السلوك الواردة في نصوص المقارنة أن الكفر والنفاق والجفاوة والقعود عن القتال وهي الصفات الأساسية للأعراب تعتبر سلوك غير حضاري وكذلك سلوك الإعرابي في المسجد، وكذلك سوء أدب الأعراب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فلكل هذه الانماط السلوكية - بالمفهوم الإسلامي للحضارة - يعتبر سلوك غير حضاري.

وفي المقابل الايمان والصدقة والرقة والجهاد والرحمة والحكمة ومراعاة الفوارق العقلية واستيعاب رعونة الغير تعتبر - بالمفهوم الإسلامي للحضارة - سلوك وقيم حضارية، ثم يأتي الأصل الخامس لتفسير وهو مفهوم الفاعلية التاريخية.

[90] أخرجه أحمد في المسند (2/371)، وابن عدي في الكامل (1/312) من حديث ابي هريرة وفيه اسماعيل بن زكريا الكوفي أبو زياد وهو حسن الحديث، قال الهيثمي في المجتمع (5/246): رواه أحمد والبزار، واحد اسنادي أحمد ورجاله رجال الصحيح، خلا الحسن بن الحكم النخعي وهو ثقة. ثم اخرجه أحمد (4/297)، وأبو يعلي مختصرا ن البراء و وسنده صحيح.

[91] أما لفظة من سكن البادية فهي عند أبي داود في الصيد (2859)، والترمذي في الفتن (2256)، وصححه، النسائي في الصيد (7/195)، واحمد في المسند (3362) كلهم من حديث ابن عباس، وسنده حسن لا كما يذهب إلى تضعيفه بعض أفاضل عصرنا وصححه الشيخ شاكر رحمه الله.

الأصل الخامس؛ الفاعلية التاريخية:

اتفقا أن الحضارة هي الصيغة النهائية للأمة: فإذا كانت الأمة هي الصيغة القدرية للوجود البشري وكانت علة الوجود البشري هي عبادة الله عز وجل فإن المفهوم الحضاري لايعني الا واقع الأمة ذات الفاعلية المحققة لعبادة الله في الأرض ويبقي مفهوم الحضارة ببقاء تلك الفاعلية.

وحتي تتحدد القضية بصورة حاسمة يجب أن يتحدد معنى الفاعلية: فالفاعلية هي المظاهرة القدرية لوجود الأمة، أو التأييد الرباني لبقائها ممثلة للحق في واقع التدافع البشري، وشواهد تلك الفاعلية بقاء المضمون المنهجي الذي قامت عليه الحضارة من حيث الابتداء، ثم بقاء المثال الواقعي القائم على هذا المضمون سواء كان واقع تمكن أو استضعاف، ذلك أن بقاء هذين المشهدين أثر قدري رباني وليس أثرا بشريا ومن هنا أصبح دليلا على المظاهرة القدرية والتأييد الرباني ومن هنا يخرج المفهوم الإسلامي للحضارة أي واقع بشري لايملك أدلة تلك الفاعلية.

والفاعلية التاريخية في التفسير الإسلامي هي الفاعلية الإلهية؛ وهذه الفكرة هي نقطة الضوء المكثفة التي يتضح فيها جوهرية الفرق بين التفسير الإسلامي والجاهلي للتاريخ، ذلك أن الجاهلية بكل اتجاهاتها لاتسعي إلا نحو جحود الفاعلية الألهية في تفسيرها للتاريخ، وقد اتضحت عناصر الفاعلية الإلهية من خلال العناصر الأساسية للحضارة إذ أن تلك العناصر هي بذاتها عناصر الفاعلية الالهية في التفسير الإسلامي للتاريخ وهي:

1) الحق المستمد بطريق النبوة والرسالة.
2) الالهام الالهي للحواريين (إذ أوحيت إلى الحواريين أن أمنوا بي وبرسلي).
3) مؤازرة الفئة القليلة عند المواجهة.
4) غلبة الفئة أو التمكين لها في الأرض والفتح عليها وميراثها الأرض.

وبعد ذكر تلك العناصر الأساسية نأتي إلى أخطر الأفكار المرتبطة بمفهوم الفاعلية الإلهية، وهي فكرة الحتمية التاريخية الناشئة عن تلك الفاعلية، والتصور الإسلامي للحتمية التاريخية يتحدد من عدة جهات:

1) من جهة العلم الإلهي، فكل ما علم الله أنه سيكون لابد أن يكون.

2) من جهة الإرادة الإلهية, ان ماشاء الله كان و لم يشأ لم يكن.

3) من جهة الحكمة الألهية، أن علم الله بحكمة ما سيكون يدعوه سبحانه إلى فعله، وأن حكمته سبحانه هي الغاية المرادة لنفسها التي يفعل لأجلها.

4) من جهة كلام الله أن كل ما أخبر الله به مطابق لعلمه، وأن ما أخبر الله بوجوبه على نفسه وأقسم ليفعله لابد أن يكون.

5) من جهة الكتابة: أن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ هو الذي يقع

6) من جهة الرحمة: أن الله كتب على نفه الرحمة

7) من جهة العدل: أن الله حرم الظلم على نفسه فلا يمكن أن يقع منه ظلم سبحانه فهذه سبعة أوجه تقتضي الجزم بوقوع ماسيكون، وأن ذلك حتم لابد منه، وقد وردت النصوص التي تؤكد مفهوم الحتمية من هذه الجهات، منها ماجاء به لفظا (حتما)، كقوله تعالى: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)، وقوله تعالى: (وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)، وقوله تعالى: (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)، وقوله تعالى: (وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ).

ثم نأتي إلى أخطر التفسير الإسلامي للتاريخ وهي:

الأصل السادس؛ الشيطان والتاريخ:

الشيطان يملك تجربة الوجود البشري من بدايته إلى نهايته...

الشيطان يرفع العداوة والبغضاء بين البشر...

الشيطان ينقص أمر الله في الخلق، فكيف لايدخل في حسابات التفسير الإسلامي للتاريخ، ولكن هذه الحقيقة التي قد تبدو بديهية بالنسبة للمؤمنين نحتاج إلى فرضها كأمر منهجي واقع أمام غير المؤمنين، ولذلك سنضع هؤلاء أمام عدة ظواهر تاريخية بتفسيرها بعيدا عن هذه الحقيقة، إن كانوا صادقين.

ظاهرة عبادة الشمس والأفعى:

اتفقت جميع الديانات القديمة على عبادة الأفعى والشمس، تلك الظاهرة التي أقر بها جميع المؤرخين، إذ يقول علماء الأديان القديمة أن الأنسان البدائي عبد الأفعى وان

التقديس نجده في جميع الحضارات التي أحاطت بالجزيرة العربية في عصور ما قبل التاريخ تقريبا، سواء كانت الحضارة المصرية القديمة، أم الحضارة البابلة، أم الهندية، بل أن شعوب أفريقيا وغربها وشعوب أمريكا تشترك معها في هذه العقيدة[92] كما اتخذ المصري القديم رمزا طوطميا جاعلا منها المعبود.

وفي بابل يحدث هيرودوت عن أفعي حقيقية كانت تعبد هناك، وتوضح لنا ملمحة جلجامش الكلدانية الشهيرة مجموعة من التقاليد المقدسة التي كانت تمارسها القبائل التي اتخذت الأفعى رمزا طوطميا لها، وماتزال الهند، بصفة خاصة، ومن أشهر المناطق التي تحافظ على طقوس عبادة الأفعى ومعابدها منذ فجر التاريخ حتى الأن.

وعلى الرغم من أن الكوبرا، في الأصل، ليست أفعي مائية ولا يمكنها بصفة عامة البقاء طويلا، تحت الماء فقد ربطت الشعوب البدائية بينها وبين الماء كالأنهار والبحار والمستنقعات في نسق مقدس واحد، ولهذا فقد جعل الهنود بالرب من كل معبد للشمس في الهند بحيرة ماء، أو على الأقل أحد خزانات المياه النقية، وهي تسمي بحيرة الشمس وتكرس لعبادتها.

ويبدو أن الشمس والأفعى المؤلهة ترتبطان في كل مكان البحر والأنهار والبحيرات هذا مانجده منتشرا على نطاق واسع في التراث الأفريقي حيث تؤله الأفعى بوصفها إلهة قوس قزح، أو مايعرف باسم الدامبالا أو الداهومية، وهذا الاعتقاد يتمثل لدي الهنود في أمريكا حيث تقام الطقوس التي يصاحبها الرقص.

والشموع والأزهار، ولا تزال معابد الأفاعي المؤلهة مزاراتها منتشرة في الهند، وبخاصة في المناطق النائية فيها، حيث تقام الطقوس التي مورست من قبل ذلك بالاف الأعوام.

ومنذ زمن بعيد موغل في القدم قدس الأغريق الأفعى.

وفي أستراليا الاستراليون الأفعى رمزا طوطميا، وإن كانت عبادتها تتركز في قلب القارة، أما في المكسيك وبصفة خاصة قبل الهجرة الأزبكية وبعدها فإن الأفعى تعد رمزا دينيا لهم.

---

[92] رمز الأفعي في التراث العربي.

وينظر البابليون إلى الأفاعي بوصفها مخلوقات سريعة، وهي غالبا تقدس بوصفها أخر تحسنات الالهة على الأرض.

رأينا فيما تقدم كيف كانت علاقة الشعوب البدائية بالأفعى علاقة تقديس، ثم تاتي إلى أثبات العلاقة بين الشمس والأفعى والماء بنفس مستوي إثبات عبادة الأفعى...

أسماء الأفعى وصفاتها تكاد مع اسماء الشمس وصفاتها في الديانة العربية القديمة كان يطلق على اله مقدس او كان يدل معناه على الحارسة أو الحامية أو الحافظة.

كذلك كانت الشمس في العبادات العربية القديمة تسمي (ذات الغدران)، و(ذات اللون الذهبي)، وهي اسماء وصفات خلعتها الحضارات القديمة على الأفعى فهي ربة الغدران (ربة المياه)، وهي المعبودة النبيلة ذات اللون الذهبي، وهي الحارسة أو الحامية أو الحافظة.

والربط بين اللات إلهة الشمس والحياة ذكره لسان العرب في مادة (لوهه)، فيقول إن اللاهه هي الحية العظيمة وان اللات اسم المعبودة وربما أخذ أسمه منها.

وها الربط بين الشمس والأفعى بالإضافة إلى توحد صفات كل منها في الحضارات القديمة ومنها العربية، ليس غريبا على الشعر العربي، إذ يقول الشاعر في الثعبان.

يظل مرتئيا للشمس تصهره إذ رأي الشمس مالت جانبا عدلا
كأنه حين يمتد النهار له إذا استقام يمان يقرأ الطولا

ويصبح هذا البيتان أكثر دلالة على الربط بين الأفعى والشمس عندما تعرف أن المعاني التي تضمنها بعينها تقريبا، وقد وردت في أحد الكتب الهندية المقدسة والمتوارثة منذ الاف السنين في شكل أبيات شعرية يتوجه فيها الثعبان إلى المعبودة النبيلة بالتقديس جاعلا إياها قبلته فيقول:

إنه يتلفت يمينا ويسارا قائلا...
أن الشمس هي قبلتي.
إنه يتخذ الشمس قبلة له.
فيظل يصل إلى هدفه الأسمي.
وملاذه الأمين...
وجهها المضيء...

هذه الظاهرة ليست هي الظاهرة الوحيدة ولكنها مجرد ظاهرة تتميز بالدقة...

شمس وحية وماء...

في جميع القارات وجميع الحضارات وجميع الأزمنة دونما أدني علاقة بين الشمس والحية والماء...

ودون أي صلة بين جميع القارات وجميع الحضارات على مدي الزمن المقدر بآلاف السنين الذي تمت عبادة هذه الرموز الثلاث وهنا يقول التفسير الإسلامي للتاريخ كلمته الحاسمة والنهائية:

الشيطان هو العلاقة...

الشيطان تخرج الشمس بين قرنيه[93]...

الشيطان مع الحية حول إبليس فوق الماء[94]...

الشيطان يعيش تجربة الوجود البشري كله...

من خلق آدم وحتي يوم يبعثون[95].

وهل يجوز لأي عاقل أن يقول غير هذا في تفسير هذه الظاهرة التاريخية الصارخة؟

حول التفسير الإسلامي للتاريخ:

والتفسير الإسلامي للتاريخ قد تعارضه ظاهرة تستحق المناقشة والمتعلقة، بالربط بين مفهوم الحضارة والأمة ذات الرسالة الدينية إذ قد يقول قائل: هناك حضارات ليس لها علاقة بالدين فما هو تفسير بقائها؟

والحقيقة أن الحضارة من حيث علاقتها بالدين نوعان:

[93] لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الشمس تشرق بين قرني الشيطان) 0

[94] يقول ابن صياد في وصف عرش إبليس عندما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا تري؟ قال: أري عرشا حوله حيات 0

[95] يقول الله تعالى: (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) 0

1) الحضارة بمعني الأمة القائمة على الدين الصحيح.

2) الحضارة بمعني الأمة التي كانت قائمة على الدين الصحيح ثم انتهي هذا الدين في الواقع إلى البطلان.

والتفسير يعني علاقة الدين بنشأة الحضارة، وهذا يعني أن أى حضارة قامت أصلا على الدين ولكن بقاؤها هو الذي لا يرتبط بالدين أما تفسير بقائها بغير الارتباط بالدين فله تفسيرات أخري:

منها أن فقد الحضارة للفاعلية مرتبط بفقد الإرتباط بالدين أما الوجود المجرد فهو رهن بأجل مكتوب عند الله سبحانه وتعالى.

ومنها أن بقاء، وليس نشأة الأمم بعد فقد علاقتها بالدين، يكون مرهونا بالعدل. فقد تكون الأمة كافرة ولكنها عادلة فيكون البقاء بمقتضي هذا الأمر

باعتبار أن قيامها بالعدل يوفي لها شروط الوجود المجرد من الفاعلية باعتبار أن العدل أساس الوجود بصفته الكونية، فيتحقق أن يكون أساسا لوجود كوني مجرد إذا توفر في الأمة. وأن الظلم هو الذي يحرم الأمة وجودها المجرد، ويوجب الهلاك التام.

ومنها أن بقاء هذه الأمة مرتبطة بالتوازن بين الخير والشر المتحكمة في حركة التاريخ، ومن الممكن أن ينطبق على هذه الظاهرة حكمة خلق الشر ووجوده وبقائه استفاذا لحظ أهله في الدنيا.

بل أن استحقاق هذه الأمم للهلاك قد يستوجب ازديادهم. وفي هذه الحقيقة يقول تبارك وتعالي: (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)، ويقول: (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ).

ومنها تحقيق التقابل مع الحضارة الإسلامية المرتبطة في نشأتها وبقائها بالدين الصحيح كتقابل اليهودية والنصرانية مع الإسلام إلى قيام الساعة، فالتفسير الإسلامي لوجود اليهودية والنصرانية هو التقابل الديني مع الإسلام.

وأخيرا تضرب مثلا لحضارة ناشئة على دين صحيح وهي باقية رغم انتهاء هذا الدين إلى البطلان حيث يتضمن المثل جميع أسباب بقاء الحضارة بغير دين صحيح وهذا المثل هو الحضارة الرومانية.

فللحضارة الإسلامية مقابل سيبقي معها إلى قيام الساعة وهي المسيحية من حيث المحور الديني، والتي يوازيها من حيث المحور العرقي (الروم)، وهم الأصل العرقي للحضارة المسيحية، وذلك بدليل هذا الحديث: (أشد الناس عليكم الروم ومهلككم مع الساعة) رواه أحمد[96].

قال المستورد القرشي عن عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تقوم الساعة والروم أكثر الناس)، فقال له عمر: أبصر ما تقول! قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالا أربعة: أنهم لأحكم الناس عند فتنه، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك)[97].

ومن قول عمر: تتحدد خمس عناصر للبقاء الحضاري:

1) الحكمة عند الفتنة.
2) الإفاقة بعد المصيبة.
3) الكر بعد الفر.
4) رعاية الضعفاء.
5) منع الظلم.

وهذه العناصر الخمسة هي على وجه التحديد موانع الهلاك إذا وجدت أسبابه، فإذا كانت الفتنة، وهي أول أسباب الهلاك، كانت الحكمة وهي أول أسباب اخمادها وتفادي أثارها، وإذا كانت المصيبة كانت الإفاقة التي تمنع استمرارها، وإذا كان الفر والهزيمة كان الكر والمقاومة، ثم رعاية الضعفاء الدالة على أصالة الأقوياء، ثم الامتناع عن ظلم الملوك الذي هو أصل الهلاك ليكون العدل، وهو أهم شرط للبقاء، وهذه الحقائق الواردة في حديث مسلم عن عمر هي مثال لمنهج الاستقراء الذي تستنبط من خلاله حقائق الحضارة من تاريخ الأمم فيصبح قول عمر تفسيرا منهجيا لحقيقة قدرية أثبتها النبي صلى الله عليه وسلم في الحضارة الرومانية.

الاختصاص الحضاري للأمة الإسلامية:

96 أخرجه أحمد في مسنده (4/230)، وفي ابن لهيعة، وسنده حسن - كما قال السيوطي -

97 مسلم في (الفتن) رقم (2898)، وأحمد في مسنده (4/230) 0

وباعتبار أن الأمة الإسلامية هي آخر الأمم وأن هذا زمانها القدري[98]. وأن مجالها القدري هو الأرض كلها؛ والبشر جميعهم فإن هذه الأمة باقية إلى قيام الساعة فكانت أوجه الاختصاص المتعلقة بهذه الحقيقة متعددة وأهمها:

بقاء المضمون المنهجي للحضارة الإسلامية من خلال قدر الله بحفظ القرآن الكريم، كما قال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، ومن خلال رجال الحديث الذين حفظوا السنة بصورة بشرية خارقة بلغت حد المظاهرة القدرية المباشرة التي لم تحدث في أي أمة من الأمم.

بقاء المثال الواقعي لهذا المضمون المنهجي وهو جماعة الحق إلى قيام الساعة وهي الطائفة التي قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لاتزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى ياتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[99].

وكما أن هذه الأمة باقية إلى نهاية الزمان فإن لها هي الأخرى نهاية وذلك لحتمية النهاية لكل الامم مما أنشأ أختصاصا آخر لهذه الأمة وهي أن هذه الأمة لاتملكها أمة أخرى لأنها اخر الامم بل يهلك بعضها بعضا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (هذه الأمة يهلك بعضها بعضا)[100] وهذا الأختصاص كان هو العلة التي يستجب لأجلها الله سبحانه وتعالى لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم للهم لاتجعل بأسهم بينهم شديد فلم يستجب لي.

[98] بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا، فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعلت اليهود ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعلت النصارى ثم قال: من يعمل من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين ألا فأنتم الذين عملتم فغضب النصارى واليهود وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء؟! قال هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء). رواه أحمد وقد رواه البخاري برواية قريبة منه وأورد ابن كثير الروايتين في تفسير قول الله تعالى في سورة الحديد: (يأيها الذين أمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم) [الحديد: 28)، بدليل قول الله عز وجل: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) [الأنبياء: 107)، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وكل نبي لقومه خاصة وبعثت للناس كافة)

[99] سبق تخريجه قريبا

[100] مسلم الفتن (2889)، (2890) من حديث ثوبان رضي الله عنه

وفي النهاية نأتي إلى مثال تطبيقي لنشأة حضارة جديدة في واقع حضارات قائمة، وهذا مثال هو نشأة الحضارة الإسلامية، وفيه نري خط العلاقة بين الحضارة الجديدة والقديمة من خلال عدة نقاط، فكانت النقطة الأولى في الحضارة الجديدة هي ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم التي قابلها في الحضارة القديمة تصدع ايوان كسري وانطفاء نار فارس.

ومن نقاط التقابل بين الحضارة الناشئة والحضارة المنهارة نلاحظ، بصفة أساسية، حقيقة المؤازرة التي تكون للحضارة الجديدة، ومن هنا كان التصور القدري متضمنا لمراحل النشأة الأساسية للحضارة، وهو المثال الوارد للأمة الإسلامية في الانجيل كما قال سبحانه وتعالى: (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ).

وأول حقائق المؤازرة الربط بين حياة الانبياء واتمام الرسالة وذلك ان لحياة أي نبي اعتبارين اعتبار شخصي واعتبار الرسالة، وهذا هو السبب في تخيير الأنبياء عند الموت بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم مانبي الا خيرا وقول النبي صلى الله عليه وسلم خير عبد بين الدنيا وبين ما عند الله[101] وكان النبي كان يقصد بذلك نفسه عليه الصلاة والسلام، فعندما تتم الرسالة يكون هذا إيذانا بأجل النبي، ودليل ذلك قول عمر: ما قولكم في قول الله: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ).

السورة فقال ابن عباس: ينبغي بها الله أجل النبي عليه السلام.

وعندما تتم الرسالة لا يبقي في حياة النبي إلا الأعتبار الشخصي، وفيه يخير الأنبياء.

وقد كان للمؤازرة، كفعل قدري خالص، صور متعددة.

منها بعثة النبي في نسب قومه بدليل تفسير قول الله: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بعَزِيز)، وفيه قول هرقل: وكذلك الأنبياء تبعث في نسب قومها بعد أن سأل أبا سفيان كيف نسبه فيكم قال: هو فينا ذو نسب – يقصد النبي صلى الله عليه وسلم.

[101] البخاري في فضائل الصحابة (7/12)، ومسلم في فضائل الصحابة. (2382)، والترمذي في المناقب (3660)

ومنها التقاليد الثابتة في الواقع الذي نشأت فيه الأمة الجديدة التي كانت أهمها تقاليد الجوار والتي كانت سببا في حماية المسلمين من الفناء، والمروءة كذلك التي منعت قريش أن تترك المسلمين يموتون في شعب أبي طالب، والمروءة كذلك التي منعت قريش من الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته في محاولة قتله حيث حقق الامتناع فرصة ليأخذ على بن أبي طالب مكان الرسول صلى الله عليه وسلم في فراشه حتى نزل قول الله عز وجل: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ). فتحقق بذلك حفظ حياة النبي بصورة قدرية خالصة، ولذلك رفع النبي الحراسة عنه بعد نزول هذه الآية.

وتعددت الأخطار حول حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولكن العصمة غلبتها. ومن هذه الأخطار محاولة اليهود قتل النبي ونزول الوحي يخبره بأن يغير المكان الذي جلس فيه لأن اليهود ستلقي عليه حجرا، ومنها الرجل الذي جاء إلى النبي وهو نائم فرفع عليه السيف وقال: يا محمد من يعصمك مني: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الله)، فسقط السيف من يده فأخذه النبي السيف وقال: (من يمنعك مني؟)، قال: كن خيرا مني، فعفا عنه...

وقد كانت البعثة دليلا في ذاتها على حتمية انهيار الحضارة الرومانية، وهذا هرقل عظيم الروم يعلم بخبر البعثة عند ظهور نجم النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان الحوار الذي بينه وبين أبي سفيان والذي قال فيه هرقل لأبي سفيان: لو كان كما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين. وفيه قال أبو سفيان: لقد ظهر أمر ابن كبشة[102] يخشاه بنو الأصفر؛ وذلك بعد أن بعث النبي صلى الله عليه وسلم برسالة إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام.

وفي انهيار الحضارة الرومانية والفارسية أمام الحضارة الإسلامية الجديدة كان قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا مات كسري فلا كسري بعده، وإذا مات قيصر فلا قيصر بعده) رواه البخاري ومسلم[103].

وفي المقابل كان انتصار الروم على الفرس تهيئة قدرية للواقع الذي نشأت فيه الحضارة الإسلامية؛ ومن هنا كان الربط بين غزوة بدر وانتصار الروم كما قال ابن عباس في تفسير: (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ).

---

[102] وهو زوج حليمة السعدية التي أرضعت النبي صلى الله عليه وسلم.

[103] البخاري في الأنبياء (6/625)، ومسلم في (الفتن) (2919)، ولفظه (إذا هلك كسري فلا كسري بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله) 0

ثم تأتي غزوة الخندق لتمثل بالنسبة للحضارة الإسلامية أقصي شدة فيرتبط بها قدر فتح الروم والفرس، فيخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخبر الفتح عندما يضرب الحجرالذي لم يتمكن الصحابة من كسره في الخندق.

فقد روي البخاري[104] عن جابر رضي الله عنه قال: (كنا في الخندق فعرضت لنا كديه شديدة فجاؤوا النبي صلى الله عليه الصلاة والسلام، فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنة معصوب بالحجر، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فعاد كثيبا مهيلا وأصبح الحجر رملا لا يتماسك، وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا في بعض الخندق صخرة لاتأخذ منها المعاول، فأشتكينا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء وأخذ المعول بسم الله ثم ضرب ضربة وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله لآني لأنظر قصورها الحمر الساعة، ثم ضرب الثانية فسقط أخر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله لآبصر قصر المدائن الأبيض الان، ثم ضرب الثالثة: فقال بسم الله فقطع بقية الحجر فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله لأبصر أبواب صنعاء من مكاني). رواه النسائي وأحمد[105].

ولما كانت غزوة الأحزاب هي أقصي شدة تعرض، المسلمون لها. كانت كذلك نقطة البدء في مرحلة الامتداد بعد الثبوت القدري لوجود الأمة الإسلامية، إذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم بعد جلاء الأحزاب: (الان نغزوهم ولا يغزونا)، رواه البخاري[106] عن سليمان بن الصرد.

ثم كان فتح مكة وهو اليوم الذي بلغ فيه الذين كفروا مرحلة اليأس من هذا الدين كما قال لله: (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ).

وفي النهاية نذكر ما قاله الأستاذ سيد قطب في مفهوم الحضارة: وبعد... فإن قاعدة انطلاق المجتمع الإسلامي وطبيعة تكوينه العضوي تجعلان منه مجتمعا فريدا لا تنطبق عليه اية من النظريات التي تفسر المجتمعات وطبيعة تكوينها العضوي، والمجتمع الإسلامي وليد الجركة والحركة فيه مستمرة وهي التي تعين أقدار الأشخاص وقيمتهم، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم، والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج

[104] البخاري في المغاري (7/395) من حديث جابر رضي الله عنه
[105] أخرجه أحمد في مسنده (4/303) من حديث البراء بن عازب والنسائي في السنن الكبري كما في تحفة الاشراف (2/65)، وحسن الحافظ إسنادها في الفتح (7/397).
[106] البخاري في المغاري (7/405).

النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري، إنها تتمثل في عقيدة أتية من الله، والغايات تحدد لهم منهجا يترجم هذا التصور والدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس، ولا من مادة الكون، إنها، كما قلنا آيته لهم من خارج النطاق الأرضي ومن خارج المحيط البشري، وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه إنه ينطلق من عنصر خارج محيط الأنسان وعن محيط الكون المادي، وبهذا العنصر القدري الغيبي إلى لم يكن أحد من البشر يتوقع أو يحسب في قيام المجتمع الإسلامي ويبدأ معها عمل الأنسان أيضا: أنسان يؤمن بهذه العقيدة الاتية له من ذلك المصدر الغيبي الجارية بقدر الله وحده وحين يؤمن انسان واحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكما) إن الأنسان الواحد لت يتلقي هذه العقيدة وينطوي على نفسه، إنه سينطلق بها، هذه طبيعتها، طبيعة الحركة الحية، ان القوة العاليا التي دفعتها إلى هذا القلب.

تعلم أنها ستتجاوزه حتما، إن الدفعة الحية التي وصلت بها شدة العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما، وحين يبلغ المؤمنين بهذه العقيدة ثلاثة تفر فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم انتم الان مجتمع اسلامي منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لايدين له العقيدة ولاتسود فيها قيمتها الأساسية القيم التي أسلفنا الإشارة إليها، وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد فعلا، والثلاثة يصبحون عشرة، والعشرة يصبحون مائة، والمائة ألف، والألف يصبحون أثني عشر الف، ويبرز ويتقرر وجود المجتمع الإسلامي، وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع والوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمة، واعتباراته وانفصل بوجوده وكنيونته عن المجتمع الجاهلي الذي أخذ أفراده، وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع وأعطته وزنه ومكانه في المجتمع وحسب الميزان والاعتبار الإسلامي، ويكون وزنه هذا معترفا به من المجتمع دون ان يزكي نفسه أو يعلن عنه بل ان عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليواري نفسه عن الأنظار المتطلعة اليه في البيئة، ولكن الحركة التي هي طابع العقيدة الإسلامية وطابع هذا المجتمع لابد ان يتحرك، الحركة في عقيدته، والحركة في دمه، والحركة في مجتمعه، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي لان الجاهلية من حوله وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله والمعركة مستمرة والجهاد ماضي إلى يوم القيامة.

علي ايقاعات الحركة وفي أثناء الحركة يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع، وتتحدد وظيفته، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة أفراده ومجموعة وظائفه. هذه النشأة وهذا التكوين خاصيتان المجتمع الإسلامي تميزاته تميزا في نظامه والاجراءات التفيذية لهذا النظام ايضا، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة لا تعالج

بمفهومات اجتماعية أجنبية، ولاتدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ولا تنفذ بأجراءات مستمدة من نظام اخر...

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة لأنها مقومات هذه الحضارة: (العبودية لله وحده، والتجمع على اصره العقيدة فيه، واستعلاء انسانية الانسان على المادة، وسيادة القيم الانسانية التي تنمي انسانية الانسان لاحيوانيته، وحرمة الاسرة والخلافة في الارض على عهد الله وشرطه، وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شئون هذه الخلافة.

3) علامات الساعة:

بعد عرض حقيقة ارتباط الخلق بالأسماء والصفات من خلال المجال الكوني انتهى موضوع الكتاب إلى المجال البشري، وتبين من مناقشة هذا المجال التفسير الإسلامي السلفي للتاريخ والحضارة، ولكن النهاية الطبيعية للتاريخ هي علامات الساعة، ثم قيامها لذا متدت حقائق ارتباط الخلق بالأسماء والصفات إلى تفسير هذا المجال فكان لابد من مناقشة تلك الحقائق من خلال علامات الساعة حتى قيامها، وتحديد التصور القدري لمرحلة النهاية المقدرة للوجود البشري.

وبادئ ذي بدء فإن الساعة بذاتها مجال له أهمية بالغة في اظهار كمال الأسماء والصفات ولذا يقول ابن القيم: جعل الله سبحانه وتعالى الدور ثلاثة: دار أخلصها للنعيم واللذة والبهجة والسرور، ودار أخلصها للألم والنصب وأنواع البلاء والشرور، ودار خلط خيرها بشرها ومزج نعيمها بشقائها ومزج لذاتها بألمها يلتقيان ويطالبان، وجعل عمارة تينك الدارين من هذه الدار، وأجرى احكامه على خلقه في الدور الثلاثة بمقتضي ربويته والهيته وعزته وحكمته وعدله ورحمته فلو اسكنهم كلهم دار البقاء من حين أوجدهم لتعطلت أحكام هذه الصفات و لم يترتب عليها أثارها.

ويقول في موضع ثان: إن يوم الميعاد الأكبر يوم مظهر الأسماء والصفات وأحكامها ولهذا يقول سبحانه: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)، وقال: (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ)، وقال: (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ). حتى ان الله سبحانه ليتعرف إلى عباده في ذلك اليوم بأسماء وصفات لم يعرفوها في هذه الدار، فهو يوم ظهور المملكة العظمي والاسماء الحسنى والصفات العلي فتأمل ما أخبر به الله ورسوله من شأن ذلك اليوم وأحكامه وظهور عزته وعدله وفضله ورحمته وأثار صفاته المقدسة التي لو خلقوا في دار البقاء لتعطلت وكمال سبحانه ينفي ذلك وهذا دليل مستقل لمن عرف الله

تعالى وأسماءه وصفاته على وقوع المعاد وصدق الرسل فيما أخبروا به عن الله، فيتطابق دليل العقل ودليل السمع على وقوعه،

ويقول في موضوع ثالث: ان الله سبحانه يجب ان يعبد بأنواع التعبدات كلها، ولايليق ذلك الا بعظمته وجلاله، ولايحسن ولا ينبغي، إلا له وحده ومن المعلوم من أن انواع التعبد الحاصلة في دار البلاء والامتحان لايكون في دار المجازاة وان كان في هذا الدار بعض المجازاة، وكمالها وتمامها، انما في تلك الدار وليست دار عمل وانما هي جزاء ثواب وعقاب أوجب كماله المقدس أن يجزي فيه: (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى).

فلم يكن بد من دار تقع فيها الأساءة والأحسان، ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات، ثم يعقبها دار يجازي فيها المحسن والمسيئ، ويجري على أهلها أحكام الأسماء والصفات، فتعطيل أسمائه وصفاته ممتنع ومستحيل، وهو تعطيل لربوبيته والهيته وملكه وعزته وحكمته، فمن فتح له باب من الفقه في احكام الأسماء والصفات، وعلم اختصاصها لاثارها ومتعلقاها واستحالة تعطيلها، علم ان الامر كما اخبرت به الرسل، وأنه لا يجوز عليه سبحانه، ولاينبغي لغيره وان يتره عن خلاف ذلك كما يتره عن سائر العيوب والنقائص. وهذا باب عزيز من أبواب الأيمان فيفتحه الله على من يشاء من عباده ويحرمه من يشاء.

الدلالات الثابتة لعلامات الساعة:

ولما كانت الساعة مقدمة قدرية للساعة فان مناقشتها من خلال دلالاتها الثابتة فيه التحقيق التام لأظهار إثار الأسماء والصفات.

والدلالات الثابتة هي الخطوط التي تربط بين العلامات وبين الساعة كمقدمة قدرية لها؛

1) حيث يكون التسبيح والتهليل والتكبير هي صيغة الأخذ بالأسباب في كل شيء:

ودليل ذلك حديث فتح القسطنطينية، اذ يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون الفا من بني أسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، و لم يرموا بسهم قالوا: لا اله الا الله والله اكبر فيسقط احد جانبيها – قال ثور: ولا أعلمه

إلا قال الذي في البحر – ثم يقول الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيفرح لهم فيدخلونها فينغنمون، فبينما يقتسمون الغنائم إذا جاءهم الصريخ فقال: إن الدجال خرج فيتركون كل شيىء ويرجعون)[107].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم في فترة ما قبل الدجال حديثا أخر وهو: (إن ما قبل الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثانية فتحبس تلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء؛ فلا تبقي ذات ظلف إلا أهلكت إلا ما شاء الله. قيل فما يعيش الناس في ذلك الزمان قال: التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ويجري ذلك عليهم مجرى الطعام)[108].

وفي حديث الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر جهدا بين يدي الدجال فقال: أي المال خير يومئذ؟ قال: (التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل)[109].

2) الإتجاه نحو الكمال في الإظهار الكوني:

وهو التحول من الغيب إلى الشهادة... وهو من الدلالات الثابتة في علامات الساعة إذ يستمر هذا الإتجاه ليكون تمامه يوم القيامة والإظهار الكوني تبدأ درحاته بعلامة صدق الرؤي حيث (لا تكاد رؤية المؤمن تخطىء في اخر الزمان)، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم وحيث تتحدث الأشياء وتخبر أصحابها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يخرج الرجل من أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أحدث أهله بعده) رواه أحمد[110]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم

---

[107] مسلم في الفتن (2920) من حديث ابي هريرة وأوله: صلى الله عليه وسلم قال: (سمعتم بمدينة جانب منها البر، جانب في البحر، قالوا نعم يا رسول الله قال: لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفا...0)، 0

[108] أحمد في مسنده (453) 6/454) من حديث أسماء بنت يزيد وفيه شهر وهو حسن 0

[109] أخرجه أحمد (6/125) من طريق على بن زيد عن الحسن عن عائشة ونحوه عند الطبراني (158 – 24/159) عن أسماء بنت يزيد وفيه شهر وفيه كلام لا يضر 0

[110] أخرجه أحمد (3/89/88) من طريق عبد الله بن أبي حسين عن شهر عن أبي سعيد الخدري 0

السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده) رواه أحمد.[111]

ثم تأتي أكبر مراحل الإظهار الكوني وهي الدابة التي تظهر المؤمنين والكافرين وتفرق بينهم.

ويدل على ذلك ما أخرجه داود الطيالسي في مسنده (ص 334)، وأحمد في مسنده (491/295/2)، والترمذي في سننه (63/12)، وحسنه ابن ماجه في سننه (1351/2)، واللفظ له: عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (تخرج الدابة ومعها عصاة موسى بن عمران وخاتم سليمان بن داود عليهما السلام فتجلو وجه المؤمن أى تنوره وتبيضه بالعصا، وتخطم أنف الكافر أى تسمه وتجعل عليه بالخاتم حتى أن أهل الحواء أى أهل الحي يجمعهم ماء يستقون منه ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر)[112].

قال الألوسي: وهذا الخبر أقرب الأخبار المذكورة في الدابة للقبول، وفي هذا النص تري كيف أن العصا، وقد كانت أداة الفرقان والفلق فإنها ستكون كذلك مع الدابة حيث تكون فرقانا بين المؤمن والكافر بأن تجلو وجه المؤمن بالعصا ونرى كيف أن خاتم سليمان وقد كان أداة التحكم وإخضاع الجن والأنس فإنها ستكون كذلك مع الدابة حيث يخضع لها الكافر حتى تخطم أنفه فلا يستطيع الفرار منها.

وقال الإمام القرطبي في تذكرته في مختصر التذكرة للشعراني[113]: قال بعض العلماء قد جاء في الروايات إذا خرج يأجوج ومأجوج وقتلهم الله بالنغف في أعناقهم وقبض الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام، وخلت الأرض منهم، وتطاولت الأيام على الناس، وذهب معظم دين الإسلام؛ أخذ الناس في الرجوع إلى عادتهم واحدثوا الأحداث من الكفر والفسوق كما أحدثوه بعد كل قائم نصبه الله تعالى بينه وبينهم حجة عليهم، ثم قبضة الله تعالى، أخرج لهم الدابة من الأرض فتميز المؤمن من الكفار ليرتدع بذلك الكفار عن كفرهم والفساق عن فسقهم، وليستبصروا، ويرجعوا عما فيه من الفسوق والعصيان، ثم تغيب الدابة عنهم، ويمهلون فإذا أصروا على طغيانهم طلعت الشمس من مغربها، و لم يقبل

---

[111] أخرجه أحمد (3/89/88)، والترمذي (6/409)، وصححه، والحاكم (4/467)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي كلهم من طريق سعيد الخدري رضي الله عنه وهو حديث صحيح 0

[112] صححه الشيخ شاكر في شرح المسند

[113] ص 141

بعد ذلك من كافر ولا فاسق توبة، وأزيل الخطاب والتكليف عنهم، ثم كان قيام الساعة على أثر قريبا لأن الله تعالى يقول: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ). فإذا قطع عنهم التعبد لم يقرهم بعد ذلك في الأرض زمنا طويلاً.

مثال للإظهار الكوني – الدجال – ابن صياد:

وعند الكلام في مفهوم الإظهار تبينت لنا حقائقه وكان أهم هذه الحقائق هو التمثيل الكوني للحقائق الاعتقادية الغيبية. سواء كانت ظواهر مثل عودة الأسماك إلى أصلها. أو أوضاع مثل وضع سور بيت المقدس وتمثيله للسور الذي سيكون بين الجنة والنار.

وبتطبيق مفهوم الإظهار على علامات الساعة. نفاجيء بحقيقة خطيرة للغاية وهو أن هناك مثال كوني للدجال كحقيقة غيبية.

وهذا المثل هو الذي يحسم المشكلة الخلافية الخاصة بالعلاقة بين الدجال وابن صياد وأصل المشكلة أن هناك أحاديث صحيحة تؤكد أن ابن صياد هو بنفسه الدجال وأحاديث صحيحة تبين أنه ليس الدجال.

ومثال الأحاديث التي تؤكد أنه هو الدجال:

عن محمد بن المنكدر قال رأيت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يحلف بالله: أن ابن صياد الدجال قال: قلت: أتحلف بالله؟ قال: فإني سمعت عمر يحلف بالله على ذلك عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ينكره النبي صلى الله عليه وسلم.

عن نافع مولي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول: (والله ما أشك أن المسيح الدجال ابن صياد).

عن نافع ابن عمر: (لقيته مرتين – أي ابن الصياد – فلقيته مع قومه فقلت لبعضهم، هل تحدثون، إنه هو؟ قال: لا والله، قال: قلت: كذبتني والله لقد أخبرني بعضكم أنه لن يموتن حتى يكون أكثركم مالا وولدا فكذلك هو زعموا اليوم قال: فتحدثنا ثم فارقته قال: فلقيته أخرى وقد نفرت عينه قال: فقلت متي فعلت عينك ما أري؟ قال: لا أدري. قلت: لا تدري وهي في رأسك قال: ان شاء الله خلقها في عصاك هذه قال – والقول لعبد الله بن عمر –: فنخر كأشد نخير حمار سمعت، قال: فزعم بعض أصحابي أن

ضربته بعصا كانت معي حتى تكسرت، وأما أنا فوالله ما شعرت، قال: وجاء حتى دخل على أم المؤمنين فحدثنا، فقالت: ما تريد إليه؟ ألم تعلم انه قد قال؛ إن أول ما يبعثه على الناس غضب يغضبه).

أما الأحاديث التي تنفي كون ابن صياد هو الدجال فأهمها حديث تميم الدراي الذي رأي الدجال موثوق في أحد الجزر.

وكما اختلفت الاحاديث الصحيحة كذلك كان رأي العلماء.

قال الخطابي: قد اختلفت الناس في أمر ابن الصياد اختلافا شديدا وأشكل أمره حتى قيل كل قول.

ثم قال: والذي عندي أن هذه القصة إنما جرت معه أيام مهادنته صلى الله عليه وسلم اليهود وحلفاءهم، وذلك أنه بعد ان قدم المدينة كتب بينه وبين اليهود كتابا صالحهم فيه على الا يهاجروا، وان يتركوا على أمرهم وكان ابن الصياد منهم أو دخيلا فيهم.

وحاصل كلام الخطابي أنه لايري أن ابن صياد هو الدجال بل هو من الكهنة او السحره له شيطان يخبره ببعض الغيب فيخطئ ويصيب كما جاء في شأن الكهان والله أعلم.

رأي القرطبي:

قال الحافظ ابن حجر: وقال القرطبي: كان ابن صياد على طريقة الكهنة يخبر بالخبر فيصح تارة ويفسد أخرى، فشاع ذلك ولم يترل فيه وحي فأراد النبي صلى الله عليه الصلاة والسلام سلوك طريقة يختبر حاله بها. وقد روي الإمام أحمد عن حديث جابر قال: ولدت أمرأة من اليهود غلاما ممسوحة عينه، والأخرى طالعة ناتئة فأشفق النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون هو الدجال.

وللترمذي عن أبي بكر مرفوعا قال: (يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثين عاما ثم يولد لهما غلاما أعور أضر بشئ، وأقله منفعة، تنام عيناه ولا ينام قلبه. ثم نعت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه).

ولأحمد والبزار قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمه فقال سلها كم حملت به؟ قالت به اثني عشر فلما وقع صاح صياح الصبي ابن شهر) انتهي كلام القرطبي.

رأي البيهقي:

قال الحافظ ابن حجر واجاب البيهقي عن قصة ابن صياد بعد أن ذكر ما أخرجه أبو داود من حديث بكرة قال صلى الله عليه وسلم: (يمكث أبو الدجال وأمه ثلاثون عاما يولد لهما ثم يولد غلاما أعورا).

وبذلك تكون الصفة التي في ابن صياد وافقت ما في الجال وكأن الذين يجزمون ان ابن صياد هو الدجال لم يسمعوا قصة تميم الداري وإلا فالجمع بينهما بعيد جدا إذ كيف يلتئم أن يكون من في أثناء الحياة النبوية شبة المحتلم ويجتمع به النبي صلى الله عليه وسلم ويسأله... أن يكون في آخرها شيخا كبيرا مسجونا في جزيرة من جزائر البحر موثقا بالحديد يستفهم عن خبر النبي صلى الله عليه وسلم هل خرج أم لا؟

رأي الإمام النووي:

وقال الإمام النووي في باب ذكر ابن صياد: وقصته مشكلة وأمره مشتبه في أنه الدجال المشهور أم غيره.

قال النووي: وظاهرة الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوحي إليه أنه الدجال أو غيره وإنما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن صياد قرائن محتملة فلذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يقطع أنه الدجال أو غيره ولهذا قال لعمر رضي الله عنه: (إن يكن هو فلن تستطيع قتله).

ثم قال رحمة الله تعالى: وأما احتجاجه هو – أي الدجال بأنه مسلم والدجال كافر وأنه لا يولد له وقد ولد له هو وأنه لا يدخل مكة والمدينة وأن ابن صياد دخل المدينة وهو يتوجه إلى مكة فلا دلالة له فيها. لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما أخبر عن صفاته وقت فتنته وخروجه من الأرض.

وأما إظهار الإسلام وحجه وجهاده واقلاعه عما كان عليه فليس بصريح في أنه غير الدجال...

رأي ابن حجر:

قال الحافظ وأقرب ما يجمع به بين ما تضنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال، أن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم مؤثقا.

ثم قال الحافظ ابن حجر.

وابن الصياد شيطان تبدي في صورة الدجال في تلك المدة إلى أن توجه إلى أصبهان فاستتر مع قرينة إلى أن تجيء المدة التي قدر الله تعالى خروجه فيها ثم ذكر الحافظ ابن حجر ما أخرجه أبو داود عن جابر وفيه أن جابرا شهد انه ابن صياد فقلت: إنه قد مات. قال: وإن مات، قلت: فإنه أسلم. قال: وإن أسلم، قلت: فإنه دخل المدينة، قال: وإن دخل المدينة.

قال ابن حجر.

في كلام جابر إشارة إلى أن أمره ملتبس وأنه يجوز ما ظهر من أمره لا ينافي ما توقع منه في خروجه آخر الزمان.

ثم قال ابن حجر وقد أخرج أحمد من حديث أبي ذر: لأن أحلف عشر مرات أن ابن صياد هو الدجال أحب إلى أن أحلف مرة واحدة أنه ليس هو.

قال ابن حجر: وسنده صحيح.

وفي كلام الحافظ ابن حجر دلالة واضحة على ميله للأخذ برأي عمر بن الخطاب.

رأي أبو نعيم الأصبهاني:

قال الحافظ ابن حجر: أخرج أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان ما يؤيد كون ابن صياد هو الدجال.

فساق من طريق شبيل عن حسان بن عبد الرحمن عن أبيه قال: لما افتتحنا أصبهان كان بين عسكرنا وبين اليهودية فرسخ يعني أربعة أميال فكنا نأتيها - أي القرية اليهودية - فنمتار منها - أي نشتري منها - مانحتاج اليه فأتينها يوما فإذا اليهود يزفون ويضربون - يعني يرقصون - ويضربون بالدفوف. فسألت صديقا لي مهم فقال لي هذا ملكنا الذي نستفتح به على العرب يدخل فبت عنده على سطح فصليت الغداة - أي الفجر - فلما

طلعت الشمس إذ الرهج من قبل العسكر فنظرت فإذا رجل عليه قبة من ريحان واليهود يزفون ويضربون فنظرت فإذا هو ابن صياد.

ومن مجموع الأحاديث الصحيحة المؤكدة لكون ابن الصياد هو الدجال، والاحاديث الصحيحة الناقية لكون ابن صياد هو الدجال، ومن مجموع أقوال الصحابة المؤكدة والنافية، ومن أقوال مجموع أقوال علماء الأمة المؤكدة والنافية؛ يلزم الجمع بمثل ما قال الإمام النووي.

وظاهر الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يوح إليه بأنه الدجال ولا غيره وإنما أوحي إليه بصفات الدجال وكان في ابن الصياد قرائن محتملة.

وبذلك يكون القول الفصل في المسألة ما قاله الحافظ ابن حجر: وأقرب مايجمع به بين ما تضمنه حديث تميم وكون ابن صياد هو الدجال وأن الدجال بعينه هو الذي شاهده تميم موثقا.

وابن صياد شيطان تبدي في صورة الدجال في تلك المدة إلى ان توجه إلى أصبهان.

وبذلك يتحقق التفسير الصحيح في مسألة؛ وهو أن ابن صياد ليس الدجال بعينه ولكن ابن صياد صورة كونية للدجال – باعتباره حقيقة غيبية –

وبذلك تضاف مسألة ابن صياد والدجال إلى المسألة سور بيت المقدس إلى بقية الأمثلة التي ذكرت في تأكيد مفهوم الاظهار ومعناه.

3) الاتجاه نحو الكبر:

ودلالة الكبر هي اتجاه العلامات نحو الكبر حتى تكون الساعة هي تمام هذا الاتجاه، ومايؤكد تلك الصفة هو تقسيم العلامات بصفة عامة إلى صغري وكبري، وأما من حيث التفصيل فإن الفتن كعلامة من علامات الساعة تكبر كلما مر الزمان، وهي الحقيقة التي عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم. فتن يرقق بعضهما بعضا[114] والزلازل علامة من علامات الساعة.

[114] مسلم في الامارة (1844) من حديث عبدالله بن عمرو وهو عند ابن ماجة وأبي داود النسائي.

كما رواه الإمام أحمد: (بين يدي الساعة سنوات زلازل)[115]. وفي حديث أبي هريرة في البخاري: (وتكثر الزلازل[116] حتى تأتي الساعة تزلزل زلزالها الأكبر[117]).

وكذلك يكون انتشار الصواعق حتى يكون الصعق الأكبر، والدجالون وظهورهم كعلامة من علامات الساعة يكونون ثلاثين مقدمة بين يدي المسيح والدجال وهو أكبرهم.

كما قال ابن كثير عند ذكر الدجال: ولنذكر قبل ذلك مقدمة فيها ورد في ذكر الكذابين الدجالين الذين هم كالمقدمة بين يديه، ويكون المسيح الدجال أخرهم قبحه الله وإياهم وجعل نار الجحيم مستقرهم ومثواهم.

4) الخير والشر:

وكما أوضحنا في التفسير الإسلامي للتاريخ أن الحركة التاريخية دائرة تقابل بين الخير والشر ثم أتجاه نحو الشر فإن هذا المفهوم يمتد إلى الاخر الزمان مما يعني أنه ينطبق على علامات الساعة، وهنا نبدأ في تطبيق هذا التفسير على تلك العلامات.

ونبدأ بحديث حذيفة بن اليمان قال: (كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال نعم وفيه دخن قلت؟ وما دخنه؟ قال: يا رسول الله صفهم لنا: قال: هم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا قلت: فلما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. قلت: فان لم يكن لهم جماعة ولا امام؟ قال: فأعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) رواه البخاري في كتاب الفتن[118].

فنري في الحديث كيف أن الجاهلية، وهي شر مطلق، قابلها ظهور الإسلام، وهوالخير المطلق ثم كان الشر بالإطلاق، ثم كان الخير وبه دخن وليس بإطلاق. فتضمن

---

[115] أحمد في المسند (4/104) من طريق ضمرة بن حبيب عن سلمة بن نفيل.

[116] البخاري في الاستسقاء (2/521) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

[117] وهذا معنى قول الله (إذا زلزلت الأرض زلزالها) أي زلزالها الأكبر.

[118] البخاري في الفتن (12/135)، وفي الانبياء علامات النبوة ومسلم رقم (1847) في لإمارة. وغيرها من حديث ابي أدريس الخولاني عن حذيفة رضي الله عنه.

هذا الترتيب مفهوم التوازن من خلال حقيقة التقابل، ومن خلال حقيقة اتجاه التاريخ البشري إلى قيام الساعة نحو الشر المطلق. ونلحظ ذلك من أن المرحلة الأخيرة من الخير لم تأت مقابلة تماما لمرحلة الشر قبلها ولا لمرحلة الشر التي بعدها؛ فكانت مرحلة الخير الذي به دخن بين مرحلتين للشر المطلق.

أما الدليل المباشر نحو اتجاه التاريخ البشري نحو الشر المطلق فهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)[119]، حتى يكون الناس الذين تقوم عليهم الساعة هم شر الناس؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: (إن شر الناس الذين تقوم عليه الساعة والذين يتخذون القبور مساجد)[120]، كما بين النبي صلى الله عليه وسلم اتجاه الأيام بهذا الاتجاه فيقول: (ما يوم إلا الذي بعده أشر منه)[121].

وفي إطار حقيقة التقابل بين الخير والشر والإتجاه نحو الشر المطلق تأتي كل علامات الساعة؛ حيث تبدأ العلامات الصغري، وهي كثرة الفتن ورفع العلم ونزول الجهل والجور، وهي مرحلة الشر المطلق، والتي يقابلها مرحلة ظهور المهدي المنتظر، وهي مرحلة الخير المقابلة لمرحلة الشر كما قال صلى الله عليه وسلم في المهدي: (يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جور)، ثم نزول عيسى: (حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الختزير وهي إمتداد لمرحلة الخير التي بدأت بالمهدي ثم يكون يأجوج ومأجوج في وقت نزول عيسى عليه السلام ينتهي شرهم)، فتتميز مرحلة الخير ببقاء عيسى عليه السلام حتى يموت لتكون مرحلة الشر الذي لا خير بعده وفيها تقوم الساعة.

وبعد هذه النظرة السريعة لقدر الخير والشر نعالج الموضوع من خلال التركيز على أهم محاور الخير والشر بصورة تفصيلية.

وأخطر محاور الخير والشر في علامات الساعة هو مقام النبوة كمحور للخير والدجال كمحور للشر، وهذان المحوران يجمعان كل عناصر الخير والشر القدري في مجموع علامات الساعة، ونبدأ بالدجال وحديث الجساسة.

---

[119] البخاري في الشهادات (5/259)، وغيره ومسلم (2533) في فضائل الصحابة من حديث ابن مسعود ولفظ البخاري: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته) 0

[120] أخرج مسلم أوله رقم (2949) في الفتن من حديث ابن مسعود بلفظ: (لا تقوم الساعة إلا على أشرار الناس) 0

[121] البخاري في الفتن (19 - 13/20) - والترمذي أيضا - من حديث أنس بلفظ (لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم) 0

قالت فاطمة بنت قيس: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى للصلاة، خرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم جلس على المنبر وهو يضحك فقال: ليلزم كل إنسان مصلاه، ثم قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة؛ ولكن جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين من لخم وجزام، فلعب بهم الموج شهرا في البحر ثم ارفئو إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة: قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانه. قال: فانطلقا سراعا حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا وأشد وثاقا مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني، وما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم فلعب بنا الموج شهرا ثم أرفانا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلب كثير الشعر لا يدري ما قبله من دبره من كثرة الشعر فقلنا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة. قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعدوا إلى هذا الرجل في الدير فأنه إلى خبركم بالأشواق؛ فأقبلنا إليك سراعا وفرعنا منها ولم نأمن من أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان. قلنا: أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أما أنه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية قلنا: أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغرا؟ قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قالوا نعم. قال: كيف صنع بهم فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني إني أنا المسيح الدجال، وأني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا داع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة فهما محرمتان على كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو أحدا منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وطعن بمخصرته في المنبر -: هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة يعني المدينة ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم قال: فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه في بحر

الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق وأوما بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم)[122].

وقبل تفسير علامة الدجال نبدأ بحقيقة عارضة جديرة بالذكر وهي أنه لما كان تميم الداري سببا في تصديق إخبار النبي صلى الله عليه وسلم في الدجال، فقد جازاه النبي صلى الله عليه وسلم جزاء فيه مزيد من التصديق لإخبار النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أقطعه وكتب له الأرض التي سيدرك عليها عيسى ابن مريم الدجال ويقتله فيها إذ بباب اللد ورد في حديث (يقتل ابن مريم الدجال بباب اللد)[123]. رواه الترمذي وقال: حديث صحيح ورواه أحمد (مسنده) بأربعة طرق، وفي بعض طرقة إلى جانب (باب اللد)، وباب اللد؛ بلدة في فلسطين قريبة من بيت المقدس وهو مكان بجانب المغارة التي ورد ذكرها في حديث آخر من أحاديث قتل الدجال، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (يدركه عند المغارة).

أي يدرك عيسى الدجال عند المغارة وقد ورد في كتاب (ضوء الساري في خبر تميم الداري) ما نصه: وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم لتميم الداري القريتين الكائنتين بجانب المغارة وهي الأرض التي بها بلد سيدنا الخليل عليه الصلاة والسلام وما حولها من الأرض وكتب له ذلك في قطعة أديم من خف أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه. وقد ذكر الماوردي هذا العطاء في كتاب الأحكام السلطانية والولايات الدينية[124] فقال: إلا ما كان من شأن تميم الداري وابن ثعلبة الخشني، فيحتمل أن يكون إقطاعها تقليد لا إقطاع تمليك ويجوز أن يكون خصوصين بذلك لتعلقة بتصديق خبر أو تحقيق إعجاز.

والدجال هو أكبر فتنه تقع على الأرض فهو الذي يمثل كل جوانب الشر في علاقة التدافع مع الإسلام في إطار علامات الساعة.

ويؤكد النبي صلى الله عليه وسلم مفهوم الدفع في علامة الدجال إذ يقول: (تغرون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله)، ويقول في حديث أخر: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين

---

[122] مسلم في الفتن (78 - 17/79) شرح النووي 0

[123] الترمذي في الفتن (2244) من حديث مجمع بن جارية قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وهو كما قال 0

[124] ص 192/191

على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال)[125]، وهذا في التفسير قول الله عز وجل: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا).

إذ جاء تفسيرها عن مجاهد: حتى يترل عيسى ابن مريم وبعد قتال الدجال وانتهاء حقيقة التدافع تقع الأمنة على الأرض: (يضع عيسى ابن مريم الحرب)، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في رواية: (ولتذهبن الشحناء والتحاسد وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهن)[126]. ولعلنا نلاحظ من الأمثلة الواردة في الحديث أنها تعني انتهاء العداء الطبيعي الموجود بين جميع الخلائق.

وقد اتفقنا في التفسير الإسلامي للتاريخ أن محاور التدافع البشري الدائر بين الخير والشر هي: العرق، والمال، والدين؛ وأن هذه المحاور الثلاثة هي من صنع الشيطان باعتباره الناقض لأمر الله، وأن الشيطان هو الطرف الأصلي للدفع؛ ومن هنا سيتمثل في الدجال كل محاور التدافع بين الخير والشر.

أما محور العرق فقد تضمنه الحديث السابق حيث ورد الدجال كعرق مستقل مع العرب والفرس والروم، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (تغزون جزيرة العرب، تغزون فارس، تغزون الروم، تغزون الدجال...)[127].

هذا وقد ورد في حديث أخر ذكر الدجال كعرق مقابل للعرب وهو حديث أم شريك عن أبي امامة الباهلي رضي الله عنه: (خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته مامة الباهلي رضي الله عنه: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان أكثر خطبته حديثا حدثنا عن الدجال وحذرناه فكان من قوله: إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية ادم أعظم من فتنة الدجال. فقالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: العرب يومئذ قليل، وجلهم ببيت المقدس، وإمامهم رجل صالح)[128].

ومن أدلة التقال العرقي والدجال هو سؤال الدجال، عن العرب وحديثهم تميم الداري الذي روته فاطمة بنت قيس: (ماذا فعلت العرب أخرج نبيهم بعد؟ قالوا نعم.

---

[125] سبق تخريجه
[126] ابن ماجه (4077) نحوه وهو قطعة من حديث طويل يرويه أبو أمامة
[127] مسلم في الفتن رقم (2900) من حديث نافع بن عتبة، وهو عند أحمد (1/178)، وغيره.
[128] أخرجه بن ماجه رقم (4077) من حديث أبي أمامة وهو عند أبي داود وأصله في مسلم وسبق قريبا، وسكت عليه الحافظ في الفتح (6/493).

قال: مافعلوه به: قالوا خيرا امنوا وصدقوه. قال: ذلك خيرا لهم فكان له عدو فأظهره الله عليهم. قال: فالعرب اليوم الههم ونبيهم واحد وكلمتهم واحدة. قالوا: نعم وسبب سؤال الدجال بقوله: اليوم الههم ونبيهم واحد وكلمتهم واحدة، هو أن الدجال يعلم أن زمن خروجه هو زمن فرقة واختلاف كما قال عليه الصلاة والسلام: إن الأعور الدجال مسيح الضلالة يخرج من قبل المشرق في زمان اختلاف من الناس وفرقة)[129].

وأما الدليل الأخير فهو من أهم الادلة، وهو ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث سمعتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: هم من أشد من أمتي الدجال وجاءت صدقاتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذه صدقات قومي وكانت سببه منهم عند عائشة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أعتقيها فإنها من ولد إسماعيل)[130]، إذ دل هذا الحديث أن الشدة على الدجال تكون بمقدار اقتراب النسب من إسماعيل عليه السلام مما يدل على التقابل الكامل بين العرب والدجال.

هذا هو محور العرق يتبعه في الدجال...

محور الدين:

فإن الدجال يكون يهوديا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه يهودي وانه لايولد له ولد وانه لايدخل المدينة ولا مكة) رواه مسلم[131]، ويكون أكثر أتباعه اليهود.

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: العرب يومئذ قليل، جلهم بيت المقدس، وامامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح فرجع ذلك الأمام ينكص يمشي القهقري ليقدم عيسى يصلي فيضع عيسى عليه السلام يده بين كتفيه ثم يقول له تقدم فصل فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم، فاذا انصرف قال عيسى عليه السلام: افتحوا الباب فيفتح ووراءه الدجال ومعه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلي وساج فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء

[129] أخرجه ابن ماجة رقم (4072) من حديث أبي بكر مرفوعا ولفظه: إن الدجال يخرج من أرض بالمشرق... والحاكم (4/528) عن أبي هريرة وأبي بكر، ونحوه في المسند (3/367) من حديث أبي الزبير عن جابر وكذا في المستدرك (4/530)، وصححه ووافقه الذهبي على شرط مسلم

[130] متفق عليه، البخاري في العتق (5/170)، ومسلم في الفضائل رقم(2525) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[131] أخرجه مسلم في الفتن رقم (2927) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه 0

وينطلق هاربا، ويقول عيسى: اني لي فيك ضربة لن تسبقني بها فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله فيهزم الله اليهود فلا يبقي شي مما خلق الله لن يتواري به يهودي الا انطق الله ذلك الشئ، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة، الا الغرقد فإنها من شجرهم لاتنطق، الا قال: ياعبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله[132] ويتبعه من نساء اليهود ثلاثة عشر ألف أمرأة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[133] في حديث: أكثر أتباعه اليهود والنساء[134] واليهود هم فتنة.

الناس ونساؤهم فتنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا فتنة النساء، فإن أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء[135].

وامتداد لارتباط الدجال باليهود ارتبط بأرضهم فكان ظهوره في مدينتهم المسماة (يهودية اصبهان)، ودليل هذا قول عائشة رضي الله عنها: (دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا أبكي فقال: وما يبكيك؟ قلت: يا رسول الله ذكرت الدجال فبكيت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن يخرج وانا حي كفيتكموه وان يخرج الدجال بعدي فإن ربكم عز وجل ليس بأعور انه يخرج في يهودية أصبهان)[136]، رواه أحمد في مسند ابن أبي شبيه ورجاله كلهم ثقات، يهودية أصبهان اسم بلدة في ايران.

قال العلامة ياقوت الحموي في معجم البلدان[137]: قال عبد البر: لما أخرج اليهود من البيت المقدس في أيام التيه، وسيقوا إلى العراق حملوا من الارض المقدسة ومن مائها فكانوا لايترلون مترلا، ولايدخلون مدينة الا وزنوا ماءها وترابها فما زالو كذلك حتى دخلوا اصبهان فترلوا بموضع منها له نيار وهي كلمة عبرية معناها انزلوا فترلوا ووزنوا الماء

[132] جزء من حديث ابن ماجه (4077) الذي يرويه أبو أمامة وسبق قريبا

[133] قطعة من حديث طويل يرويه حذيفة بن اليمان أخرجه نعيم بن حماد في الفتن وسنده ضعيف من أجل سويد بن عبد العزيز المتروك راجع كتر العمال رقم (39687) 0

[134] قطعة من حديث ضعيف أخرجه ابن المنادي وفيه حماد بن عمرو متروك وآخر لا يعرف من حديث على موقوفا عليه الكتر (39709). بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أحمد يخرج إليه (أي الدجال) النساء حتى أن الرجل ليرجع إلى زوجته وإلي أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها ربطا مخافة أن تخرج إليه

[135] مسلم في الذكر والدعاء (2742) عن أبي سعيد.

[136] وفي مسلم (2944) من حديث أنس مرفوعا: يتبع الدجال من يهود اصبهان سبعون ألفا، عليهم الطيالسة، وهذا الحديث أخرجه أحمد في مسنده من حديث (6/75)، قال في مجمع الزوائد (7/338): رواه أحمد ورجاله ورجال الصحيح غير الخضرمي بن لاحق وهو ثقة.

[137] 531/8

والتراب الذي في ذلك الموضع فكان مثل الذي معهم من تراب الأرض المقدسة ومائها فعنده أطمأنوا، وأخذوا في العمارات والابنية، وتوالدوا، وتناسلوا، وسمي المكان بعد ذلك اليهودية وهكذا كان ارتباط اليهود بالأرض قدرا هو الأرض المقدسة ثم كتب الله عليهم التيه وحرم عليهم الأرض المقدسة فارتبط وجودهم في الأرض بمكان خروج الدجال.

أما محور المال:

فليس أدل عليه في الدجال من قول النبي صلى الله عليه وسلم: وتتبعه كنوز الذهب كيعاسيب النحل، وقول النبي صلى الله عليه وسلم أن من فتنة أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح عليهم مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت عليه وأعظمه وأمده خواصر وأدره ضروعا إلى غير ذلك من الأحاديث.

وبعد إثبات ارتباط جميع العناصر الشر بالدجال من خلال المحاور الثلاثة والعرق الدين والمال نواصل إثبات ارتباط عناصر الشر بالدجال بصفة عامة.

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم بين الدجال وهروج الفرق الضالة فيؤكد ان الدجال امتداد للخوارج فيقول عليه الصلاة والسلام: (سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرؤن القران لا يجاوز حناجرهم كما خرج منهم قرن قلع حتى يخرج الدجال في بقيتهم) رواه أبو داود.

كما يؤكد أن الدجال امتداد للقدرية فيروي الطبراني عن رافع بن خديجة عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذمة القدرية وأنهم زنادقة هذه الأمة وفي زمانهم يكون ظلم السلطان وحيفة وكبره ثم يبعث الله طاعونا فتفني عامتهم ثم يكون الخسف فما أقل من ينجو منهم المؤمن يؤمئذ قليل فرحة شديد غمه، ثم يكون المسيح فيمسح الله عامتهم قردة وخنازير، ثم يخرج الدجال على أثره قريبا. ثم بكي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بكينا لبكائه وقلنا: ما يبكيك قال: رحمة لاولئك القوم الأشقياء لأن فيهم المتعبد وفيهم المجتهد[138].

[138] أخرجه الطبراني في الكبير (4/246/245) متن حديث سعيد بن المسيب عن رافع بن خديجة بأسانيد أحدها حسن قال الهيثمي في مجمع الزوائد (1987): رواه الطبرانبي بأسانيد في أحسنها ابن لهيعة وهو لين الحديث: قلت وهو من رواية أحمد العبادلة عنه وحديثهم عنه صحيح لأنهم سمعوا منه قبل اختلاطه وتغيره.

ولعل من الربط بين الفرق والدجال انكار هذه الفروق لخروج الدجال.

كما قال ابن كثير: قد أنكرت طوائف كثيرة من الخوارج والجهمية خروج الدجال، بالكلية، وردوا الأحاديث الواردة فيه فلم يصنعوا شيئا وخرجوا بذلك عن خير العلماء لردهم ماتواترت به الأخبار الصحيحة.

وبصفة نهائية ارتبط الدجال بالمعنى العام للفتنة لنري أن الأمر المثير حقاهو أن ينقسم الناس تجاه الدجال قسمة الثابتة تجاه أي فتنة كانت في تاريخ الأمة: واقع فيها... ومواجه لها... ومعتزل...

وما يزيد الأمر إثارة أن الأعتزال سيكون في البادية[139] أيضا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذكر عنده الدجال فقال: يفترق الناس عند خروجه ثلاث فرق: فرقة تتبعه، وفرقة تلحق الأرض ابائها بمنابت الشيح، وفرقة شط الفرات، فيقاتلهم ويقاتلونه حتى يجتمع المؤمنون بقرى الشام)، ومنابت الشيح؛ نبت يخرج في البادية.

وعلى هذا الأساس فإن الموقف الصحيح من الدجال هو الموقف الصحيح من الفتنة: هو الهروب وعدم الاستشراق، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سمع بالدجال فلينأ منه، من سمع بالدجال فلينأ منه، من سمع بالدجال فلينأ منه، فإن الرجل يأتيه فيحسب أنه مؤمن فما يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه رواه أحمد[140]

ويفسر العبارة الأخيرة من حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (فما يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه أحاديث أخرى فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الشياطين تتبع الدجال فيقول: إن من فتنة الدجال أن يقول للأعرابي أرأيت أن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان له يابني

---

[139] كما هو الشأن في اعتزال أي فتنة كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالتعرب عند الفتنة أي سكن البادية وقول رسول الله: يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما ينبع بها شعف الجبال ومواقع القطر ناجيا من الفتن رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه.

[140] أخرجه أحمد في المسند (4/431) من حديث عمران حصين ومن طريق أخرجه الحاكم في المستدرك (4/531)، وصححه على شرط مسلم، والحديث أخرجه أبو داود في سننه (11/442) من وجه اخر عن عمران بن حصين.

اتبعه فإنه ربك) رواه ابن ماجه[141]، واسناده قوي واللفظ له، وساق أبو داود سنده وهو سند صحيح، وصححه ابن خزيمة.

وفي حديث أخر يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يبعث الله معه شياطين تكلم الناس)[142] رواه مسلم، وأحمد وصححه الحاكم، ورجال ثقاة.

ثم نأتي إلى محور الخير في إطارات علامات الساعة وهو مقام النبوة:

وفي تحقيق التوازن بين الخير والشر، على مستوي الأمة إلى قيام الساعة، يكون مقام النبوة هو محور تحقيق الخير في هذا التوازن، فالرسول هو الذي جاء.

جاء بالإسلام والخير بعد الجاهلية والشر، وكل أطراف الخير المقابلة للشر حتى قيام الساعة ترتبط بهاذا المقام. فندام ينتشر الشر والجهل والفساد فإن المهدي يأتي من ال بيت النبي صلى الله عليه وسلم ويوافق اسمه اسم النبي، وعندما تأتي مرحلة الشر وظهور الدجال التي تكطون بعد المهدي ويترل عيسى بن مريم فإنه يترل بصفة أساسية قائمة على الارتباط بالنبي صلى الله عليه وسلم: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فإنه)[143]، وقال: (كيف تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم أخرها)[144]، وحسنه ابن حجر، وقال صلى الله عليه وسلم: (يترل عيسى بن مريم إلى الأرض فيتزوج، ويولد له، ويمكث خمسا واربعين سنة، ثم يموت، فيدفن معي في قبري أنا وعيسى بن مريم بين أبي بكر وعمر)[145] أخرجه في المشكاة وكتر العمال.

---

[141] أخرجه ابن ماجه في الفتن رقم (4077)، وهو طرف من حديث أبي أمامة الطويل في ذكر الدجال وسبق تخريجه.

[142] أخرجه أحمد في المسند (3/368/367) من حديث أبي الزبير عن جابر وأخرجه الحاكم بعضه (4/530)، وصححه ووافقه الذهبي على شرط مسلم.

[143] هو قطعة من حديث أخرجه البخاري في الانبياء (6/477)، ومسلم رقم (2365)، والمسند لأحمد (2/482)، وغيرهم عن أبي هريرة.

[144] أخرجه ابن ابي شبيه من حديث عبد الرحمن بن جبير – أحد التابعين – بإسناد كما قال الحافظ في الفتح (7/6)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدركن المسيح أقواما أنهم لمثلكم أو خير ثلاثا ولن يخزي الله امه انا أولها والمسيح أخرها.

[145] قال في المشكاة رقم (5508) بعد أن ذكره عن عبدالله بن عمرو – رواه ابن الجوزي في الوفا قلت: و لم أجده في الوفا في مظانه على أن هذا التعبير تجاوز أعني قول رواه ابن الجوزي إذ من عادته في كتابه الوفا أن يسوق الأحاديث دون إسناد وينقلها من كتب السنة وغيرها فلا يقال في مثلها لا رواه ولا أخرجه إنما يقال ذكره أو أورده ونحو ذلك.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ان من أسباب نزول عيسى بن مريم في اخر الزمان أن عيسى عليه السلام قد دعا الله بأن يكون من أمه النبي صلى الله عليه وسلم فأجاب الله دعاءه.

ولأجل أن مقام النبوة أساس في تحقيق الخير نجد أن كل غواية ظهرت في أمة النبي صلى الله عليه وسلم نرجع في أصلها وبدايتها إلى نيل هذا المقام بسب أو إيذء.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ظهور الخوارج الذين يرجع وجودهم إلى الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: اعدل، وفي رواية: هذه القسمة لم يبتغ بها وجه الله قال: ويلك من يعدل إذ لم أعدل، فقال عمر ائذن لي فلأضرب عنقه؟ قال: الا ان له أصحاب، وفي رواية: دعاه فسيخرج من هذا الرجل قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، ميرقون من الدين كمروق السهم من الرمية... يخرجون على حين فرقة. من الناس ايتهم رجل إحدي يديه مثل ثدي المرأة ومثل البصمة تدردر.

قال أبو سعيد: أشهد لسمعته من النبي صلى الله عليه وسلم وأشهد على أني كنت على حين قاتلهم فالتمس في القتلي فأتي بعه على العنت الذي نعت النبي صلى الله عليه وسلم[146].

وظهور الجهمية الذين يرجع بدايتهم إلى لبيد بن الأعصم الذي سحر النبي عليه الصلاة والسلام.

ويكشف لنا الإمام ابن تيمية تلك البداية بقوله: أصل هذا المقال مأخوذ من تلاميذ اليهود المشركين وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه قال هذه المقالة – أعني أن الله ليس على العرش حقيقة إنما استوى – أول ما ظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فتنسب مقاله الجهمية إليه. والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر للنبي صلى الله عليه وسلم[147].

5) نهاية الدنيا:

وفيه أربع علامات:

---

[146] البخاري (8/55)، وفي مواضع، ومسلم رقم (1062) من حديث عبد الله بن مسعود

[147] انظر كتاب (عندما ترعي الذئاب الغنم) للكاتب.

الأولى: انتهاء الرغبة في الدنيا؛ وفيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (حتي يمر الرجل على القبر ويقول: ياليتني صاحب هذا القبر)[148] وأيضا قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (حتي تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها)، وفيه يقول العلماء: لم تزل السجدة الواحدة في الحقيقة كذلك (أي خيرا من الدنيا وما فيها)، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون في أمر الله ويزهدون في الدنيا حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

الثانية: الانتهاء الزمني؛ أي تقارب الزمان، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان؛ فتكون السنة كالشهر، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السعفة أي غصن النخلة)[149].

الثالثة: الاتجاه نحو نهاية الفاعلية البشرية؛ والنقاط الأساسية في هذا الاتجاه. ارتفاع درجة من درجات الصفة القدرية في الواقع البشري حيث يأتي المهدي درجة أعلي للصفة القدرية للبشرية تزيد عن المجددين، ثم يأتي المسيح عيسى ابن مريم ومن معه ليكون آخر صور الفاعلية القدرية البشرية، إذ سيبعث في وجوده يأجوج ومأجوج وهم عباد لا قبل لأحد بقتالهم. ويكون الموقف البشري حينئذ هو الإيواء إلى الطور حيث يقتل يأجوج ومأجوج النغف وهو الدود الصغير.

الرابعة: اعتبار البغت في النهاية وهي المفاجأة؛ والعلامات كمقدمة لا تنفي المفاجأة ذلك أن وقت إتمام العلامات ليس هو بعينه وقت الساعة، والفاصل بينهما هو الوارد في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حتي تكون كالحامل المتم لا يدري أهلها متي تفجؤهم)[150]؛ فتمام العلامات يكون كتمام الحمل، ولكن العلم بتمام الحمل لا يعني العلم بلحظة الولادة؛ ولعل في قول الله عز وجل: (ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)... إثباتا لهذا المعنى فقول الله (ثقلت) تشبيه بثقل الحمل. ويصور النبي

[148] البخاري في الفتن (74) 75) 13)، ومسلم في الفتن رقم (157)، وغيرها من حديث أبي هريرة وأوله: (لا تقوم الساعة حتى...) عند مسلم (والذي نفسي بيده لا تمر الدنيا حتى...)

[149] أخرجه أحمد في المسند (537) 3/538) من حديث أبي هريرة، والترمذي في (الزهد) رقم (2332) عن أنس واستغربه، وسنده صحيح عند أحمد، وذكره ابن كثير في نهاية البداية (1/213)...... وقال عقبة: هذا الإسناد على شرط مسلم 0

[150] صحيح: أخرجه ابن ماجه رقم (4081)، وأحمد رقم (3556)، وصححه الحاكم (4/489)، ووافقه الذهبي. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح، وقال البوصيري: إسناد صحيح رجاله ثقات.

صلى الله عليه وسلم البغت من خلال الواقع الذي تقوم عليه الساعة فجاءت بذلك أحاديث عدة منها قول عليه الصلاة والسلام في حديث الحوض: (لتقومن الساعة وقد نشر الجلان ثوبهما؛ فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها) رواه البخاري عن أبي هريرة[151].

وفي الحديث بعد أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قتل الدجال ثم قتل يأجوج مأجوج وقذف أجسادهم في البحر قال: (ففيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك نهارا فإن الساعة كالحامل المتم التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا) رواه أحمد والحاكم وقال على شرط الشيخين و لم يخرجاه[152].

وبعد علامات الساعة... تكون الساعة... وهي أعلا درجات ظهور الأسماء والصفات حيث نأتي إلى رؤية الله عز وجل.

والدليل على ذلك: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن الناس قالوا يا رسول الله، هل نري ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها السحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع ما كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقي هذه الأمة فيها صادقوها أو منافقوها فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها، ولا تتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوي الرسل يومئذ اللهم سل... سلم)[153].

---

[151] البخاري في (الفتن) [81) 82) 13) من حديث أبي هريرة.

[152] هو نفس الحديث قبل السابق 0

[153] أخرجه البخاري في التوحيد (13/419) من حديث أبي هريرة 0

ثم في الجنة: ودليلة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جنتان من فضة آنيتها وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتها وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[154].

ثم الرؤية بعد كشف الحجاب: وهو تفسير قول الله عز وجل: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ).

وفي إفراد مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا، ألم ترزقنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهذه هي الزيادة ثم تلا هذه الآية: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)[155].

وكما يتحقق في الجنة الكمال في ظهور ذات الله برؤية وجهه سبحانه بغير حجاب يتحقق الكمال في ظهور صفاته عز وجل؛ فالجنة هي واقع الرحمة الكاملة بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه)[156]، حتى صارت الجنة هي رحمة الله بدليل قول الله سبحانه في الحديث للجنة: (أنت رحمتي)[157].

ومن هنا كان واقع الجنة مجردا من صفات النصب والكدح. ولهذا يحكي لنا عليه الصلاة والسلام كيف أن رجلا أراد أن يزرع في الجنة، فروي البخاري عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية أن رجلا استأذن ربه في الزرع فقال له: أليست فيما شئت؟ قال: بلي ولكني أحب أن أزرع. قال: فبذر فبادر الطرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال. فيقول الله دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء، فقال الأعرابي: والله لا تجده إلا قريشا أو أنصارا، فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا أصحاب زرع، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم[158].

---

[154] البخاري في التوحيد (13/423)، ومسلم في الأيمان (3/16) من حديث أبي موسي الأشعري رضي لله عنه.

[155] مسلم في الأيمان (3/17) من حديث صهيب رضي لله عنه وهو مما انفرد به دون البخاري.

[156] البخاري في الأدب (10/431)، وغيرها من حديث أبي هريرة رضي لله عنه.

[157] البخاري في التفسير سورة (ق)، وفي التوحيد (13/434)، ومسلم رقم (2846) في الجنة.

[158] البخاري في (الحرث والمزارعة) [5/27) من حديث أبي هريرة 0

وكذلك يبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا اشتهي الولد في الجنة فإنه لا يكون الحمل لأنه (وهنا على وهن)، وليس في الجنة وهن كما روي الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا اشتهي المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعة واحدة كما يشتهي)[159].

وكان واقع الجنة كذلك مجردا من التكاليف ولهذا لما كان التسبيح شرطا قدريا للحياة، وكانت حياة أهل الجنة دائمة لزم أن يكون أهل الجنة في تسبيح دائم. ولما كان التكليف ممتنعا في الجنة كان التسبيح كما تلهمون النفس)[160]. ولكن الله برحمته إذ منع حدوث أثر النيا من النصب والكدح؛ فإنه عز وجل جعل من آثار الجنة ما يحدث في الدنيا.

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)[161]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (النيل والفرات من أنهار الجنة)، وعند هذا الحد تقف آثار الجنة في الأرض حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتمكن من أخذ قطف من العنب رآه عندما رأى الجنة في صلاته كما جاء في الصحيحين: (إني أريت الجنة أو رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)[162] وفي حديث أبي يعلي: (فتناولت منها قطفا من عنب لآتيكم به فحيل بيني وبينه)[163].

---

[159] صحيح: أخرجه أحمد في المسند (9/3، 80)، والترمذي (7/385)، وقال: (حسن غريب)، وابن ماجه رقم (4338) من الصديق أبي الناجي عن أبي سعيد الخدري والحديث عند الدرامي وابن حبان وغيرهم

[160] أخرجه مسلم (2835) من حديث جابر رضي الله عنه 0

[161] متفق عليه، البخاري في (فضل الصلاة) [3/70]، ومسلم رقم (1390) من حديث عبدالله ابن زيد.

[162] متفق عليه، أخرجه البخاري في الكسوف (2/540)، ومسلم في الكسوف أيضا من حديث ابن عباس رضي لله عنه 0

[163] جملة (فحيل بيني وبينه) عزاها الحافظ في الفتح (2/541) لأحمد من حديث جابر رضي لله عنه 0

القسم الثالث
الاختصاص القدري لواقع الدعوة

بعد شرح التصور القدري العام من خلال قضية الأسماء والصفات وأصل الحكمة، والحقائق الخمسة وهي الحق والعدل والإحسان والرحمة والخير. ومن خلال حقائق الخلق الثلاثة: التنوع والتقابل والتوازن.

وهذا في القسم الأول...

وبعد شرح المقتضي الواقعي للتصور القدري العام من خلال مفهوم الإظهار ومجالات الواقع الأساسية الكوني والبشري بدائرتيه الذاتية والتاريخية وعلامات الساعة.

وهذا في القسم الثاني...

ننتقل إلى القسم الثالث وهو الاختصاص القدري لواقع الدعوة.

والاختصاص هو مجموع الحقائق الناشئة عن تطبيق التصور القدري العام بعناصره، والمقتضي الواقعي لهذا التصور بأحكامه على واقع الدعوة الإسلامية بصفته البشرية والكونية. حيث كشف هذا التطبيق اختصاصا قدريا لواقع الدعوة.

وأبرز هذه الاختصاصات أربعة.

الأول: اختصاص واقع الدعوة من حيث الأسماء والصفات:

الاختصاص من حيث مفهوم الحكمة الإلهية:

فلو كان الخلق كلهم مطيعين عابدين حامدين لتعطل أثر كبير من الصفات العلي والاسماء الحسنى، وكيف كان يظهر أثر صفة العفو والمغفرة والصفح والتجاوز والانتقام والعز والقهر والعدل والحكمة التي تنزل الأشياء منازلها، وتضعها مواضعها، فلو كان الخلق كلهم أمة واحدة لفاتت الحكم والآيات والعبر والغايات المحمودة في خلقهم على هذا الوجه.

وقد يترتب على خلق من يكفر به ويشرك ويعاديه من الحكم الباهرة والايات الظاهرة ما لم يمكن أن يحصل بدون ذلك، فلولا كفر قوم نوح لما ظهرت اية الطوفان وبقيت يتحدث بها الناس على مر الزمان، ولولا كفر عاد لما ظهرت اية الريح العقيم التي دمرت ما مرت عليه، ولولا كفر قوم صالح لما ظهرت اية اهلاكهم بالصيحة، ولولا كفر فرعون لما ظهرت تلك الايات والعجائب، يتحدث بها الأمم أمة بعد أمة ويهتدي من شاء الله فيهلك بها من هلك عن بينة ويحي بها من حيي عن بينة ويظهر بها فضل الله وعدله وحكمته وايات رسله وصدقهم، فمعارضة الرسل وكسر حججهم ودحضها والجواب عنها وأهلاك الله لهم من أعظم أدلة صدقهم وبراهينه، ولولا مجئ المشركين بالحد والحديد والعدد والشوكة يوم بدر لما حصلت تلك الآية العظيمة التي يترتب عليها من الايمان والهدى والخير ما لم يكن حاصلا مع عدمها.

ولله سبحانه وتعالى يجب أن يعبد بأنواع العبودية، ومن أعلاها وأجلها: عبودية الموالاة والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، والجهاد في سبيله وبذل مهج النفوس في مرضاته، ومعارض أعدائه، وهذا النوع هو ذورة سنام العبودية وأعلي مراتبها، وهو أحب أنواعها، وهو موقوف على ما لايحصل بدونه من خلق الأرواح التي تواليه وتشكره وتؤمن به الأرواح التي تعاديه وتكفر به ويسلط بعضها على بعض لتحصل بذلك محاباة على أتم الوجوه، وتقرب أولياءه إليه لجهاد أعدائه ومعارضتهم فيه واذلالهم وكبتهم ومخالفة سبيلهم، فتعلو كلمته ودعوته على كلمة الباطل ودعوته، ويتبين بذلك شرف علوها وظهورها، ولو لم يكن للباطل والكفر والشرك وجود فعلي أي شئ كانت كلمته ودعوته تعلو فإن العلو أمر لشئ يستلزم غالبا ما يعلي عليه، وعلو الشئ على نفسه محال، والوقوف على الشئ لايحصل بدون.

ولولا خلق الشياطين والهوي لما حصلت عبودية الجهاد، ولما نال أهله درجة الشهادة، ولما ظهر من يقدم محبة فاطرة وخالقه على نفسه وأهله وولده ولا يقدم أدني حظ من الحظوظ عليه.

فأين صبر الرسل وأتباعهم وجهادهم وتحملهم لله أنواع المكاره والمشاق وأنواع العبودية المتعلقة بالدعوة وإظهارها لولا وجود الكفار، وتلك العبودية تقتضي علمه وفضله وحكمته ويستخرج منه حمده وشكره ومحبته والرضا عنه.

وقد استقرت حكمته سبحانه أن السعادة والنعيم والراحة لا يوصل إليها إلا على جسر المشقة والتعب، ولايدخل إليها إلا من باب المكاره والصبر وتحمل المشاق، ولذلك حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات، ولذلك أخرج صيفه أدم من الجنة وقد خلقها له،

واقتضت حكمته أن لايدخلها دخول استقرار إلا بعد التعب والنصب، فما أخرجه منها ألا ليدخله إليها أتم دخول. فالله كم بين الدخول الأول والدخول الثاني من التفاوت، وكم بين دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في جوار المطعم بين عدي ودخوله إليها يوم الفتح وكم بين راحة المؤمنين ولذتهم في الجنة بعد مقاساة ما قبلها وبين لذتهم لو خلقوا فيها، وكم بين فرحة من عافاه بعد ابتلائه وأغناه بعد فقره وهداه بعد ضلاله وجمع قلبه بعد شتاته وفرحة من لم يذق تلك المرارات.

وقد سبقت الحكمة الإلهية أن المكاره أسباب اللذات والخيرات كما قال تعالى (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ).

وكذلك حكمته في أن يخلق مثل جبريل صلوات الله وسلامه عليه الذي هو أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها وهو السفير في كل خير وهدي وايمان وصلاح، ويخلق مقابلة مثل روح اللعين إبليس الذي هو أخبث الأرواح وأنجسها وأحقرها وهو الداعي إلى كل شر وأصله ومادته، وذلك من تمام قدرته وحكمته أن خلق الضياء والظلام، والأرض والسماء، والجنة والنار، وسدرة المنتهي وشجرة الزقوم، وليلة القدر وليلة الوباء[164] والملائكة والشياطين، والمؤمنين والكفار، والابرار والفجار، والحر والبرد، والداء، والدواء، والالام، واللذات، والأحزاب والمسرات.

واستخرج سبحانه من بين ذلك ما هو أحب الأشياء من أنواع العبوديات والتعرف إلى خلقه بأنواع الدلالات.

وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن أقام في هذا العالم لكل حق جاحدا ولكل صواب معاندا، كما أقام لكل نعمة حاسدا ولكل شر رائدا، وهذا من تمام حكمته الباهرة وقدرته الظاهرة ليتم عليهم كلمته، وينفذ فيهم مشيئته، ويظهرفيهم أثار صفاته العليا وأسمائه الحسنى، ويتبين لأوليائه وأعدائه يوم القيامة أنه لم يخل لحكمة و لم يخلق خلقه عبثا ولا يتركهم سدا وأنه لم يخلق السموات والأرض ومابينهم باطلا.

وامتدادا لاختصاص واقع الدعوة بأصل الحكمة، فقد كان لواقع الدعوة اختصاص بحقيقة الخير، وذلك أن الحكمة تقتضي أن يكون التأييد الرباني للخير الراجح.

[164] التي أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله يقول يترل مرض كل عام فيصيب كل إناء مكشوف.

ومن هنا لزم أن يكون واقع الدعوة هو واقع الخير الراجح.

اختصاص واقع الدعوة وأنها واقع الخير الراجح:

وفيه يقول ابن القيم: فالله كم عمرت قصة بدر من ربح أصبح أهلا بالأيمان، وكم فتحت لأولي النهي من باب وصلوا منه إلى الهدى والايقان.

وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ للشيطان، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها الكفار مغمورة جدا بالنسبة إلى مصالحها وحكمها، وهي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب وخرب بعض البيوت بالنسبة إلى مصلحة العامة، وتأمل ما حصل بالطوفان وغرق ال فرعون، للأمم من الهدى والايمان الذي غمر مفسدة من هلك به حتى تلاشت في جنب مصلحته وحكمته. فكم لله من حكمة في اياته التي ابتلي لها أعدائه وأكرم فيها أوليائه وكم له فيها من أية وحجة وتبصرة وتذكرة، ولهذا امر سبحانه رسول أن يذكر بها أمته فقال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ).

فذكرهم بأمامه وإنعامه، ونجاتهم من عدوهم واهلاكهم وهو ينظرون، فحصل بذلك من ذكره وشكره ومحبته وتعظيمه واجلاله ما تلاشت فيه مفسدة اهلاك الابناء وذبحهم، واضمحك، فإنهم صاروا إلى النعيم وخلصوا من مفسدة العبودية لفرعون إذا كبروا وسومه لهم سوء العذاب.

وأراد الله سبحانه وتعالى أن يرى عباده ماهو من أعظم اياته وهو ان يرى هذا المولود الذي ذبح فرعون ما شاء الله من الأولاد في طلبه، في حجر فرعون وفي بيته وعلى فراشه، فكم في ضمن هذه الآية من حكمة ومصلحة ورحمة وهداية، وتبصرة، وهي موقوفة على لوازمها وأسبابها ولم تكن لتوجد بدونها فإنه ممتنع فمصلحة تلك الآية وحكمتها غمرت مفسدة ذبح الأبناء وجعلها كأن لم تكن.

وكذلك الايات التي أظهرها سبحانه وتعالى على يد الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم[165] والعجائب والحكم والمصالح والفوائد التي في تلك القصة التي تزيد على

[165] يوسف ابن يعقوب إبن اسحاق إبن براهيم عليه الصلاة والسلام.

الأفل لم تكن لتحصل بدون ذلك السبب الذي كان مفسدة حزونة يعقوب ويوسف، ثم انقلبت تلك المفسدة مصال اضمحلت في جنبها تلك المفسدة بالكلية وصارت سببا لأعظم المصالح في حقه وحق يوسف وحق الإخوة وحق أمرأة العزيز وحق اهل مصر وحق المؤمنين إلى يوم القيامة، فكم جني أهل المعرفة بالله وأسمائه وصفاته ورسله من هذه القصة من ثمرة؟ وكم استفادوا بها من علم وحكمة وتبصرة.

وكذلك المفسدة التي حصلت لأيوب من مس الشيطان له بنصب وعذاب اضمحك وتلاشت في جنب المصلحة والمنفعة التي حصلت له ولغيره عند مفارقة البلاء وتبدله بالنعماء بل كان السبب المكروه هو الطريق الموصول إليها والشجرة التي جنيت ثمار النعم منها.

وكذلك الأسباب التي وصلت خليل الرحمن إلى أن صارت النار عليه بردا وسلاما، من كفر قومه وشركهم وتكسيره أصنامهم وغضبهم لها وإيقاد النيران العظيمة له وإلقائه فيها بالمنجنيق، حتى وقع في روضة خضراء في وسط النار وصارت اية وحجة وعبرة ودلالة للأمم قرنا بعد قرن، فكم لله سبحانه وتعالى في ضمن هذه الآية من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، ورحمة وحجة وبينة.

لو تعطلت تلك الأسباب لتعطلت هذه الحكم والمصالح والايات، وحكمته وكمالة المقدس يأبي ذلك. وحصول الشئ بدون لازمة ممتنع، وكم بين ما وقع من المفاسد الجزئية في هذه القصة وبين جعل صاحبها إماما للحنفاء إلى يوم القيامة، وهل تلك المفاسد الجزئية إلا دون مفسدة الحر والبرد والمطر والثلج بالنسبة إلى مصالحها بكثير، ولكن الأنسان كما قال الله تعالى ظلوم جهول ظلوم لنفسه، جهول بربه وعظمته وجلاله وحكمته واتقان صنعه.

وكم بين إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة على تلك الحال، ودخوله إليها ذلك الدخول الذي لم يفرح بمثله بشر حبورا لله وقد اكتنفه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، والمهاجرون والأنصار قد أحدقوا به، والملائكة من فوقهم، والوحي من الله يترل عليه وقد أدخله حرمة ذلك الدخول، فأين مفسدة ذلك الإخراج الذي كان كأن لم يكن؟

ولولا معارضة السحرة لموسي بإلقاء العصي والحبان حتى أحدوا أعين الناس واسترهبوهم لما ظهرت اية عصا موسى حتى إبتلعت عصيهم وحبالهم.

الثاني: اختصاص واقع الدعوة بالصفة البشرية:

واختصاص واقع الدعوة بحقيقة الخير الراجح أنشأ اختصاصا اخر في واقع التزام الدعاة بشرع الله.

الاختصاص من حيث الالتزام الشرعي:

فالدين هو الخير المطلق، والدعوة هي أنشاء واقع الدين، والعلاقة بين الدعوة وواقع الدين هي علاقة السبب بالنتيجة، والسبب في التصور القدري يجب أن يكون من طبيعة النتيجة، لذا لابد ان يكون واقع الدعوة هو واقع الخير الخالص وذلك لتصلح: قدرا بأن تكون سببا وأداة لقيام واقع الدين.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها، وكمالها ونقصانها لنقصانها شفاء العليل وتفسير هذه العبارة كان الارتباط بين كمال الطاعة وكمال الصحة في إنشاء واقع الدعوة إذ أنه بتحقيق الالتزام الشرعي يتحقق كمال المحبة لما أمر الله به وكمال البغض لما نهي الله عنه وقد قال سبحانه في صفة من يحبهم ويحبونه: (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم).

وبتحقيق كمال الالتزام الشرعي بتحقق كمال المحبة الامر وكمال بغض النهي يكون حق التقوي، وفيه يقول على ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله سبحانه وتعالى: (أتقوا الله حق تقاته)، قال لم تنسخ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولاتأخذهم في الله لومة لائم ويقومون بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم[166].

ولذلك يقول أبو الأعلي المودودي: ان الامتداد بواقع الدعوة يعني قدرا نموا كونيا ويرتبط بسننه وأسبابه ومن هنا فلابد من جمع أسباب تلائم طبيعة الوضعية المنشودة للدولة وفطرها الخاصة وانتهاج طريق العمل إليها، فلا جرم أن تقوم حركة تلائمها في طبيعتها، ولذلك بعد أن يقول: ولما لايمكن أن تغرس شجرة الكمثري ثم تظهر منها بعد نموها واكتمالها ثمرات شجرة التفاح أو الرمان.

ولكن تكون الدعوة واقعا للخير الخالص كان لابد ان تقوم على أساس الألتزام الشرعي التام، ذلك لأن الخير هو الطاعة، وان الشر هو الذنوب وموجباتها ولما كان

---

[166] ابن كثير ص 72

الخروج عن الالتزام الشرعي في واقع الدعوة امرا محتملا وكان الالتزام الشرعي التام شرطا واجبا لذا كان عقاب الخروج على هذا الالتزام في واقع الدعوة له مفهوم خاص وهو أن صيغة العقاب على هذا الالتزام في واقع الدعوة ليسا هي فقط السيئات ولكن مع هذه السيئات يكون الإخفاق في إنشاء واقع الدعوة الصحيح أو تأخيره حتى إذا قام وأنشئ كان ذلك بشرطه وهو ان يكون واقعا للخير الخالص.

وهذا يعني أن الذنب في واقع الدعوة يترتب عليه عدم حدوث غاية الدعوة وعدم تحقيق أهدافها، وبذلك يتحقق في واقع الدعوة عندما يكون قائما على الالتزام التام شرط الخير المطلق، وهذا وجه اختصاص الدعوة من حيث مفهوم الثواب والعقاب.

أما الأدلة المباشرة على هذا الاختصاص فهي كثيرة. نذكر منها:

أن سليمان عندما قال: (لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تنجب كل واحدة غلاما يجاهد في سبيل الله)، ولم يستثني – أي لم يقل: ان شاء الله – كانت نتيجة عدم قوله ان شاء الله لم ينجب إلا نصف غلاما، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ولو كان سليمان استثني لولدت كل واحدة منهن غلاما فارسا يقاتل في سبيل الله[167].

ومن المستحيل أن يكون الأمر متعلقا بعدم قدرة تسعين أمرأة على الأنجاب فلزم أن يكون الأمر متعلقا بقدرة سليمان، فأنجب نصف غلام حتى لا يعود تفسير الموقف إلى عدم قدرة سليمان الطبيعية في الإنجاب، فيقت العلة الصحيحة وهي إظهار إرادة الله سبحانه عدم انجاب سليمان لأنه لم يقل: ان شاء الله.

وكذلك عندما سأل اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: سأخبركم غدا، ولم يقل: أن شاء الله. فأن الوحي لم يترل عليه، وعندما نزل بالجواب نزل معه التصحيح بقوله تعالى)، ولا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ).

ومن هنا ارتبط واقع الدعوة من حيث حدوث أصلا بالصواب الشرعي وهذا الذي يحقق ارتباط واقع الدعوة، من حيث وجود وبقائه، بمفهوم الالتزام الشرعي.

[167] أخرجه البخاري في الانبياء (6/458)، ومسلم في الإيمان رقم (1654)، واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولأجل أن الالتزام الشرعي شرط في نشأة واقع الدعوة واستمرارها كان الخروج عن هذا الالتزام، بعد نشأة الدعوة وقيام واقعها، يعني هدم وانهيار هذا الواقع، وهذا يعني بصفة محددة ارتباط مفهوم الفتنة بالخروج عن هذا الالتزام، والحقيقة أن اعتبار الخروج عن الالتزام هو السبب الأصلي للفتنة، مسألة واضحة وخطيرة والدليل على ذلك قول الله عز وجل: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وفي قوله سبحانه وتعالى: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً). أي اتقوا ذنبا كإقرار المنكر بين أظهركم، والمداهنة في الأمر بالمعروف، وافتراق الكلمة، وظهور البدع، والتكاسل في الجهاد.

قال القرطبي: وفي هذا تنبيه بالغ على التحذير من الفتن. حدثنا مسلم بن أبي بكرة، عن أبيه؛ "ان نبي الله صلى الله عليه وسلم مر برجل ساجد، وهو ينطلق إلى الصلاة فقضي للصلاة، ورجع إليه وهو ساجد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يقتل هذا؟ فقام رجل فحسر يديه فاخترط سيفه وهزه ثم قال: يا نبي الله بأبي أنت وأمي كيف أقتل رجلا ساجدا يشهد ان لا اله الا الله وان محمد رسول الله؟ ثم قال: من يقتل هذا الرجل؟ فقام رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لو قتلتموه لكان أول الفتنة وأخرها".

وهذا الحديث أثبت حقيقة أن الطاعة المطلقة لله والرسول هي المانع الأصلي للفتن، ذلك أنه لو أطاع المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم في قتل رجل الساجد لا متنعت الغتن في هذه الأمة كما نص الحديث، ولكن التدخل العقلي الخاطئ في تلقي الأمر وتنفيذه هو الذي أبقى الفتنة.

وكما كانت الطاعة المطلقة مانعا للفتنة كانت كذلك مواجهة لها بعد وقوعها، ولعل أقوي الأمثلة على هذا المفهوم هو الكفارة التي فرضت على بني اسسرائيل بعد فتنة اتخاذ العجل، فقد كانت الكفارة، وهي ان يقتل بعضهم بعضا كما في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

ولأجل أن الطاعة هي مقابل الفتنة، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بأن تكون طبيعة الطاعة مقابلة لطبيعة الفتنة، فالفتنة فجأة مما يتطلب أن تكون الطاعة أسرع منها فيقول عليه الصلاة والسلام: (بادروا بالقطاعات قطعا قطعا كالليل المظلم يمسي

الرجل مسلما ويبح كافرا، ويصبح مسلما ويمسي كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)[168]، ولأجل التقابل كان التناسب بين مستوي العبادة ومستوي الفتنة متحققا بصورة دقيقة اذ ورد في حديث حذيفة عندما سأل عن الفتن قوله: (فتنة الرجل في أهله تكفرها الصلاة والصدقة)، وهذا يعني أن الفتن المعتادة تكفرها العبادة المعتادة، وباعتبار أن العبادة هي الطاعة المطلقة فإن العبادة كانت أول موانع الفتنة واخرها، ومن هنا قول رسول الله صلى الله عليه الصلاة والسلام: (من يوقظ صواحب الحجرات - يقصد فيها أمهات المؤمنين لصلاة التهجد - ماذا أنزل اليوم من الفتن)[169]، وقد أورد مسلم في باب (نزول الفتن لمواقع القطر)، قول أبي بكر عبد الرحمن: (من الصلاة صلاة من فاتنه فكأنما وتر أهله وماله[170] يعني بتلك الصلاة صلاة العصر.

ومن هنا أيضا كان دعاء ختام الصلاة قبل التسليمين كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر وما بطن، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال).

وبناء على حقيقة الارتباط بين واقع الدعوة والطاعة ومخافة الذنوب كانت مغفرة الله لذنوب أهل بدر باعتبارهم أداة قدرية لقيام هذا الدين، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[171]

وبذلك تتأكد العلاقة بين ترك الذنوب وتحقيق غاية الدعوة فيصبح ترك الذنوب سببا لتحقيق الغاية وسببا لمغفرة الذنوب[172].

وبعد معالجة اختصاص واقع الدعوة بالصفة البشرية من خلال المفهوم الخاص للالتزام الشرعي من جانب الدعاة، نتبع هذا الاختصاص بعلاقة الدعاة بحقائق الإظهار القري في واقع الدعوة. وهو الجامع للاختصاص الأول والثاني.

[168] أخرجه مسلم رقم 118 في الايمان بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو عند الترمذي أيضا بلفظ: بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم... ألخ.

[169] البخاري في التهجد 3/10 من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

[170] صحيح أخرجه مسلم في الفتن باب نزول الفتن كمواقع القطر رقم (2886).

[171] البخاري في التفسير سورة الممتحنة (8/633) من حديث على وهي قطعة من حديث طويل فيه قصة حاطب بن أبي بلتعة مع المشركين 0

[172] ولذلك جاء في تفسير (إذا جاء نصر الله والفتح) لما كان رسول الله أطوع الخلق وأشهدهم تعظيما لاوامره قال الله (وينصرك الله نصرا عظيما) أي بسبب خضوعك لامر الله (ابن كثير) 0

الثالث: الاختصاص من حيث مقتضى ظهور الاسماء والصفات في واقع الدعاة:

الاختصاص من حيث إظهار وحدانية الله:

ففي تفسير قول الله عز وجل: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ).

يقول ابن القيم: وقد فسرت شهادة أولي العلم بالإقرار وفسرت بالتبيين والإظهار الصحيح وأنها تضمنت الأمرين؛ فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام وهو شهداء الله على الناس يوم القيامة. قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً).

وقال تعالى: (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ). فأخبر أنه جعلهم عدولا خيارا، ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم لما في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة؛ فمن لم يقم بهذه الشهادة علما وعملا ومعرفة وإقرار ودعوة وتعليما وإرشادا فليس من شهداء الله.

وبذلك يتضح أن واقع الدعوة هو واقع الشهادة بوحدانية الله وقيامه بالقسط.

الاختصاص من حيث إظهار نور الله:

وفي تفسير قول الله عز وجل: (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

يقول ابن القيم: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة قلبه. شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها؛ وذلك قلب المؤمن فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة؛ فهو برقته يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق، وبصفائه تتجلي فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء،

وبصلابته يشدد في أمر الله ويتصلب ذات الله تعالى ويغلظ على أعداء الله تعالى ويقوم بالحق تعالى.

وواضح أن واقع الدعوة هو واقع اظهار صلابة القلب، وهي ايضا، واقع أظهار صفائه ورقته، وواضح ان القلب برقته وصفائه وصلابته هو واقع اظهار نور الله عز وجل ويتأكد بذلك أن واقع الدعوة من خلال القلب هو واقع اظهار نور الله عز وجل.

الاختصاص من حيث إعلاء كلمات الله:

وفي باب قول الله عز وجل)، قلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدادا). أورد البخاري في كتاب التوحيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: تَكفلَ الله لمن جاهد في سبيله لايخرجه من بيته الا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخل الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة[173] حيث ذكر ابن حجر في فتح الباري قول ابن التين في ورود الحديث في التفسير الآية احتمالين وكلاهما يتضمن أن الكلمات هي الدعوة إلى دين الله فقال: يحتمل ان يكون المراد بكلماته الأوامر الواردة للجهاد وما وعد عليه من الثواب، ويحتمل أن يراد بها ألفاظ الشهادتين وأن تصديقه بها يثبت في نفسه عداوة من كذبها والحرص على قتله، فيتأكد بذلك اختصاص واقع الدعوة بحقيقة كلمات عز وجل.

الاختصاص من حيث تمام الافتقار إلى الله:

وواقع الدعوة هو واقع الافتقار الكامل إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن إظهار اثر اسم الغني اقتضي فقر الناس إلى الله سبحانه وتعالى. وفي هذا يقول ابن القيم في طريق الهجرتين ويفسر: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)، فغناه وحده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقرمن سواه إليه ثابت لذاته لا مر أوجبه.

وفقر الخلق إلى الله نوعان: اضطراري من كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا وفقر اختياري ناشئ عن معرفة العبد بربه ومعرفته بنفسه.

فمن عرف ربه بالغني المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل.

والناس أفقر إلى الحق والهدى وفي هذا كان الإسلام هو كمال النعمة وكان تفسير قول الله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً).

[173] البخاري في التوحيد 13/44 من حديث أبي هريرة مرفوعا.

معناه كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبذلك يكون واقع الدعوة باعتباره واقع الحق والهدى هو واقع الافتقار الكامل إلى الله ومن هنا استوجب الناس إلى دعاة ان يتحقق في هؤلاء الدعاة إلى الله، مقام الافتقار الكامل إلى الله الذي علمهم وهداهم إلى هذا الحق، ولذلك يقول ابن القيم: لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى أحوج الخلائق كلهم إليه في الدنيا والاخرة، أما حاجاتهم إليه.

في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم فكلهم يتأخر عن الشفاعة فيشفع لهم وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة.

الاختصاص من حيث التوكل على الله من غير علة:

إذ يقول ابن القيم: التوكل من أعلم المقامات تعلقا بالأسماء الحسنى، وإن له تعلقا خاصا بعامة أسماء الأفعال وأسماء الصفات. فله تعلق باسم الغفار، والتواب، العفو، الرؤوف، الرحيم، وتعلق باسم الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن، ثم يقول: وتعلق باسم المعز المذل الخافض الرافع المعطي المانع. ومن جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ومنعهم أسباب النصر، وتعلق بأسماء (القدرة والإرادة)، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصبح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوي.

ومعني كلام ابن القيم أن واقع الدعوة، وهو واقع إذلال أعداء دين الله، له اختصاص في تعلق التوكل بأسماء الله الحسنى؛ وهذه إحدي نواحي اختصاص واقع الدعوة بإظهار أسماء الله وصفاته.

ويتبعه في التوكل ناحية أخرى وهو التي ذكرها ابن القيم في علل التوكل حيث يذكر ثلاث علل تجعل التوكل منقطعا من العبد عن الله.

العلة الأولى: أن يترك ما أمر الله به من الأسباب استغناء بالتوكل عنها فهذا تواكل وعجز وتفريط وإضاعة.

العلة الثانية: أن يرى توكله منه؛ ويغيب بذلك عن مطالعة المشيئة وشهود الفضل وإقامة الله له في مقام التوكل.

العلة الثالثة: أن يتوكل في حظوظه وشهواته دون حقوق ربه.

ومضمون هذه العلل هو أن ينقطع العبد بتوكله عن العبودية والتوحيد.

فالعلة الأولى تقطع العبد عن العبودية بترك ما أمر الله به، والعلة الثانية تقطع العبد عن العبودية بترك مطالعة المشيئة، والعلة الثالثة تقطع العبد بترك التوكل في الدعوة إلى الله وهي المقصود بحقوق الله سبحانه.

وهذا هو القصد من الاستدلال بالكلام في علل التوكل وهو أن الدعوة إلى الله هي واقع التوكل والمانع من انقطاع العبد عن العبودية والتوحيد؛ ولذلك يقول ابن القيم في العلة الثالثة: وأما التوكل في نصره دين الله وإعلاء كلمته وإظهار سنة رسوله وجهاد أعدائه فليس فيه علة بل هو مزيل العلل. وبذلك يتحقق اختصاص واقع الدعوة في تحقيق التوكل على الله باعتباره أهم مقتضيات معرفة العبد لأسماء الله وأفعاله.

أما في كتاب الفوائد فيقول: التوكل على نوعان: أحدهما توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية، والثاني التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه، وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله. فمتي توكل عليه العبد في النوع الثاني حق توكله كفاه النوع الأول تمام الكفاية، ومتي توكل عليه في النوع الأول دون الثاني كفاه أيضا لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه فيما يحبه ويرضاه؛ فأعظم التوكل عليه التوكل في الهداية وتجريد التوحيد ومتابعة الرسول وجهاد أهل الباطل، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم.

وبعد أن ينفي ابن القيم علل التوكل في واقع الدعوة يواصل تحديد حقيقة التوكل في واقع الدعوة على أنه أفضل التوكل، فيقول: فأفضل التوكل: التوكل في الواجب أعني واجب الحق وواجب الخلق وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية أو في دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين في الأرض وهذا توكل ورثتهم. ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم: من متوكل في حصول الملك ومن متوكل في حصول رغيف[174].

ويقول في موضع آخر من الكتاب: وكثير من المتوكلين يكون مغبونا في توكله وقد توكل حقيقة التوكل؛ وهو مغبون كمن صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة

[174] مدارج السالكين ص 83 ج 2

توكله ويمكنه نيلها بأيسر شيء وتفريغ قلبه من التوكل في زيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين والتأثير في العالم خيرا؛ فهذا توكل العاجز القاصر الهمة كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاؤه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين وقمع المبتدعين وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين والله أعلم[175].

الرابع: اختصاص واقع الدعوة بالصفة الكونية:

وأول الحقائق الثابتة في العلاقة بين الواقع الكوني وواقع الدعوة أن الدعوة هي الأساس التنظيمي للحركة الكونية، وذلك باعتبار أن الوحي المنظم لواقع الدعوة له صفة الناموس المنظم للواقع الكوني. ومن هنا قال ورقة بن نوفل في الوحي: (إنه الناموس الذي يترل على الأنبياء)[176] إذ أن معنى (الناموس) لغة: نظام الملك.

ولما كانت صفة الاستمرار وصفة العموم وصفة الثبات هي أبرز صفات نظام الملك، فإن التقاء حقيقة الوحي والناموس جاء باعتبار تلك الصفات؛ فجاءت كلمة ورقة مثبتة لتلك الصفات (إنه الناموس) نظام الملك (الذي يترل) بصفة الاستمرار (علي الأنبياء) بصفة العموم.

وجاءت صفة الثبات من الربط بين الوحي الذي يترل على موسى والذي نزل على عيسى والذي نزل على محمد عليه السلام؛ وهي الحقيقة التي عبر عنها النجاشي بقوله: إن الذي قاله عيسى ويقول صاحبكم يخرج من مشكاة واحدة.

وقد أثبت القرآن صفة العموم من خلال الربط بين الوحي إلى جميع الأنبياء وبين النظام الكوني العام؛ وذلك في مثل قوله تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)، وقوله تعالى: (كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

---

[175] مدارج السالكين ص 92 ج 2

[176] البخاري في بدء الوحي (1/22) من حديث عائشة رضي الله عنها (2) الزمر: 62) 65

وحول هذا المفهوم يقول الأستاذ سيد قطب في فصل (شريعة كونية): إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه الله سبحانه قوانينه التي يتحرك بها والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء: (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً). إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره وقدرا يحركه وناموسا ينسقه. هذا الناموس ينسق بين مفردات هذا الوجود كلها، وينظم حركتها جميعا، فلا تصطدم، ولا تختل، ولا تتعارض، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة المستمرة إلى ما شاء الله.

كما أن هذا الوجود خاضع مستسلم للمشيئة التي تدبره والقدر الذي يحركه والناموس الذي ينسقه، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة أن يتمرد على المشيئة أو أن يتنكر للقدر، أو أن يخالف الناموس؛ وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب ولا الفساد إلا أن يشاء الله: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

والإنسان من هذا الوجود الكوني والقوانين التي تحكم فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود كله؛ فقد خلقه الله – كما خلق هذا الوجود – وهو في تكوينه المادي من طين هذه الأرض وما وهبه الله من خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه إنسانا إنما رزقه الله إياه مقدرا تقديرا. وهو خاضع من ناحية كيانه الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنه الله له، رضي أم أبي، يعطي وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان أن يعطيا جنينا وجوده؛ وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة، وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه، ويتنفسه بالقدر وبالكيفية التي أرادها الله له، وهو يحس، ويتألم، ويجوع، ويعطش، ويأكل، ويشرب، ويمثل الطعام والشراب. وبالجملة يعيش وفق ناموس الله عن غير إرادة منه ولا اختيار؛ شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه: في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه، والله الذي خلق هذا الوجود الكوني، وخلق الإنسان، والذي أخضع الإنسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني، وهو سبحانه الذي سن للإنسان (شريعة) لتنظيم حياة الإدارية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية. فالشريعة على هذا الأساس، إن هي إلا قطاع من الناموس الإلهي العام الذي يحكم فطرة الإنسان وفطرة الوجود العام وينسقها كلها جملة

واحد. وما من كلمة من كلمات الله، ولا أمر، ولا نهي، ولا وعد، ولا تشريع، ولا توجيه، ألا هي شطر من الناموس العام[177].

وإذا كان هذا (الناموس) الجامع للنظام الشرعي الكوني هو الأساس لحقيقة كونية الشريعة؛ فإنه أيضا أساس لحقيقة شرعية الكون. وهو ما يعني أن الكون قائم على حقيقة المضمون الشرعي.

ولعل تسبيح كل شيء بحمد الله أساس في هذا المعنى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ). حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم يبين أن وقوع الصيد مرده إلى قلة تسبيحه[178]. ولا يتوقف الأمر عند حد (التسبيح)، فهناك (الدعاء). روي الإمام أحمد أن سليمان بن داود خرج يستسقي فرأي نملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا عن سقياك ورزقك إما أن تسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم[179].

ولا يتوقف الأمر عند التسبيح والدعاء؛ فهناك (السجود والصلاة): (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)، ويدل على هذا أيضا قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ).

وقول: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ)، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودي فسمعتها تقول وهي ساجدة: اللهم اكتب لي بها عندك أجرا، واجعلها لي عندك مدخرا، وضع بها عني وزرا واقبلها كما قبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس رضي الله عنه: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة، ثم سجد، فسمعته يقول وهو ساجد كما حكي الرجل عن كلام الشجرة[180].

---

[177] معالم في الطريق: فصل شريعة كونية. الأستاذ سيد قطب 0

[178] كما ورد بذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد.

[179] عزاه الحافظ ابن كثير في التفسير (5/277) إلى ابن حاتم من طريق زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان يستسقي

[180] حسن: أخرجه الترمذي في الصلاة رقم (579)، وابن ماجه في الصلاة رقم (1053)، وفي سنده الحسن بن عبيد الله فيه كلام والحديث أخرجه الحاكم (129 - 220 - 1)، وصححه ووافقه

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: رأى رؤية أنه يكتب (ص)[181] فلما بلغ الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته ينقلب ساجدا قال: فقصصتها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل يسجد بها بعد[182].

ولكن شريعة الكون لا تتوقف عند حد التسبيح والدعاء والسجود، بل أن هناك الحقيقة المروعة وهي إقامة الحدود.

الكون يقيم الحدود...

هذا كما روي البخاري عن عمرو بن ميمون قال: رأيت في الجاهلية قردا وقردة زنيا فاجتمع عليهما القرود فرجموها حتى ماتا[183].

يقول ابن القيم: فهؤلاء القرود أقاموا حد لله حين عطلة بنو ادم، وهكذا فطر الحيوان على قبح الزني وعقوبة الزاني وكذلك قبح الكذب وعقوبة الكذاب، كما قال ابن القيم: وقد حدثني صاحب لي ان نملة خرجت من بيتها فصادفت شق جرادة فحاولت أن تحمله فلم تطق في مكانه فلم تجده، فانصرفوا، وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر فذهبت وجاءت بهم فرفعته فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مرارا فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها وقطعوها عضوا عضوا، قال شيخنا – يقصد ابن تيمية – وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذه نملة فطرها الله سبحانه على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

والوحدة التظيمية بين الكون والدعوة قائمة باعتبار ان الحركة الإسلامية والنظام الكوني فإن التوافق لمعالجة تلك المفارقة يتحقق بتغيير النظام الكوني، ودليل ذلك هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غزي نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع أمراة وهو يريد ان يبني بها ولما بين بها، ولا أحد بني بيوتا و لم يرفع سقوفها، ولا احد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر ولادها، فغزا فدنا من القرية، صلاة العصرأو قريبا من

الذهبي، وصححه أيضا العلامة أحمد شاكر في شرح الترمذي وإنما هو حسن فقط. كما قاله الحافظ في تخريج الأذكار 0

[181] سورة ص

[182] أخرجه أحمد في المسند من طريق بكر بن عبد الله المزني سعيد قال الحافظ ابن كثير: تفرد به أحمد

[183] أخرجه البخاري في المناقب (7/156) من قول عمرو بن ميمون الاودي المخضرم المشهور.

ذلك، فقال الشمس: إنك مأمورة اللهم أحسبها علينا فحبست حتى فتح الله عليه)[184]، وأي معجزة باعتبارها خرقا للنظام الكوني بمقتضي ضرورة دعوة دليل على هذا المعنى.

وكما ارتبط الكون بمحور حركته بنظام الحركة الإسلامية ارتبط مفهوم النعم بامكانيات الدعوة،

ومن خلال هذا الارتباط جاء ذكر النعم الكونية كضرورة أساسية للدعوة ومال ذلك قول الله عز وجل وعليها وعلى الفلك تحملون ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم أعبدوا الله مالكم من اله غيره إلى قوله فأوحينا إليه ان اصنع الفلك باعيننا ووحينا فبعد ان عددت الصورة نعم الله عز وجل الكونية كان أخرها نعمة الفلك التي جاء بعدها ذكر قصة نوح وصنع الفلك يوحي الله فكانت نعمة الفلك من البداية ضرورة من ضرورات الدعوة في قصة نوح عليه الصلاة والسلام.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: (ولقد ارسلنا رسلنا بالبيناتا وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب أن الله قوي عزيز)، فجاء ذكر نزول الحديد كضرورة من ضرورات الدعوة مع نزول الكتاب والميزان.

وفي الحقيقة ان اجتماع الأحكام الشرعية والاقدار الكونية تحت حقيقة الناموس باعتباره الوحي العام الجامع لهما له مظهر هام جدا وهو الرؤية.

ذلك أنها (وحي) متعلق (بأقدار كونية)، وبذلك تجتمع في الرؤية الأبعاد الثلاثة: الوحي الشرعي والقدر الكوني والإنسان المسلم وأصبح معالجة هذه الظاهرة بهذا الاعتبار ضرورة مؤكدة. وفي الرؤي يقول ابن القيم: الرؤيا الصادقة هي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (ان الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة)[185].

وقد قيل في سبب هذا التخصيص المذكور أن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة ثم أنتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث سنوات وعشرين سنة من

[184] البخاري في مواضع: منها في الجهاد (6/220) من حديث أبي هريرة وذلك مسلم في الجهاد أيضا رقم (1747).

[185] البخاري في (التعبير) (4- 12/4)، ومسلم في (الرؤيا رقم)، (2263) من حديث أبي هريرة مرفوعا.

حيث بعث إلى ان توفي صلوات الله وسلامه عليه فنسبه مدة الوحي في المنام من ذلك جزء ستة واربعين جزءا. وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة: (أنها جزء من سبعين جزءا)[186]. وقد قيل في الجمع بينهما أن ذلك بحسب حال الرائي؛ فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين. والله أعلم.

والرؤيا مبدأ الوحي. وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثا وهي عند اقتراب الأزمان لا تكاد تخطيء. كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[187] وذلك لبعد النبوة وآثارها فيتعوض المؤمنين بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

نظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عهد صحابة النبي صلى الله عليه وسلم و لم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم، وقد نص أحمد على هذا المعنى. وقال عبادة بن الصامت: رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات)[188]، قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: (الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تري له)، والرؤيا كالكشف: منها رحماني، ومنها نفساني، ومنها شيطاني. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤية تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام)[189]. والذي هو من أسباب الهداية هو الرؤيا التي من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي؛ فإنها معصومة من الشيطان، وهذا باتفاق الأمة؛ ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام؛ بالرؤيا. وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح: فإن وافقته وإلا لم يعمل بها. فإن قيل: فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة أو تواطأت؟ قلنا: متى كان كذلك استحال مخالفتها للوحي؛ بل لا تكون إلا مطابقة له منبهة عليه أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه؟ لم يعرف الرائي اندراجها فيه، فيتنبه على ذلك.

---

[186] أخرجها مسلم في الرؤيا رقم (2265) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها 0

[187] مسلم من حديث أبي هريرة رقم (2263) بلفظ: (إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب. أصدقهم حديثا... ألخ 0

[188] البخاري في التعبير باب المبشرات

[189] مسلم في (الرؤيا) رقم (2263)، وهو من تمام الحديث قبل السابق0

ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة على الأمر والنهي، ولينم على طهارة كاملة مستقبلا للقبلة، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه فإن رؤياه لا تكاد تكذب البتة.

وأصدق الرؤيا رؤيا الأسحار[190]، فإنه وقت النزول الإلهي واقتراب الرحمة والمغفرة وسكون الشياطين. وعكسه رؤيا العتمة عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية.

وللرؤيا ملك موكل وكل بها يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله فيضرب بها لكل أحد بحسبه.

ولأجل أن الرؤيا وحي؛ فإن تفسيرها يخضع لأحكام الشرع.

ولتلك الحقيقة عدة قواعد:

الأولى: النهي عن تفسير الؤي بغير علم؛ لقول الإمام مالك الرؤيا من الوحي زاجرا من يفعل ذلك بقوله: (لا تتلاعب بوحي الله).

الثانية: إخضاع تفسير الرؤي لأصول الفقه. ودليل ذلك أن تواطؤ الرؤي من عدة أشخاص له صفة الإجماع المؤكد للصواب. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بتواطؤ رؤيا الصحابة مثلما كان في ليلة القدر؛ حيث رأي الصحابة أنها في العشر الأواخر من رمضان فقال النبي: (رأي رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر؛ فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان)[191].

ولذلك يطبق أبو الحسن البصري في تفسير الرؤي أحكام الفتوي؛ مثل ارتباط الفتوي بحال المستفتي. فعندما جاء إليه رجلان، وكلاهما قد رأي نفسه يؤذن، ولكن أحدهما يبدو عليه الصلاح، والثاني غير ذلك، فقال للأول: ستحج إن شاء الله، مستدلا بقول الله: (وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ)، وقال للثاني: إنك سارق، مستدلا بقول الله: (أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ).

---

[190] أخرج الترمذي (2275)، وأحمد في المسند (3/68) من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أصدق الرؤيا بالأسحار)

[191] البخاري في (قيام الليل) 0

الثالثة: الأستناد في تفسير الرؤي على تفسير القرآن، وهذا ما فعله عمر بن الخطاب عندما رأي رجل من عماله رؤيا فيها أن الشمس والنجوم يتقاتلان، وأن الرجل كان يقاتل مع النجوم فقال له: لا تعمل لنا؛ فإن الله يقول: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً).

ولعلنا نلاحظ قيمة الرؤي من خلال قرار عمر بجعل الرجل لا يعمل له؛ وقد أدرك عمر قيمة الرؤي عندما كان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل الصحابة كل صباح: (من منكم رأي رؤيا)[192] ليتبين قدر الأمة ويتوسمه من خلالها.

الولاء الكوني للحركة الإسلامية:

وإذا كانت عناصر الولاء هي الحب والنصرة والطاعة. فقد تحققت هذه العناصر الثلاثة تحقيقا كونيا تجاه الحركة الإسلامية.

أ) الحب:

أما الحب فهو طبيعة العلاقة بين الكون والدعوة؛ فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى أحد قائلا: (هذا الجبل يحبنا ونحبه)[193]. وإذا كان الكون كله يحب الدعوة وأصحابها؛ فإن اختصات جبل أحد بذلك له حكمة طيبة وهو إثبات الموقف الحقيقي للجبل الذي هزم عنده المسلمون؛ وإنه لا علاقة بين الجبل وهزيمة المسلمين وأنه يحبنا ونحبه. ولقد بلغ حب الجبل أن يهتز عندما يصعد عليه الرسول وأبو بكر وعمر وعثمان فيقول له الرسول: (اثبت أحد إن عليك نبيا وصديقا وشهيدان)[194]. ولعلنا نلحظ صيغة الحديث النبوي إلى الجبل: (اثبت أحد)، فنشعر أنها صيغة المعرفة والمودة الكاملة.

وقد شمل حب الكون للدعوة أضخم العناصر وأصغرها فبجانب الجبل الذي يحبنا ونحبه كان الحجر الذي يسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال عليه الصلاة

---

[192] البخاري في (التعبير) [13/438] من حديث سمرة بن جندب

[193] البخاري في المغازي وفي مواضع من صحيحه ومسلم في الحج (1392)، (1393) من حديث أنس وسهل بن سعد 0

[194] البخاري في (فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) (7/22)، ومسلم في (فضائل الصحابة) رقم (2417) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والسلام: (إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث وأنا أعرفه الآن)[195] فالمعرفة قديمة متبادلة، والود محفوظ على مر الزمان.

وها هو الحب يبلغ مداه عندما يبكي جزع الشجرة الذي كان يخطب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ويسمع له أنين كما جاء في الحديث (كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب على جزع نخلة، فلما صنع للرسول منبر ترك الجزع فسمع له أنين كأنين العشار، و لم يسكت حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم واحتضن الجزع)[196].

ب) النصرة:

والنصرة الكونية لواقع الدعوة تبدأ بإثبات موقف التأييد لأصحاب الدعوة والعداء لأعداءها ودليل ذلك؛ قول الله عز وجل في إدعاء الولد لله: (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً). هذا هو موقف السموات والأرض والجبال من الادعاء الباطل.

والنصرة الكونية لواقع الدعوة لا تتوقف عند حد إثبات موقف التأييد لها والعداء لأعدائها بل تتجاوزه إلى التأييد الفعلي عند القدرة عليه؛ ومن أدلة ذلك هو قول الحجر للمسلم في آخر الزمان: (ورائي يهودي تعال فاقتله)[197]. ولعل مشاركة اليم في قصة موسى من أدلة هذه الحقيقة؛ كما جاء في قوله تعالى: (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ).

ويصل هدهد سليمان بالولاء الكوني للدعوة إلى كماله وجماله عندما يمارس الدعوة بصورة مباشرة، بل ويقود سليمان النبي الملك إلى الموقف الذي أسلمت فيه ملكة سبأ ويملك الهدهد كل خصائص الداعية:

– قوة المواجهة... (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ)، وهكذا يخاطب الهدهد سليمان الملك النبي.

---

[195] مسلم في (الفضائل) رقم (2277)، وهو في المسند أيضا (5/95) من حديث جابر بن سمرة مرفوعا 0

[196] البخاري في (كتاب الجمعة) [باب الخطبة على المنبر)، وفي مواضع أخرى من حديث جابر بن عبد الله 0

[197] البخاري في (الجهاد) باب قتال اليهود ومسلم رقم (2921) في الفتن.

- البصيرة في تقييم الهدهد الواقع... ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. هكذا يقيم الهدهد الواقع شرك بالله ومعرفة بالسبب وهو الشيطان وتزيينه العمل والصد عن السبيل.

- المنهج والعقيدة... ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

وفي هذا الموقف يقول ابن القيم: وهذا الهدهد من أهدي الحيوان وأبصره بمواقع الماء تحت الأرض لا يراه غيره. ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابة أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده فلما جاء بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾، وفي ضمن هذا إني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به وهو خبر عظيم به شأن فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، والنبأ هو الخبر الذي له شأن والنفوس متطلعة إلى معرفته.

ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه ولا ريب. فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته؛ وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج، ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفا مؤكدا بأدلة التأكيد فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾. ثم أخبر عن شأن تلك الملكة أنها من أجل الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله فقال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها، إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئه لها، ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم عن السبيل المستقيم وهو السجود لله ينبغي السجود إلا له، ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما يترل من السماء وما يخرج من الأرض. وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض. قال صاحب الكشاف: في إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض؛ وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته، ولطف عمله. ولا يكاد يخفي على

ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائة ومنطقة وشمائله، فما عمل آدمي عملا إلا ألقي الله رداء عمله.

ج) الطاعة:

وهناك حقيقة في الولاء الكوني، وهي ارتباط الوجود الكوني والحركة الكونية بالدعوة. فكل عنصر من العناصر الكونية له ملائكة تختص به. وهذه الملائكة لا تتصرف بذاتها بل أنها تخضع في حركتها لجبريل عليه السلام أمين الوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولعل من الأدلة الواضحة على هذه الحقيقة نزول جبريل وملك الجبال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيحين عن عائشة أن قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل أتا عليك يوم أشد من يوم احد. قال لقد لقيت من قومك مالقيت، وكان أشد مالقيت منهم يوم العقبة اذ عرضت نفسي على بن عبد ياليل بن عبد كلاب فلم يجبني إلى ما أردت، فأنطلقت وانا مهموم على وجهي، فلم أستفق الا وانا بقرب الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت وإذ فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعثوا إليك ملك الجبار لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسلم على ثم قال: يامحمد إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وأنا ملك الجبال، وقد بعثني إليك ربك لتأمرني بأمرك فيما شئت: أن شئت أن أطبق عليهم الأخشين لفعلت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولايشرك به شيئا[198].

الدعوة والمحورية الكونية:

وقد كان الارتباط القدري بين الامة الإسلامية وبيت الله الحرام أساسا في تحقيق اختصاص جوهري من الناحية الكونية ذلك أن بيت الله الحرام له مواقع كوني في غاية الخطورة، ويحدد هذا الموقع عدة أبعاد:

الأول: أن موضع البيت الحرام يقع تحت العرش وتحت البيت المعمور مما يعني أن بيت الله الحرام هو نقطة التوازن التي تجمع امتداد الكرة الارضية ثم تصلها بالسموات

[198] البخاري في بدء الخلق (22-6/213)، ومسلم الجهاد - ايضا رقم (1795) من حديث عائشة رضي الله عنها.

السبع، والبيت المعمور هو البيت الذي تتعبد فيه الملائكة لله عز وجل بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء في الصحيحين في حديث الإسراء بعد مجاوزة إلى السماء السابعة، ثم رفع إلى البيت المعمور واذ هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لايعودون إليه أخر ما عليهم[199] يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف به كما أهل الأرض بكعبتهم، وكذلك البيت هو كعبة أهل السماء السالعة ولهذا وجد ابراهيم مسندا ظهره إلى البيت المعمور لأنه هو الذي بني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصون إليه. والذي في السماء النيا يقال له بيت العزة[200].

الثاني: أن بيت الله الحرام هو مركز الثقل في كتلة الأرض وأوسط نقصه فيه[201]، ووقع في صحيح البخاري عن يزيد بن رومان كأسمنة الإبل.

قال ابن اسحق: (فحدثني بعض من يروي الحديث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ادخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الاساس،

المثال الكوني للدعاة:

واختصاص واقع الدعوة في التصور القدري مثال الكوني وهو النحل ولهذا يقول ابن القيم: ولما كانت النحلة من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشاركهما فيه غيرها، وكان الخارج من بطنها مادة الشفاء من الأسقام والنور الذي يضئ في الظلام بمترلة الهداة من الأنام، وكانت أكثر الحيوان أعداء وكان أعداؤها من أقل الحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم.

وأساس التماثل في الاختصاص بين الدعاه والنحل، هو حقيقة العلاقة بين الأداة والغاية في قدر الله سبحانه وتعالى، وتفسير هذه العلاقة أن الغاية عندما تكون قدرا الهيا

---

[199] البخاري في بدء الخلق 6/302 من حديث ملك بن صعصعة، ومسلم الايمان 164 من حديث أيضا

[200] تفسير ابن كثير سورة الطور.

[201] تم تسجيل بحث علمي بكلية الهندسة جامعة الرياض: يثبت أن الكعبة المشرفة هي وقد أورد ابن كثير في السيرة النبوية عن ابن اسحاق قصة تبين طبيعة العلاقة بين بيت الله الحرام والأرض: وذلك عندما قررت قريش أن تهدم الكعبة لتبنها من جديد حتى اذا انتهي الهدم الاساسي، اساس ابراهيم عليه السلام، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة أخذ بعضها بعضا.

خالصا فإن أداته لابد ان تكون هي الأخرى لها نفس الصفة، وإذا كان بقاء المركز لدائرة العالم كله، بحيث لو أردنا رسم دائرة للعالم لكان لزاما، وضع السن على الكعبة المشرفة ليمكن رسم هذه الدائرة.

هذا الدين قدرا ألهيا خالصا فان الدعوة هي أداة البقاء لهذا الدين، لابد، هي الأخرى أن تكون قدرا الهيا خالصا.

والدعاة إلى دين الله اصلا من أصول الدعوة التي ينطبق عليها تلك القاعدة وانطباق تلك القاعدة على الدعاة هو الذي يحتم أن يكون الايمان بالنبي أمرا قدريا وهو مايسمي من الناحية السلوكية الهاما ووحيا، وهو تفسير قول الله تبارك وتعالي: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي).

والانتقال بتلك القاعدة إلى النحل لإثبات التماثل في مفهوم الاختصاص من خلال الوحي، هو الذي يفسر لنا قول الله عز وجل: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً).

وبادئ ذي بدء فإننا نعلم أن الكون كله قائم بحقيقة الهداية لقوله تعالى: (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)، وقول لله عز وجل: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى).

وعلى هذا فأن أختصاص النحل لايمكن أن يكون الا اختصاص كونيا لهذا النوع دون سائر الأنواع.

وبرغم الملاحظة المتعلقة بالوحي إلى النحل الا اننا لانجده يتعدي السلوك التقليدي لأي حيوان: (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)، وهو الأمر المعتاد في كل السلوك الحيواني المماثل للنحل لنفهم من هذه الملاحظة أن حركة النحل بصفتها العادية التقليدية وحيا من الله ومن هنا يكون التساؤل ولماذا يكون حركة النحل التقليدية وحيا من الله؟

وتطبيق قاعدة العلاقة بين الأداة والغاية، في قدر الله، هو الإجابة على التساؤل. وتطبيق تلك القاعدة على النحل يبدأ بتحديد حقيقة الاختصاص في النحل والذي يتحدد من خلال ظاهريتن:

الأولى: أن النحل هو الحيوان الوحيد القادر على تحديد النوع في تكاثره فعندما يلقح الذكر الملكة فإنها تحمل لقاح الذكور والإناث، ثم تحدد بنفسها القدر المطلوب من الذكور والإناث، وتحديد النوع هو في الأصل، فعل قدري خالص ومن هنا لزم أن تكون كل حياة النحل وحيا من الله ليتم من خلاله اختيار النوع ليكون هذا الاختيار وحيا من الله وقدرا خالصا.

الثانية: أن النحل هو الذي يخرج من بطونه العسل. وحقيقة الاختصاص في هذا أن العسل مادة ليس لها مثيل من حيث كونها شفاء، بالمعنى المطلق، باعتبارها دواء من كل داء، ولا يسبب عرضا ضارا بأي حال من الأحوال مما تقتضي أن لا تخرج النحلة عن حدود الإلهام الذي يحقق فيها الخير المناسب لأن تكون أداة لإخراج العسل بصفته الكونية الخاصة.

ونعود إلى ما فهمناه من ملاحظة الوحي إلى النحل وهو أن المقصود أن تكون حركة النحل وسلوكه بالصفات العادية والتقليدية وحيا من الله.

ومن منطق التماثل في الاختصاص القدري بين واقع الدعوة والنحل كان تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم الدعاة بالنحل في قول (إن مثل المؤمن كالنحلة كانوا في الناس كالنحلة في طيرانه)[202]، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام عندما رأي بلالا ينتقل في قراءاته للقرآن بين السور والآيات: (إن مثل بلال كالنحلة تأكل طيبا وتضع طيبا، ثم هو حلو كله)[203].

غير أن هناك تشبيها جامعا من النبي صلى الله عليه وسلم للدعاه يجمع صفتين أساسيتين للدعاه وهي صفة المعدن الغالي القليل في الأرض بجانب صفة النحل، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفس محمد بيده أم مثل المؤمن لكمثل القطعة من الذهب نفخ عليها صاحبها فلم تغير و لم تنقص والذي نفس محمد بيده ان مثل المؤمن لكمثل النحلة أكلت طيبا ووضعت طيبا ووقعت فلم تكسر و لم تفسد...).

[202] أخرجه ابن حبان رقم (247)، والطبراني في الكبير (19/204) من حديث أبي رزين بلفظ: (مثل المؤمن مثل النحلة لا تأكل إلا طيبا وتضع إلا طيبا)، وغيرهم وسنده حسن 0

[203] أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (181) من حديث أبي هريرة بلفظ: (مثل بلال كمثل نحلة غدت تأكل من الحلو والمر ثم هو حلو كله)، وفيه دارج أبو السمح عن أبي الهيثم وهو ضعيف في أبي الهيثم ومع ذلك حسنه الهيثمي في المجمع (9/300) فتساهل 0

وفي إطار المقارنة بين الدعاه والنحل جاء قول علي بن أبي طالب: (كونوا في الناس كالنحلة في طيرانها ليس من الطير شيء إلا وهو يستضعفها ولو يعلم الطير ما في اجوافها من البركة لم يفعلوا ذلك بها.

اختصاص الدعوة من حيث مفهوم الجمال الكوني:

والحقيقة أن هذا الاختصاص أمر يجب أن يدرك فإن الدعوة بكل عناصرها مقاييس مطلقة للجمال.

المصحف... كتاب الله منهج الدعوة... مقياس مطلق الجمال:

وهكذا كان يراه الصحابي الذي وصف النبي صلى الله عليه وسلم عند موته فقال:.. (وكأنه وجه ورقة مصحف)، لم يقل كالقمر ولكنه قال: ورقة مصحف، وهذا هو التصور الإسلامي لجمال النبي... رسول لله... وصاحب الدعوة... مقياس بشري للجمال.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيرا وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)، وهكذا كان يراه الصحابي الذي وصفه عندما كان يخطب فيقول: وَكَأَن الشمس تجَري في وجه. كان عرقه مسك. وهكذا كانت تفعل أم سليم... كانت تأخذ عرقه وتتطيب به

وبنفس التصور الإسلامي للجمال يحدد ابن القيم أجمل الثياب ونفاجا أنها عنده ثوبان: ثوب كان يلبسه النبي لاستقبال الوفود وليس الجمال فيها لذاتها ولكن الجمال فيها أنها لاستقبال الوفود والدليل على ذلك هو الثوب الثاني أداة الحرب. فبالطبع ليس في زي القتال جمالا في ذاته ولكن الجمال فيه أنه للقتال.

يقول ابن القيم: الجمال في الصورة واللباس والهيأة ثلاثة أنواع: منه ما يحمد، ومنه ما يذم، ومنه ما لا يتعلق به مدح ولا ذم. فالمحمود منه ما كان لله وأعان على طاعة الله وتنفيذ أوامره والاستجابة له كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجمل للوفود وهو نظير لباس آلة الحرب للقتال، ولباس الحرب والخيلاء فيه فإن ذلك محمود إذا تضمن إعلاء كلمة الله ونصر دينه وغيظ عدوه...

والشهداء، رجال الدعوة، أرواحهم في حواصل طير خضر معلقة في قناديل في عرش الرحمن... صورة جمالية رائعة... طير خضر... الجنة... قناديل معلقة... عرش الرحمن...

والبقعة الأرضية التي انطلقت منها الدعوة روضة من رياض الجنة كما قال صلى الله عليه وسلم: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)[204].

وأمة الدعوة التي هي خير أمة أخرجت للناس يضرب لها النبي صلى الله عليه وسلم مثلا فيكون هذا المثل هو الحديقة: (مثل أمتي كالحديقة أطعم منها فوج عاما، ثم أطعم منها فوج عاما، ثم أطعم منها فوج عاما لعل آخرها أن يكون أعرضها عرضا وأعمقها عمقا وأحسنها حسنا)[205].

الدعوة أجمل شيء وأحسن شيء بل أنها هي التي تعطي للوجود حسنه وجماله: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ). خامسا: اختصاص واقع الدعوة من حيث السنن:

وبعد معالجة اختصاص واقع الحركة الإسلامية من خلال الحكمة وهي أصل الأسماء والصفات من خلال الواقع بصفته البشرية وصفته الكونية بصورة مستقلة.

فإننا نعالج الاختصاص القدري لواقع الحركة الإسلامية بصفتيه البشرية والكونية بصورة جامعة، أي الاختصاص الجامع للصفتين معا وهي قضية السنن حيث أن السنن هي القواعد الحاكمة للواقع البشري والكوني في وقت واحد باعتبار أن السنة هي فعل الله وعادته في جميع خلقه.

واختصاص واقع الدعوة من حيث السنن يقوم على ثلاث مقتضيات:

- مقتضى طبيعة الحق.
- مقتضى طبيعة الدين.
- مقتضى طبيعة الدعوة.

---

[204] سبق تخريجه قريبا وهو صحيح 0

[205] أخرجه أبو نعيم من حديث عبد الرحمن بن سمرة. انظر كتر العمال رقم (12/34570)

وبمقتضي طبيعة الحق... تكون سنة قلة أهله وابتلائهم وبقائهم... وفي النهاية غلبتهم.

أما سنة قلة أهل الحق ففيها يقول ابن القيم: فإن قيل فما الحكمة في كون الكفار أكثر من المؤمنين، وأهل النار أضعاف أهل الجنة، كما قال تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)، وقال: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، وقال: (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)، وقال: (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ).

وبعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة وكيف نشأ هذا عن الرحمة الغالبة، وعن الحكمة البالغة وهلا كان الأمر بالضد من ذلك؟!

قيل هذا السؤال من أظهر الأدلة على قول الصحابة والتابعين في هذه المسألة وأن الأمر يعود إلى الرحمة التي وسعت كل شيء، وسبقت الغضب، وغلبته؛ وعلى هذا فاندفع السؤال بالكلية.

ثم نقول المادة الأرضية اقتضت حصول التفاوت في النوع الإنساني، كما في المسند والترمذي عنه صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فكان منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن)[206] وغير ذلك. فاقتضت مادة النوع الإنساني تفاوتها في أخلاقهم وإرادتهم وأعمالهم، ثم اقتضت حكمة العزيز الحكيم أن ابتلي المخلوق من هذه المادة بالشهوة والغضب، والحب والبغض ولوازمها، وإبتلاه بعدوه الذي لا يألوه خبالا ولا يغفل عنه، ثم ابتلاه مع ذلك بزينة الدنيا وبالهوي الذي أمر بمخالفته، هذا على ضعفه وحاجته، وزين له حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسمومة والأنعام والحرث، وأمره بترك قضاء أوطاره وشهواته في هذه الدار الحاضرة العتيدة المشاهدة إلى دار أخرى غايته إنما تحصل فيها بعد الدنيا والذهاب بها.

وكان مقتضى الطبيعة الإنسانية ان لا يثبت على هذا الابتلاء أحد، وأن يذهب كلهم مع ميل الطبع ودواعي الغضب والشهوة فلم يحل بينهم وبين ذلك خالقهم وفاطرهم، بل أرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وبين لهم مواقع رضاه وغضبه ووعدهم على مخالفة هواهم وطبائعهم أكمل اللذات في دار النعيم فلم تقو عقول الأكثرين على إيثار الآجل المنتظر بعد زوال الدنيا على هذا العاجل الحاضر المشاهد،

[206] سبق تخريجه في أول الكتاب وهو في المسند 0

وقالوا كيف يباع نقد حاضر، وهو قبض باليد، بنسيئة مؤخرة وعدنا بحصولها بعد طي الدنيا وخراب العالم، ولسان حال أكثرهم يقول: خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به.

فساعد التوفيق الإلهي من علم أنه يصلح لمواقع فضله فأمده بقوة إيمان وبصيرة رأي بضوئها حقيقة الآخرة ودوامها؟ وما أعد الله فيها لأهل طاعته وأهل معصيته، ورأي حقيقة الدنيا وسرعة إنقضائها وقلة وفائها وظلم شركائها وأنها كما وصفها الله سبحانه: لعب ولهو وزينة وتفاخر بين أهلها وتكاثر في الأموال والأولاد وأنها كغيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما.

فلو كان أهل الخير والايمان هم الأكثرين الغالبين لفاتت مصلحة الجهاد وتوابعه التي هي من أجل أنواع العبودية وفات الكمال المترتب على ذلك فلا أحسن مما اقتضاه حكمة أحكم الحاكمين.

كما هو الواقع في جوهر المعادن المنتفع بها من الذهب والفضة والحديد والصفر: فخلاصة هذه المواد وطيبها أقل من وسخها وخبثها، والناس زرع الأرض، والخير الصافي من الزرع بعد زوارته وقصله وعصفه وتبنه أقل من بقية الأجزاء وتلك الأجزاء كالصور له والوقاية، كالحطب والشوك للثمر، والتراب والحجارة للمعادن النفيسة

وكذلك قوله: ويجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددا. كما يرتبط بهذه السنة كثرة أعداء أهل المنفعة في هذا الوجود، ومثال ذلك ماقال ابن القيم في النحل: لما كانت النحلة من أنفع الحيوان وأبركه قد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من الأسقام، والنور الذي يضيئ في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام وكان أكثر الحيوان أعداء وكان أعداؤها من أقل لحيوان منفعة وبركة، وهذه سنة في خلقه وهو العزيز الحكيم، ولهذا يشبه النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالنوق الكثيرة التي يندر فيه مايصلح للانتفاع بها في قوله عليه الصلاة والسلام: تجدون الناس كإبل مائة لايجدون الرجل فيها راحلة[207].

وهذه سنة قلة أهل الحق.

[207] البخاري في الرقائق رفع الأمانة ومسلم في فضائل الصحابة رقم 2547

أما سنة ابتلائهم؛ ففيها يقول ابن القيم: والبلاء من سنن إظهار الحق إذ به يظهر صدق الايمان كما قال الله تعالى: (الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

وفي تفسير الآية يذكر ابن القيم في كتاب الفوائد، نقلا عن ابن تيمية، قوله: فالناس إذا ارسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهما أمنا، واما ان لا يقول امنا بل يستثمر على عمل السيئات، فمن قال أمنا امتحنه الله عز وجل وابتلاه وألبسة ثوب الابتلاء والاختبار ليبين الصادق من الكاذب، ومن امن بالرسل وأطاعهم عاداه الناس واذوه فابتلي بما يؤلمه، وإن لم يؤمن بهم، أي بالرسل، عوقب فحصل له مايؤلمه أعظم وأدوم فلابد من حصول الألم لكل نفس أمنت أم كفرت.

ويرتبط بسنة البلاء، كإظهار للحق، قدر النصر، وذلك كما في قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ).

وكذلك قدر التمكين ولهذا سأل رجل الشافعي: إهما أفضل للرجل: أن يمكن أو يبتلى؟ قال الشافعي: لايمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلي نوحا وابراهيم وموسي وعيسى وحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أنه يخلص من الألم البتة.

ودوران الأحوال بين البلاء والتمكين هو التحقيق لسنة الايام بين الناس، ولهذا قوله تعالى: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ).

ويقول ابن القيم: وقد سبقت الحكمة الالهية أن المكاره أسباب اللذات والخيرات كما قال تعالى: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة ونعمة سابغة وحكم ونهي وتصريف ذاك على ربوبيته وإلهيته وحمده، وكذلك ابتلاء عبادة بالخير والشر في هذه الدار من كمال حكمته ومقتضي حمده التام، ولولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد، والعفة والشجاعة، والحلم والعفو والصفح، والله سبحانه وتعالى يحب أن يكرم أوليائه بهذه الكلمات، ويحب ظهورها عليهم ليثني بها

عليهم هو وملائكته وينالو بأتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور، وان كانت مرة المبادي فلا أحلي من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمة ممتنع، وقد جرى الله سبحانه وتعالى وحكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها، ونقصانها، فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غايتها ومن حرمها حرمها، ومن نقصها نقص له في غايتها، وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب، وكفي بهذا العالم شاهدا لذلك فرب الدنيا والاخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما وله الحمد في الأولى والأخرة وله الحكم واليه ترجعون،

ومما يجب اليقين به هو أن أفضل العطاء وأجله على الاطلاق والايمان وجزاؤه وهو لايتحقق الا بالامتحان والاختبار، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه ولكن اقتضي عدله وحمده أنه لايجزي العباد بمجرد علمه فيهم بل بمعلومه إذا وجد تحقيق، والفتنة هي التي أظهرته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

فمن أمن بالله وبرسله فلابد أن يبتلي من أعدائه وأعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلابد أن يعاقبه فيحصل له من الالم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين.

فلابد من الحصول ألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له ألم في الدنيا أشد، ثم ينقطع، ويعقبه أعظم لذة، والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء، ثم تعقبها الالام بحسب مانالوه منها، والذين يصبرون عنها يتألمون بفقدها ابتداء ثم الألم اللذة والسرور بحسب ماصبروا عنه وتركوه منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل أنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير الاجل الدائم العظيم بون. ولهذا كان خاصة العقل المنظر في العواقب والغايات، فمن ظن أه يتخلص من الألم لايصيبه البتة فظنه أكذب الحديث، فإن الأنسان خلق عرضه للذة والالم، والسرور، والفرح والغم.

وارتباط النصر والتمكين بالبلاء إنما يكون تحقيقا لصلاحية أهل الحق في مهمة دفع الباطل، سواء كان بتفكير ذنوبهم أو برفع درجاتهم، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل[208] باعتبار ان الانبياء والأمثل فالامثل هم القائمون بدفع الباطل وأهله.

وعلى أساس تصور البلاء كسنة حتمية في قدر الله، يتحدد الموقف الصحيح تجاه هذه السنة فإن الموقف الصحيح من البلاء هو الحذر من السعي إليه والعمل على دفعة قبل

---

[208] أخرجه الحاكم (4/404) من حديث فاطمة بنت اليمان، وصححه الالباني في الصحيحة (1165)

وقوعه وعدم التقصير في دفعه أثناء وقوعه والتسليم بقدر الله فيه بعد وقوعه، لأن السعي إلى البلاء لن يجعله بقدر الأيمان، ولهذا نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو فقال: لاتتمنوا لقاء العدو وأسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فأثبتوا[209] وواضح من النص النهي عن السعي للبلاء والأمر بسؤال الله العافية والثبات والصبر إذا كان البلاء أمرا واقعا.

كما يحذر النبي صلى الله عليه وسلم من تحمل البلاء الذي لايطاق فيقول: لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه: كيف يذل نفسه يا رسول الله؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق[210]. وتفسير ذل النفس في تحمل مالايطاق معناه تضاؤل الانسان أمام نفسه وأمام غيره بعد إقحامها في مجال أو مرحلة أو موقف بغير أمكانية، إذ أن لهذا التصرف نتيجتين: إما التراجع وهو ذل النفس، أو الاستمرار وفيه استمرار العجز وهو أيضا الذل الذي لايحل لمسلم أن يذيقه لنفسه.

وكما يمنع الموقف الصحيح من البلاء أن نسعي إليه قبل وقوعه فإنه لايمنع بعد وقوعه محاولة دفعة، ولهذا يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم دفع البلاء بقوله: الدعاء والبلاء يعتلجان في السماء[211].

غير أنه في الأمر بدفع البلاء حقيقة منهجية هامة، وهي أن يقوم التحديد المنهجي للدعوة والتخطيط لها على أساس تفادي حدوث البلاء بشرط الا يطغي هذا التحديد على مقتضيات الدعوة، ومثال ذلك أنه إذا كان القتال من مقتضيات الدعوة فإن تفادي البلاء يعني الأخذ بأسباب الحذر وجمع الأمكانيات، ولكنه لايعني التخلي عن هذا الأسلوب إذا جاء وقته وظروفه، وهذا هو الحد الفاصل بين النهي عن السعي إلى البلاء وبين الهروب من تكاليف الدعوة الشرعية، والبلاء أهم مظاهر عدل الله في العباد، حيث تقدم أن البلاء مقدمة للنصر والتمكين فيكون هذا النصر ولك التمكين جزءا عادر على الصبر على البلاء والثبات فيه، وكذلك يكون البلاء بقدر الايمان، وبهذا يكون عدل البلاء.

---

209 البخاري في الجهاد باب لاتتمنوا لقاء العدو، ومسلم في الجهاد (1741)

210 أخرجه الترمذي في الفتن رقم 2245 من حديث حذيفة مرفوعا وقال حسن صحيح.

211 أخرجه الحاكم في الدعاء 1/492 والبزار رقم 3136 و 2164 وسنده ضعيف من أجل إبراهيم بن خثيم وزكريا بن منظور في الإسناد الأخر عند البزار والحديث صححه الحاكم وتعقبه الذهبي بأن زكريا مجمع على ضعفه.

وقد تقدم أيضا أن البلاء تحقيق لمداولة الأيام بين الناس حيث لاتكون هذه المداولة الا بالعدل، ولهذا يذكر ابن القيم يكون البلاء محققا لعدل الله في العباد فيقول في كل من أعرض عن الحق: أن كل من أعرض عن شئ من الحق وجحده وقع في الباطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده. ولابد حتى في الأعمال أن من لم يعمل لوجه الله وحده ابتلاء الله بالعمل لوجوده الخلق فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده فابتلي بالعمل لمن لايملك له شيئا من ذلك، وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتلي بالأنفاق لغير الله وهو راغم، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلي بالتعب في خدمة الخلق ولابد كذلك من رغب عن الهدى بالوحي ابتلي بحثالة الاراء وزبالة الأذهان ووسخ الأفكار.

ولهذا فللعبد عدة مشاهد فيما يصيبه من أذي الخلق وجنايتهم عليه.

ويحدد ابن القيم التصور القدري لتحمل البلاء في عدة مشاهد فيقول:

مشهد القدر: وان ما جرى عليه بمشيئة وقضائه وقدره فيراه كالتأذي بالحر والبرد والمرض والالم فإن الكل أوجبته مشئة الله.

مشهد الصبر: إذ يشهد وجوبه وحسن عاقبته وجزاء أهله وما يترتب عليه من الغبطة والسرور، ويخلصه من ندامة المقابلة والانتقام، فما انتقم أحد لنفسه قط الا أعقبه ذلك ندامة.

مشهد العفو والصفح والحلم: ما زاد الله عبدا يعفوا الا عزا[212]، كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعلم بالتجربة والوجود، وما انتقم أحد لنفسه إلا زاد الله ذلا.

مشهد الرضى: وهو فوق مشهد العفو والصفح، وهذا يكون الا للنفوس المطمئنة، سيما أن كان ما أصيب به سببه القيام لله فإذا كان ما أصيب به في الله وفي مرضاته ومحبته رضيت بما لها في الله وهذا شأن كل محب صادق.

مشهد الأحسان: وهو أن يقابل إساءة المسيئ بالاحسان، ويهون هذا علمه بأن ربح عليه، وعلمه بأن الجزاء من جنس العمل وأن الله لايقابله بالإحسان أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له.

---

[212] مسلم في صحيحه (كتاب البر) [2588) من حديث أبي هريرة ولفظه بكامله (ما نقصت صدقة من مال زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) 0

مشهد السلامة وبرد القلب: وهو أن لايشغل قلبه وسره بما ناله من الأذي وطلب الوصول إلى درك ثأره وشفاء نفسه بل يفرغ قلبه من ذلك ويري أن سلامته وبرده وخلوه منه أنفع له.

مشهد الجهاد: وهو أن يشهد تولد أذي الناس له من جهاده في سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلمته.

وصاحب هذا المقام قد اشترى الله منه نفسه وعرضه وماله بأعظم الثمن.

فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها فلا حق له على من آذاه ولا شيء له قبله إن كان قد رضى بعقد هذا التبايع فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضى الله عنهم، ولهذا منع النبي صلى الله عليه وسلم المهاجرين من سكني مكة، أعزها الله، ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله. فمن قام لله حتى أوذي في الله حرم الله عليه الانتقام كما قال لقمان لابنه: (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

مشهد النعمة: منها أن يشهد نعمة الله عليه في أن جعله مظلوما يترقب النصر ولم يجعله ظالما يترقب المقت والأخذ، ومنها أن يشهد نعمة تكفير الخطايا والذنوب، ومنها أن يشهد تلك البلية أهون وأسهل من غيرها، ومنها توفية أجرها وثوابها يوم الفقر والفاقة.

مشهد الأسوة: فإن العاقل اللبيب يرضى أن يكون له أسبوة برسل الله.

مشهد التوحيد: وهو امتلاء القلب بمحبة الله، والإخلاص له، وإيثار مرضاته، والتقرب إليه، واتخاذه وليا دون من سواه، وتفويض الأمر إليه حتى لا يبقي في قلبه متسع لشهود أذي الناس، فضلا عن التفكير في الانتقام؛ فإذا عاملهم بهذه المعاملة من إقامة أعذارهم والعفو عنهم وترك مقابلتهم، استوت كراهتهم ومحبتهم له، وكان ذلك سببا لنجاتهم الأخروية، ايضا إذ يرشدهم ذلك إلى القبول منه وتلقي ما يأمرهم به وينهاهم عنه أحسن التلقي، وهذه طباع الناس. وكما كان الغت والغط[213] من جبريل له صلى الله

[213] إشارة إلى احتضان جبريل لرسول الله صلى الله عليه وسلم والضغط عليه حتى بلغ منه الجهد ثلاث مرات وهو يقول له (إقرأ) 0

عليه وسلم مقدمة بين الوحي وإعدادا لوروده؛ فهكذا الشدة مقدمة بين يدي الفرج، والبلاء مقدمة بين يدي العافية والخوف الشديد... مقدمة بين يدي الأمن وقد جرت سنة الله، سبحانه، أن هذه الأمور النافعة المحبوبة إنما يدخل إليها من أبواب أضدادها.

وفي تفسير قول الله: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ).

يقول ابن القيم: لما كان الممتحن لا بد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به، وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك ويكفره عنه لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله. ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء وأنه إذا أوذي في الله، كما جرت به سنة الله واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والآذي، لم يصبر على ذلك وجزع منه وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله؛ وهذا يدل على عدم البصيرة وأن الإيمان لم يدخل قلبه ولا ذاق حلاوته حتى سوي بين عذاب الله له على الإيمان بالله ورسله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله.

وأخيرا يقول ابن القيم كلمة جامعة: أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر. والله المستعان.

مقتضى طبيعة الدين:

وعناصر طبيعة الدين: أنه من عند الله... أنه عمل في ذاته... أنه نزل لجماعة... أنه قوة في امتداده...

وكل هذه العناصر في حقيقتها سنن الفهم الإسلامي: فمقتضي أن الدين من عند الله يجعل تقديم النص على الرأي سنة من سنن الفهم[214].

ومقتضي أن نزلة لجماعة يجعل الجماعة هي سنة من سنن الفهم – يعني أن الامكانية – الكاملة لفهم الإسلام تكون من خلال الجماعة[215].

[214] ولذلك يقول على ابن أبي طالب كرم الله وجهه لو كان الدين بالرأي لكان مسح على الخف من أسفل أولى من المسح من أعلى

ومقتضي أن الدين نزلة بالقوة يجعل الجهاد سنة من سنن الفهم الإسلامي لقول الله: (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا).

مقتضى طبيعة الدعوة:

وينشأ عنها عدة سنن:

أهمها سنة التوازن في واقع الدعوة: كما أن التوازن الكوني ليس مجرد وجود عناصر التقابل، بل أن التوازن يتعلق بدرجة وجود هذا العنصر في تقابله مع عنصر اخر فكذلك التوازن بين الحق والباطل لأن امتداد ظهور طرف دون مقابله يعني في النهاية فناء أحد أطراف التقابل.

ولذلك يقول ابن القيم في التوازن بين الحق والباطل: (وكلما اشتد ظهور الباطل اشتد ظهور الحق)، وهذا هو مضمون استمرار الدعوة كطرف مقابل الباطل والجاهلية: ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه فيحق الحق بكلماته: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ).

وقد أنشأت سنة التوازن بين الحق والباطل ارتباطا بين الدعوة وحقيقة التقابل. وارتباط واقع الدعوة بحقيقة التقابل ارتباط جوهري يصل إلى حد الشرط اللازم لوجوده، ويؤكد ابن القيم في (طريق الهجرتين) هذا الارتباط، فيقول: فإن الباطل كلما ظهر فساده وبطلانه أسفر وجه الحق واستنارت معالمه ووضحت سبله وتقررت براهينه.

فكسر الباطل ودحض حججه وإقامة الدليل على بطلانه من أدلة الحق وبراهينه. فتأمل كيف اقتضي الحق وجود الباطل، وكيف تم ظهور الحق بوجود الباطل؟!

ويواصل ابن القيم تأكيد هذا الارتباط في (شفاء العليل) مؤكدا أن هذا الارتباط هو مقتضى حكمة أحكم الحاكمين فيقول: وقد اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن أقام في هذا العالم لكل حق جاحدا، ولكل صواب معاندا؛ كما أقام لكل نعمة حاسدا، ولكل شر رائدا. وهذا من تمام حكمته الباهرة وقدرته القاهرة، ليتم عليهم كلمته، وينفذ فيهم مشيئته، وينظر فيهم حكمته، ويقضي بينهم بحكمه، ويفاضل بينهم بعلمه، ويظهر فيهم

[215] لأن الصواب من الله والخطأ من الشيطان والجماعة حرز من الشيطان الذي يحدث الخطأ بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من عمل بما علم رزقه الله علم مالم يعمل زاد المصنف في الايمان باب لايسخط أحد.

آثار صفاته العليا وأسمائه الحسنى، ويتبين لأوليائه وأعدائه يوم القيامة أنه لم يخلق إلا لحكمة، ولم يخلق خلقه عبثا، ولا يتركهم سدي، وأنه لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا.

أما في (مدارج السالكين) فيربط ابن القيم بين التقابل في الواقع الكوني العام والتقابل في واقع الدعوة ويثبت أن التقابل في كليهما من كمال ربوبيته سبحانه فيقول: خلق الأضداد والمتقابلات هو من كمال ربوبيته؛ كالليل والنهار، والحر والبرد، واللذة والآلم. والخير والشر، والنعيم والجحيم. وإن خلق الأضداد والمقابلات وترتيب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته، وإن تقديرعدم ذلك هضم لجانب الربوبية. وأيضا فإن هذه الحوادث[216] نعمة في حق المؤمن فإنها إذا وقعت فهو مأمور أن ينكرها بقلبه ويده ولسانه، أو بقلبه ولسانه فقط، أو بقلبه فقط؛ ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الإمكان؛ فيترتب له الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن بدون ذلك. والمقصود بالقصد الأول إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة. وكان في تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصال إلى الكمال الذي يحصل لهم سعادة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاة، وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم لهم؛ فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة. وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة في مرضاة محبوبة والتقرب إليه؛ فإن بذل روحه كان هذا أعلي درجات المحبة. ومن المعلوم أن لوازم ذلك، التي لا يحصل ذلك إلا بها، أن يخلق سبحانه ذواتا وأسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها. فكل أحد يحب الإحسان والراحة والدعة واللذة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصله له، ولكن الشأن في أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة من يحبه مما هو أكره سيء من النفوس وأشق عليها مما لا يلائمها. فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذلته، وحب من يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة؛ فإن أعطي منها رضي، وإن منعها سخط وعتب على ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته.

فلولا خلق الأضداد، وتسليط أعدائه، وامتحان أوليائه لم يستخرج خاصية العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوي في جهاد أعدائه

[216] يقصد حوادث الشر المقابلة للخير 0

ومضرقم، ولا عبودية مفارقة الناس هو أحوج ما يكون إليهم لأجله وفي مرضاته، ولا يتحيز إليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم فيرضى بمفارقتهم ومشاققتهم وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توحي بذلك لم تحصل هذه الآثار.

سنن الإيمان:

ولما كانت الدعوة هي واقع الإيمان فإن اختصاص واقع الدعوة بالسنن يتحقق من ارتباط هذه السنن، بحقيقة الإيمان. وقد وضح هذا الارتباط في حديث هرقل وأبي سفيان حيث كانت سنن الإيمان هي محور التساؤلات التي كانت من هرقل والتي استدل بها في النهاية على صدق نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

أما السنن فهي:

سنة إيمان الفقراء والضعفاء؛ التي قال فيها: (وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل).

وسنة زيادة أهل الإيمان؛ التي قال فيها: (وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم).

ويعلق ابن حجر على هذه العبارة بقوله: لأنه، أي الإيمان، يظهر نورا ثم لا يزال في زيادة حتى يتم بالأمور المعتبرة فيه من صلاة وزكاة وصيام، ولهذا نزلت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي)، ومنه (ويأبي الله إلا أن يتم نوره)، وكذا جري لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم لم يزالوا في زيادة حتى كمل بهم ما أراد الله من إظهار دينه وتمام نعمه فله الحمد والمنة.

وسنة الثبات لمن وجد حلاوته؛ التي قال فيها: (وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا؛ كذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، أي يخالط بشاشة الإيمان وهو مشرحة القلوب التي يدخل فيها)، زاد المصنف في (الإيمان): (لا يسخط أحد).

ومن أهم سنن الدعوة والاستجابة؛ ما ورد في صحيح البخاري عن إبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (تجدون من خير الناس اشدهم كراهة لهذا الأمر حتى

يدخل فيه والناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام)[217]، وقد كانت هذه السنة هي الظاهرة التي انطبقت على أكثر الصحابة منهم عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

[217] البخاري في (الأنبياء) باب قوله تعالى: (لقد كان يوسف وإخوته آيات للسائلين)، ومسلم في (فضائل الصحابة) (2526).

القسم الرابع
التصور القدري لمنهج الحركة الإسلامية

بعد عرض التصور القدري العام من خلال ارتباط الخلق بالأسماء والصفات وتحديد المقتضي الواقعي لهذا التصور، وتحديد الاختصاص القدري لواقع الدعوة؛ يكون قد تم التقديم التام للموضوع الأساسي للكتاب وهو التصور القدري لمنهج الحركة الإسلامية. والحقيقة أن هذا القسم هو أهم الأقسام لأنه يمثل الحقائق التطبيقية المباشرة في منهج الحركة الإسلامية.

وبهذا يكون هذا القسم هو المقتضي المنهجي للتصور القدري العام، والمقتضي المنهجي يمثل أساسية هامة في دين الله عز وجل وهي الربط بين العقيدة والعمل.

وفي سورة الرحمن تحقق الافتتاحية الربط بين التصور والتكليف فيتحقق الربط بين أسماء الله الحسنى من خلال اسم (الرحمن).

مع الدين من خلال (تعليم القرآن):

مع الوجود الإنساني من خلال (خلق الإنسان) مع الوجود الكوني العام من خلال الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء.

ليتحدد في النهاية المقتضي المنهجي والتكليفي لهذا الربط التصوري وهو لنهي عن الطغيان في الميزان فتكون مجمل الآيات: (الرَّحْمَن عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)، والتصور القدري لمنهج الحركة الإسلامية يقوم على عدة قضايا أساسية هي:

الأولى: قرآنية المنهج الحركي للدعوة، وتفسير الفاعلية القدرية للنص القرآني.

الثانية: التصور القدري للدفع بين الإسلام والجاهلية. ويشمل تحديد مقتضيات وافتراضات هذا الدفع.

الثالثة: المقتضي المنهجي لعلامات الساعة من حيث:

أ) تقدير الزمان.

ب) العلاقة بين النص الإخباري والتكليفي في إطار مهمة التحديد المنهجي للدعوة.

الرابعة: التصور القدري لمنهج التربية.

الخامسة: التصور القدري لأساليب الدعوة الأساسية: التبليغ... القتال... قيام السلطة الإسلامية.

أولا: التصور القدري لقرآنية المنهج:

وبخصوص قرآنية المنهج نود أن نوضح أنها لا تعني فقط مجرد توافق الحقائق المنهجية مع القرآن، ولا تعني أن يكون القرآن مجرد أساس نظري للمنهج؛ ولكنها تعني أن يكون القرآن بذاته سوره وآياته وكلماته ترتيبها وموضوعيتها وأسباب نزولها هي مصدر الفاعلية القدرية للقرآن وغياب هذا المعنى هو الذي تسبب، بالمقام الأول، في الحرمان من تلك الفاعلية؛ كما تسبب في طغيان الطبيعة الفكرية البشرية على منهج الدعوة.

فالقرآن هو الضرورة الثابتة الباقية لحياة الدعاة ومنهجهم؛ ولذلك نري رسول الله صلى الله عليه وسلم يدارس ويراجع القرآن مع جبريل مرة واحدة كل عام في رمضان، حتى جاء العام التي توفي فيه؛ فراجعه مرتين، إن هذه المرة الأخرى هي حساب الأيام التي تكون بعد رمضان دون أن يأتي رمضان آخر؛ ولأجل هذه الأيام كان قراءة القرآن مرتين.

والقرآن هو قضية الدعوة وأسلوبها، ومن هنا كان قول الله عز وجل: (وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً). الذي يعني قرآنية المواجهة من حيث أسلوب البلاغ. وفيه يقول ابن تيمية: والتعبير عن حقائق الإيمان بعبارات القرآن أولى من التعبير عنها بغيرها؛ فإن ألفاظ القرآن يجب الإيمان بها وهي تنزيل من حكيم حميد، والأمة متفقة عليها ويجب الإقرار بمضمونها قبل أن تفهم، وفيها من الحكم والمعاني ما لا تنقضي عجائبه. والألفاظ المحدثة فيها إجمال واشتباه ونزاع؛ ثم قد يجعل اللفظ حجة بمجرده، وليس من قول الرسول الصادق المصدوق، وقد يضطرب في معناه، وهذا أمر يعرفه من جربه من كلام الناس.

فالاعتصام بحبل الله يكون بالاعتصام بالقرآن والإسلام كما قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)، ومتى ذكرت ألفاظ القرآن والحديث وبين معناها بيانا شافيا، فإنها تنتظم جميع ما يقوله الناس من المعاني الصحيحة؛ وفيها زيادات عظيمة لا توجد في كلام الناس، وهي محفوظة مما دخل في كلام الناس من الباطل كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، وقال تعالى: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌلا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)، وفيه من دلائل الربوبية والنبوة والسعادة ما لا يوجد في كلام أحد من العباد[218].

الفاعلية القرآنية الكونية:

وإدراك الفاعلية الكونية لا يمكن تحقيقه إلا بقياس أثر القرآن في الوجود الكوني بصورته المباشرة. ومن هنا يأتي قول الله عز وجل: (لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ).

ولكن الفاعلية الكونية المباشرة لا تظهر إلا باعتبار طبيعة الحجية القرآنية وإنه ذو طبيعة عقلية إقناعية[219].

ومن هنا يجب تصوره باعتباره حجة عقلية من خلال قياسه على جميع المعجزات والخوارق الكونية التي أرسل بها الأنبياء من قبل؛ ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبي إلا قد أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[220].

ويقول ابن كثير في هذا الحديث: إن البراهين التي كانت للأنبياء انقرض زمانها في حياتهم و لم يبق منها إلا الخبر عنها، وأما القران فهو حجة قائمة كأنما سمعه السامع من فم رسول الله صلى عليه وسلم إذ لو لم يكن الأمر كذلك لأصبح القرأن أولى الكتب بالفاعلية الكونية الخارقة، ولهذا جاء في قول الله عز وجل: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً).

قول ابن كثير: يقول الله تعالى مادحا القران الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ومفضلا له على سائر الكتب المترلة من قبله: (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال)، أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتي في قبورها لكان هذا القران هو المتصف بذلك دون غيره أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لم فيه من هذا الأعجاز.

---

[218] النبوات لابن تيمية ص 22.

[219] شفاء العليل ص 278 – طبعة بيروت)

[220] البخاري في (فضائل القرآن) [9/3]، ومسلم رقم (152) في الإيمان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واستمرارا في تفسير الفاعلية القرانية نذكر أن الفاعلية تتحقق من خلال عدة نواحي:

1) الفاعلية من خلال ناحية سبب الترول:

ومنه كلمة (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) التي أورد فيها البخاري والنسائي في قول ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، قالها إبراهيم عليه السلام حين القي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس: (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، فأصبحت سببا باقيا في تفريج أي كربة يقع فيها أي مسلم إلى قيام الساعة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)، وقال إذا غلبك أمر فقل: (حسبي الله ونعم الوكيل)[221] فدل ذلك على ان الآية باقية الآثر قدرا من خلال سبب نزولها.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم إمتداد فاعلية الكلمة حتى قيام الساعة فقال: (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحني جبهته ليستمع متي يؤم فينفخ). فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فما نقول؟ قال: (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا).

2) الفاعلية من خلال الصيغة القرآنية:

ومنه قول الله: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية: (لن يغلب عسر يسرين)، فتقررت حقيقة أن العسر لا يغلب يسرين من تكرار (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)، مرتين.

3) الفاعلية من خلال الموضوعية القرآنية:

ومعناها أن موضوع الآية أو السورة هو المحقق لفاعليتها مثل تفسير سور المعوذتين التي تكون بها الرقية من الشيطان وفيها الاستعاذة.

[221] يراجع تفسير قول الله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).

ويقع تحت الفاعلية الموضوعية أن تصبح كل الأخبار الواردة في القرآن شاهدا صادقا على البشرية منذ بداية الخلق حتى قيام الساعة. ومثال ذلك أن يأتي القرآن شاهدا على قوم نوح بأن الله أرسل إليهم رسولا.

4) الفاعلية من خلال مصدر الآيات:

ومثالها خواتيم سورة البقرة التي أنزلت من كتر من تحت عرش الرحمن فكان فاعليتها (أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه خواتيم سورة البقرة)[222]، كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام.

التفسير الأساسي للفاعلية القرآنية:

غير أن التفسير الأساسي للفاعلية الكونية القرانية الذي يؤكد الأرتباط بين مضمون الحق في الايات وفاعليتها الكونية هو سورة الفاتحة، وفيه يربط ابن القيم بين هذا المضمون وتلك الفاعلية من خلال اشتمال الفاتحة على مضمون الحق الكامل، وفاعليتها الكونية الثابتة، فيقول في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة:

وهذا يعلم بطريقتين مجمل ومفصل:

إما المجمل فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق، وإيثاره وتقديمه على غيره، ومحبته والانقياد له والدعوة إليه، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان.

والحق هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وما جاء علما وعملا في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده وأمره ونهيه ووعده ووعيده، وفي حقائق الأيمان التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى، وكل ذلك مسلم إلى رسول صلى الله عليه وسلم دون اراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم.

فكل علم أوعمل أو حقيقة او حال او مقام خرج من مشكاة نبوته، وعليه السكة المحمدية بحيث يكون ضرب المدينة فهو من الصراط المستقيم، ومالم يكن ذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثم خروج عن هذه الطرق الثلاثة طريق الرسول صلى

[222] مسلم في المسافرين رقم 780 والترمذي 2877 في ثواب القران حديث أبي هريرة وليس عندهما لفظة: خواتيم.

الله عليه وسلم وماجاء به، وطريق أهل الغضب وهي طريق من عرف الحق وعانده، وطريق أهل الضلال وهي طريق من عرف الحق وعانده، وطريق أهل الضلال وهي طريق من أضله الله عنه، ولهذا قال عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما: الصراط المستقيم هو الإسلام وقال عبد الله بن مسعود وعلى بن أبي طالب رضي الله عنهما: هو القران وفيه حديث مرفوع وهو الترمذي وغيره، وقال سهل بن عبد الله: طريق السنة والجماعة، وقال بكر بن عبد الله المزني: طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولاريب أن ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علما وعملا وهو معرفة الحق وتقديمه وايثاره على غيره، هو الصراط المستقيم، وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه، جامعة له فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ماخالفه فهو الباطل، وهو من صراط الأمتين أمة الغضب وأمة أهل الضلال.

وأما تضمنها لشفاء الأبدان فنذكر فيه ماجاءت به السنة وماشهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة، فأما ما دلت عليه السنة، ففي صحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري أن ناسا من أصحا النبي صلى الله عليه وسلم مروا بحي من العرب فلم يقروهم و لم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا: هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق؟ فقالوا: نعم ولكنكم لم تقرونا، فلا تفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه الفاتحة، فقام كأن لم يكن به قلبه[223] لاتجعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيناه فذكرنا له ذلك فقال: مايدريك أنها رقية كلوا واضربوا لي معكم بسهم[224].

فقد تضمن هذا الحديث حصوله شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء، وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء، وهذا مع كون المحل غير قابل، إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين، أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان النحل قابلا؟!

ثم يأتي الموضوع المباشر للاستشهاد بقول ابن القيم. ومنكر هذا ليس معدودا من بني آدم إلا بالصورة والشكل فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية، وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها،

[223] وما بالعليل قلبه أي مابه شئ لايستعمل إلا في النفي (لسان العرب)

[224] البخاري ومسلم، البخاري في الطب باب النفث في الرقية مواضع من الصحيح ومسلم في السلام رقم 2201

وماتضمنه من التوحيد والتوكل والثناء على الله وذكر أصول أسمائه الحسنى، وذكر اسمه الذي ماذكر على شر الا أزاله ومحقة، ولاعلي خير الا نماه وزاده دفعت هذه النفوس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية، فحصل البرء، فإن مبني الشفاء والبرء على دفع الضد بضده وحفظ الشئ بمثله فالصحة تحفظ بالمثل والمرض يدفع بالضد، أسباب وبطها بمسبباها الحكيم العليم خلقا وأمرا. ولايتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة، وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية و لم تقو نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء.

فهنا أمور ثلاثة: موافقة الدواء للداء، وبذل الطبيب له، وقبول طبيعة العليل.

فمن تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء، وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله سبحانه وتعالى.

ومن عرف هذا، كما ينبغي تبين له أسرار الرقي، ويميز بين النافع منهما وغيره، ورقي الداء بما يناسبه من الرقي، وتبين له أن الرقية براقيتها وقبول المحل، كما أن السيف يضاربه مع قبول المحل للقطع، وهذه إشاره مطلعة على ماوراءها لمن دق نظرة وحسن تأمله، والله أعلم.

وأما شهادة التجارب؛ بذلك فهي أكثر من أن تذكر، وذلك في كل زمان وقد جربت أنا[225] من ذلك في نفسي وفي غيري أمورا عجيبة، ولاسيما مدة المقام بمكة، فإنه كان يعرض لي الام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني، وذلك في أثناء الطواف وغيره، فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مرارا عديدة، وكنت أخذ قدرا من ماء زمزم. فأقرأ عليه الفاتحة مرارا، فأشربه فأجد به من النفع والقوة مالم أعهد مثله في الدواء. والأمر أعظم من ذلك، ولكن بحسب قوة الأيمان وصحة اليقين والله المستعان.

مما سبق من أمثلة تفسر مفهوم الفاعلية القدرية القرانية. ومن ناحية أسباب نزول الأيات وموضوعها وصيغتها ومصدرها ومن ناحية مضمونها.

[225] الكلام لابن القيم

فإذا كانت الدعوة هي السبب الأصلي لنزول القران وهي موضوع القرأن ومضمونه فأن المجاهدة بالقران في هذه الدعوة هو الذي يحقق أقصي فاعلية قدرية للقرأن وهي التي تتمثل في إنشاء واقع الدعوة الصحيح وتحقيق غايتها التامة.

ثانيا: التصور القدري للدفع بين الإسلام والجاهلية:

ولهذا التصور أصول ثلاثة نقدم بها وهي:

إن الله هو الحفيظ والوكيل في هذا الدفع، وفي هذا المفهوم الولاية الالهية العامة على جميع الخلق، وعلاقة هذا المفهوم بواقع الدفع بين الإسلام والجاهلية هو مقتضيات أخضاع طرفي الدفع لسنن الله الثابتة، وذلك باعتبار أن السنة هي التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المتخلفين، والعدل بين طرفي الدفع بالحق، ومن حيث الفتح: (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ)، ومن حيث الحكم: (قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)، حتى أن الكفار لما طلبوا الفتح جاءهم ولكن بالهزيمة لاستحقاقهم لها وفي هذا قول الله: (إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ)، ومن حيث القضاء في الاخرة وفيه قول الله: (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ)، وفي هذا القضاء يكون التقاضي في الدماء بين المسلم والكافر.

وقد ثبت في الصحيحين ومسند أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أول مايقضي فيه بين الناس يوم القيامة الدماء، وأن المتقول يأتي يوم القيامة تشخب أوداجه دما)، وفي بعض الأحاديث: (ورأسه في يده فيتعلق بالقاتل ولو قتله في سبيل الله فيقول: يارب سل هذا فيم قتلني؟ فيقول الله تعالى: لم قتلت هذه؟ فيقول: يارب، قتلته لتكون العزة لك، فيقول: صدقت. ويقول المقتول ظلما: سل هذا فيم قتلني؟ فيقول الله تعالى: لم قتله؟ فيقول: لتكون العزة لي). وفي رواية: (لفلان فيقول الله تعالى: تعست، ثم يقتص منه لكل من قتله ظلما).

أن تقييم واقع الدعوة يقول على أساس التفويض إلى الله كما في قوله عز وجل: (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)، وقوله تعالى: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً)، وعلى هذا الأساس يكون التفويض إلى الله في كل اتجاهات الصراع كما في قوله تعالى: (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)، (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ).

موقف العداء الصحيح للجاهلية، فيقوم هذا الموقف على أساس أن الكفار أعداء الله أصلا، وأن العداء بين أولياء الله وأعداء الله يجب أن يقوم بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال تعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ)، وأن يكون هذا الأعتبار بمقتضي التجرد من مشاعر العداء الشخصي والنفسي فيجب تجريد العداء من مشاعر الانتقام؛ القرآن ولهذا يفرق بين موقف العداء القائم على منهج الدعوة وهو القائم على معني: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ)، وموقف العداء الشخصي وهو القائم على معني: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ).

وبعد هذه الأصول الثلاثة نأتي إلى التصور العام للدفع.

وبصفة عامة. فإن التصور القدري للدفع تحدده آيات سورة الصف التي تبدأ بقوله تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)، فالتدافع بين الإسلام والكفر هو محاولة إطفاء نور الله بالأفواه هذا من جانب الباطل أما جانب الحق: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)، والمقتضي التكليفي لتلك الصيغة هي الأيات التي بعدها: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وأثر الالتزام بالتكليف بالآية التي بعدها: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)، وقبل هذا الثواب الذي يكون في الأخرة يأتي ثواب الدنيا (وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)، وفي الآية الأخيرة يأتي مثال التدافع بين الحق والباطل ويتضح من خلال طلب النصرة إلى الله واستجابة الحواريين وتأييد الله وظهورهم على عدوهم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ).

ومن هذا التصور ندرك معنى الايات الأولى من السورة فنجدها تحديدا للشروط الازمة لطرف الحق في التدافع وهو قول الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ)، (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)، فيتحدد لطرف الدفع ثلاثة شروط:

- العمل بما نقول...
- والصف الواحد...
- والقتال في سبيل الله.

أ) مقتضيات التصور القدري للدفع:

1) وحدة الحق:

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لاتعدد فيه، وهو الصراط المستقيم الذي نصبه الله موصلا لمن سلكه قال الله تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ)، فوحد سبيله، لأنه في نفسه واحد لاتعدد فيه، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم خط خطأ، ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خط خطأ خطوطا عن يمينه وعن يساره، ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)، ومن هذا قوله تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ). فوحد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان.

ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور)، مع أن فيه سر ألطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين فاض وأين فاض وأن أصله كله واحد.

وأما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها، وهي كثيرة جدا، لكل حجاب ظلمة، ولاترجع الظلمات إلى النور الهادي جل جلاله أصلا، لاوصفا، ولاذاتا، ولااسما، ولافعلا، وإنما ترجع إلى مفعولاته، فهو جاعل الظلمات.

ومفعولات الظلمات متعددة متكثرة بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته تعالى أن يكون كمثله شئ، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: ليس عند ربكم ليل

ونهار، نور السموات والأرض من نور وجهه. ذكره الدرامي عنه، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر: قلت يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: نور اني أراه[226].

والمقصود أن الطريق إلى الله وحده، فإنه الحق المبين، والحق مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر بل كل ماسواه باطل وكل طريق إلى الباطل فهو باطل متعدد ومتنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات، واختلافها رحمة منه وفضل، فهو صحيح لاينافي ماذكرناه من وحدة طريق. وكشف ذلك وإيضاحه أن الطريق هي واحدة جامعة لكل مايرضى الله، ومايرضيه متعدد متنوع فجميع مايرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة ومتنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلها. ولو جعلها نوعا واحدا، مع اختلاف الأذهان وقوة الاستعدادات وضعفها، لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت تنوعت الطرق ليسلك كل أمرئ إلى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده، ورأس ماله لماله.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة.

ومن الناس يكون طريقه الصوم فهو متي أفطر تغير عليه قلبه وساءت حالته.

ومن الناس يكون طريقة تلاوته القران، وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أورداه.

ومن الناس من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه، ومنفذ منه إلى ربه.

ومنه من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والإعمار.

---

[226] مسلم في الايمان رقم 178 والترمذي في التفسير باب ومن سورة النجم من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق، وتجريد الهمة، ودوام المراقبة، ومراعاة الخواطر، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع لمنفذ المسالك إلى الله في كل واد والوصول إليه من كل طريق فهو جعل وظائف عبوديته قبله قلبه وعينيه يومها أين كانت، ويسير معها حيث سارت. وقد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك: أن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته مع وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو احسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أني استقلت ركائبها ويتوجه إليها حيث أستقرت مضاربها، فلو قيل له: ماتريد من الأعمال. لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت، وأين كانت. جالبة ماجلبت، مقتضية ما اقتضت جماعتي أو فرقتي، ليس لي مراد إلا بتنفيذها والقيام بأدائها، ومراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر قد سلمت إليه منتظرا منه تسليم الثمن: (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة).

2) الجماعة الواحدة وهي مقتضى وحدة الحق:

ومما سبق في وحدة الحق تبين أمرين: وحدة السبيل إلى الله، واختلاف الاستعدادات الذي لزم تنوع الأساليب المؤدية إلى الله في السبيل الواحدة.

والجماعة الواحدة هي المقتضي الواقعي للنتيجتين، حيث أن الجماعة هي واقع السبيل الواحد الجامع لكل الأساليب المرتبطة بتنوع الاستعدادات.

ولذلك يقول ابن القيم: والله سبحانه قد فرق كمالات النوع في أشخاصه وجعل لكل شخص منها ماهو مستعد له ومن هنا يكون الكمال في الجماعة كلها. ومعناها أن هناك كمالات ضرورية لابد من وجودها في الجماعة المسلمة فاختص الله الصحابة بها، وهذا الأمر قدري بحت وليس بالاكتساب، كما أنه يخرج عن أطار الأفضلية العامة للصحابة. زمثال ذلك اختصاص عمر بفرارالشيطان منه لقول النبي صي الله عليه وسلم: (لو سلك عمر فجا لسلك شيطان فجا غيره)، وقد استفاد النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الاختصاص بالنسبة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مواضع كثيرة، منها أخذه إلى ابن صياد الذي كان يدعي النبوة، وقال له: (لقد خبأت لك خبئة)، وكان مع ابن صياد شيطان وكانت الكلمة هي الدخان فأراد الشيطان أن يقذف إلى ابن الصياد فلم يتمكن

من أجل وجود عمر، فقال ابن الصياد للرسول عليه الصلاة والسلام: دخ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (اخسا لن تعدو قدرك يأتيك شيطان)[227].

ومثال لكمالات الخاصة هو البراء بن مالك، وهو الصحابي المستجاب الدعوة، وقد استفاد النبي صلى اله عليه وسلم بهذا الاختصاص بأن كان يطلب من البراء أن يدعو للمسلمين بالنصر في القتال، فكان يقول: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، اد ع الله يا براء أن ينصرنا عليهم)[228].

ومثال الكمالات الخاصة. اختصاص حذيفة بمعرفة الشر والفتن بأسماء المنافقين، ولاجل ذلك، كان المسلمون ينظرون، إذا مان رجل منهم، إذا صلى عليه حذيفة صلو هم عليه.

وأمثلة الاختصاص القدري كثيرة غير أن هناك مثالا في غاية الخطورة وهو الصحابي الذي جعل الله شهادته بشهادة رجلين، إذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أن شهادة ثابت بن خزيمة بشاهدة رجلين)[229]، ولم يدر أحد حكمه هذا الاختصاص إلا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حيث أراد أبو بكر أن يجمع القران وكان لايأخذ أية إلا بشهادة اثنين من القراء وإذا بأيتين من سورة التوبة [128, 129] لا توجدان إلا مع هذا الصحابي، فيأخذهما أبو بكر باعتبار هذا الاختصاص.

وهكذا تكون الكمالات في الجماعة الواحدة.

وهكذا يستفاد بها في إطار الجماعة الواحدة.

227 هي قصة صحيحة أخرجها مسلم في صيحيه وغيره.

228 أخرجه الترمذي في المناقب (3854) من طريق ثابت وعلى زيد عن أنس مرفوعا كم من أشعث أغبر ذي طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك وقال الترمذي عقبه: صحيح حسن من هذا الوجه وقد خرج مسلم في صحيحه من حديث أنس أيضا 1675 مرفوعا إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرة.

229 هو حديث صحيح أخرجه أبو داود 10/25 والنسائي 7/301 وأحمد في المسند 5/215 والحاكم 17-2/18 وصححه ووافقه الذهبي، من طريق خزيمة بن ثابت أن عمه حدثه. فجعل رسول الله صلي عليه وسلم شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وفي الحديث قصة فلتراجع من هذه المصادر.

وبأعتبار أن الجماعة هي واقع السبيل الواحد إلى الله كانت الجماعة هي واقع تلقي الدين، فإن الله أنزل باعتبار تلك الصفة فقال سبحانه وتعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).

فتبين من الآية أن تقرير الحقيقة الأولى في الدين وهي: (وأنا ربكم فأعبدون)، قد سبقها الواقع الذي يتلقاها وهو بداية الايه: (وان هذه أمتكم أمة واحدة).

وباعتبار ان الجماعة هي واقع تلقي الدين، وأن هذه حقيقة حتمية، كان قيام الجماعة قدرا إلهيا خالصا: (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ).

كما اتضح من النص أن قيام الجماعة قد إلهي خالص فقد اتضح أيضا أن قيام الجماعة كان على أساس التألف القلبي وهو الواضح من الآية.

وكما يؤكد النص أن الجماعة تؤلف بين القلوب تؤكد السنة ان البيعة هي عطاء لثمرة الفؤاد، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده[230].

وباعتبار ان الجماعة هي واقع تلقي الدين كانت الجماعة شرطا للبقاء الإسلامي (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

ومن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن رضى بالتحريش بينهمم)[231]، ندرك العلة من رضي الشيطان بالتحريش بين المصلين بعد اليأس من أن يعبدوه، وهو أن الغاية التي ترضي الله هي الأمة الواحدة التي تعبد ربا واحدا فلما يئس الشيطان من جعله المصلين لايعبدوا ربا واحدا انتقل إلى تضييع واقع الأمة الواحدة فيتحقق بالتحريش منع مايحقق رضى الله عنه سبحانه بقيام الأمة الواحدة التي تعبد ربا واحدا.

[230] مسلم في الإمارة رقم 1844 من حديث ابن عمرو بن العاص بلفظ: من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فليطعه مااستطاع.

[231] مسلم في المنافقين رقم 2812 من حديث جابر رضي الله عنه.

وعلى أساس أن الجماعة هي الصفة الأصلية للخلق البشري فقد تحققت الأقدار فيهم على أساس المسئولية المشتركة في وقوع العذاب على القوم لكثرة الفساد أو إذا وجدت المعصية فيهم.

وهذا حديث يؤكد مفهوم المسئولية على أساس الجماعة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غزا نبي من الأنبياء فجمعوا ما غنموا فأقبلت النار لتأكله. فأبت أن تطعمه فقال فيكم غلول. فليبايعني من كل قبيلة رجل. فبايعوه فلصقت يد رجل بيده. فقال فيكم الغلول. فلتبايعني قبيلتك. فبايعته قال فلصقت بيده رجلين أو ثلاثة. فقال: فيكم الغلول. أنتم غللتم. قال: فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب قال: فوضعوه في المال وهو بالصعيد فأقبلت النار فأكلته)[232].

وباعتبار أن الجماعة هي الصفة الأصلية للخلق البشري كان فقد الجماعة علامة من علامات الساعة التي تأتي في إطار فقد التوازن الكوني والدليل هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة من علامات الساعة: شح مطاع، وهوي متبع، وإعجاب كل ذي رأي برأية)، وهي العلامات التي يستحيل معها التجمع.

3) وبالتصور القدري للجماعة تمتد إلى قضية الولاء:

وهو مقتضى اسم الله (الولي)، كما أنه مقتضى أسماء (المعطي، المانع، المعز، المذل، الرزاق، القادر، المحيي، المميت)، وهي الأسماء التي ورد مقتضاها في قول الله عز وجل: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ).

إذ جاء بعدها: (لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ).

وفي سورة المجادلة جاء الولاء كمقتضي لما كتبه الله بغلبته سبحانه ورسله، ثم جاء كدليل على ما كتبه الله من الإيمان في القلوب والتأييد بروح من الله.

---

[232] البخاري في الجهاد باب (أحلت لكم الغنائم)، ومسلم في الجهاد (1747) من حديث أبي هريرة وسبق تخريجه.

وذلك في قول الله: (كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌلا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ برُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، فدل ذلك على أن الولاء هو الحقيقة الأساسية في قدر الله بغلبة هذه الأمة وإيمانها وتأييدها ودخولها الجنة وقول الله: (أولئك حزب الله) دل على أن البشر على حزبين حزب الله وحزب الشيطان.

وهذه الصورة تدل على أن الواقع والسلوك البشري منقسم بصفة طبيعية. ولا بد من تبيين هذين الحزبين.

ولهذا يقول ابن القيم: فإن الفرق أمر ضروري للإنسان؛ فمن لم يكن فرقة قرآنيا فلا بد له من قانون يفرق به: أما سياسة فرقة منه أو من غيره ورأي منه أو من غيره، أو يفرق فرقا بهيميا حيوانيا بحسب شهوته وغرضه أين توجهت. ويواصل ابن القيم تحديد معنى الفرق أو حقيقة المفاصلة من خلال طبيعة النفس البشري وجبلتها؛ فيقول: إن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والفرح وذلك من جهتين.

من جهة تركيبة وطبيعة وهيئته؛ فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه؛ بل لا بد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال فيحصل الألم.

ومن جهة بني جنسه؛ فإنه مدني بالطبع لا يمكنه أن يعيش وحده؛ بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذات ومطالب متضادة ومتعارضة لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء، فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل لهم من الألم والتعذيب بحسب ذلك، فهو في ألم ومشقة وعناء، وافقهم أو خالفهم، ولا سيما إذا كانت موافقتهم على أمور أنها حقائق باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبه. وفي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصا من أشدهما بإيثار المنقطع منهما لبنجوا من الدائم المستمر.

فمن كان ظهيرا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم ليتلخص بمظاهراتهم من ألم أذاهم، أصابة من ألم الموافقة لهم عاجلا واجلا أضعاف أضعاف مافر منه.

وسنة الله في خلقه أن يعذبه بمن وافقهم وظاهرهم.

وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة واجلة تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه.

وإذا كان لابد من الألم والعذاب، فذلك لله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

وفي تفسير قول النبي: إنه لايذل من واليت يقول ابن القيم: فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليه له. وفي هذا تنبيه على أن من حصل له ذل من الناس فهو بنقصان مافاته من تولي الله، والا فمع الولاية المتكاملة ينتفيي الذل كله ولو سلط عليه بالأذي من في أقطارها فهو العزيز غير الذليل.

ب) أفتراضات التدافع:

وهناك حقيقة هامة إطار مفهوم التدافع وهو أن الحق واحد يمثله طرف واحد، والباطل متعدد بمثله أطراف متعددة، وأن العداء ثابت بين هذا الحق الواحد وجميع أطراف الباطل المتعددة.

غير أن التدافع وهو المواجهة العملية القائمة على هذا العداء يقوم في الواقع بعدة افتراضات:

الافتراض الأول: وهو قيام التدافع بين طرف الحق الواحد وأحد أطراف الباطل، وهذا التدافع هو المتوازن قدرا.

والمقتضي المنهجي لهذا الافتراض هو أن الفرق بين واجب إثبات العداء لجميع أطراف الجاهلية وبين إمكانية المواجهة العلمية لأحد هذه الأطراف فنحن نعادي جميع الأعداء تصورا واعتقادا ولكنا نواجه ونقاتل في حدود إمكانياتنا العملية فنختار في تلك

الحدود أنسب أتجاهات العداء وأطرافه. وقد يتغير هذا الأتجاه حسب الظروف والأحوال ولكنه دائما هو الاتجاه الذي يمثل الخطر الأول على الدعوة وهو تفسير قول الله عز وجل: (قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ)، يعني الذين يمثلون أقرب خطر عليكم وبذلك يتحقق التوازن العسكري في الدفع بين الإسلام والجاهلية.

الافتراض الثاني: وهو قيام بين طرف الحق الواحد وجميع أطراف الباطل، وهذا التدافع هو الذي يتطلب توازنه تدخلا قدريا مباشرا يحفظ الحق الواحد أمام اجتماع اطراف الباطل، وهذا التدخل هو سنة هزيمة الأحزاب.

والمقتضي المنهجي لهذا الافتراض هو محاولة فك الارتباط بين أطراف الباطل المجتمعة ولعل أبرز أمثال لذلك مافعله نعيم بن مسعود غي غزوة الأحزاب حيث أوقع بين اليهود في المدينة ومشركي مكة بعد أن أستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فأذن له قائلا: خذل عنا إن شئت[233].

وإذا كان الدعاء هو أساس النصر في كل أحوال المواجهة، فإنه في هذا الافتراض يبرز بصورة أوضح وأكبر، وذلك باعتبار أن الأمر هنا هو تدخل قدري، وهو الدعاء المعروف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم مترل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب أهزمهم انصرنا عليهم)[234].

الإفتراض الثالث: وهو قيام التدافع بين الأطراف المتعددة للباطل وهو التدافع المحقق للتوازن بين الحق والباطل باعتبار أن هذا التدافع يحقق اختصارا لأطراف للباطل ويهييء الواقع لصالح طرف الحق. وأوضح الأمثلة هو القتال الذي كان قائما بين الروم والفرس.

والمقتضي المنهجي لهذا الافتراض هو نفس ما كان في القرآن الكريم بالنسبة للقتال الذي كان دائرا بين الروم والفرس وهو المتابعة والتقييم: (غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ)، وهو ما يتطلب منا أن نملك التصور

233 أخرجه الشيرازي في الألقاب والكني من حديث نعيم ابن مسعود الأشجعي، ضعفه السيوطي في جامعة الصغير ومن بعده الألباني، وعزاه المناوي إلى أبي نعيم والديلمي.
234 البخاري في الجهاد باب الدعاء على المشركين – وفي مواضع أخرى – ومسلم في الجهاد أيضا رقم (1742) من حديث ابن أبي أوفي.

السياسي للواقع العالمي؛ لكي نتمكن من المتابعة الصحيحة والتقييم الصحيح للقوي العالمية وعلاقتها، والأحداث التي تكون بينها، وأثر ذلك كله على واقع الدعوة الإسلامية.

وليكن مفهوما أن هناك حقيقة خطيرة في المقتضي المنهجي للعلاقة بين أطراف الباطل وهي أن يسبق التصور السياسي الذي يحقق المتابعة والتقييم وإدراك الأثر، هو علمنا أن موقف، أصحاب الدعوة الصحيح هو الذي يحقق آثارا جوهرية في أحداث العالم؛ وذلك بصورة قدرية خالصة وتامة؛ وهذا لأن صواب موقف اصحاب الدعوة هو الذي ينشيء استحقاقهم للنصر والغلبة، وأن نشأة هذا الاستحقاق تعني أن يحدث مقتضاها في الواقع البشري، وأن هذا المقتضي هو تهيئة ظروف العالم وواقعة لحدوث هذا النصر؛ وتلك الغلبة وهذا ما فهمه الصحابة من دلالة انتصار الروم على الفرس.

الافتراض الرابع: تعدد الحق في أطراف مختلفة (يعني واقع الفتنة)، وهذه الحالة تفرض علينا أن نعرف كيف يتم التدافع بين الحق بتعدده في أفهام أصحاب الدعوة واختلاف مواقفهم مع الباطل، هل يتوقف التدافع بتعدد فهم الحق وأطرافه؟

أم أنه لا يتوقف وتدخل أطراف الحق جميعا رغم اختلافها كطرف تدافع مع الباطل؟ أم أن هذا لا يجوز ولا يصلح إلا أن يدخل أحد أطراف الحق في هذا التدافع؟ وإن كان الأمر كذلك فما شروط الطرف الصالح للدفع؟

والإجابة: أن التدافع بين الحق والباطل لا يتوقف لحظة وأن دخول الحق بأطراف مختلفة ومتعددة يبطل الفاعلية القدرية للطرف الإسلامي في الدفع، وأن الحق يجب أن يدخل في التدافع بموقف واحد وطرف واحد.

وعلى هذا فإن المقتضي المنهجي لهذا الافتراض هو السعي إلى قيام الجماعة الواحدة وتحقيق وحدة الموقف فإذا لم نستطع تحقيق هذا الهدف فإن التدافع يقوم بين أحد أطراف الحق مع الجاهلية.

ولكن الطرف القادر على القيام بمهمة التدافع فيه عدة شروط:

1) أن يمارس محاولة وحدة الموقف على مستوي جميع أطراف الحق، وقيام الجماعة الواحدة بصفة عملية وواقعية؛ وليست بصورة نظرية أو فكرية.

2) أن يبلغ هذا الطرف القائم على هدف قيام هذه الجماعة الواحدة حد الاستطاعة في وحدة الوقف الإسلامي قبل الدخول في مرحلة الدفع.

وبلوغ حد الاستطاعة في محاولة الوصول إلى الموقف الواحد له نتائج قدرية محددة: وتحديد هذه النتائج قائم على أساس استحالة توقف الدفع لسبب الاختلاف. وكذلك استحالة دخول الدفع بأطراف مختلفة. وعلى هذا الأساس لا يبقي إلا بلوغ حد الاستطاعة عمليا، في جمع أطراف الحق، والخول في الدفع بعد تلك المحاولة.

فإما أن يتحقق النجاح في المهمة، فيجمع الله بقدرته ورحمته بين أصحاب الحق ويدخل الطرف الإسلامي في الدفع مجتمعا بصورة صحيحة.

وإما أن يكون العجز؛ وفي هذه الحالة يحقق الله بقدرته وعدله للطرف صاحب محاولة التجميع، الفاعلية القدرية المستحقة لجميع أطراف الحق في الصراع.

والمقتضي المنهجي للافتراض الرابع هو أهم المقتضيات باعتباره مواجهة أخطر الافتراضات وهو تعدد أطراف الحق وهذا المقتضي هو:

مواجهة الاختلاف... وتقوم على أربعة حقائق:

الأولى: أن الاختلاف سنة ثابتة، وهي راجعة إلى مقتضى اسم الله (الحكم)؛ ذلك أن مقتضى هذا الاسم أن يختلف الخلق ويتخاصمون، ولهذا يقول ابن القيم: وهكذا جري الاختلافات بين سائر الخلائق. حكى الله تعالى الاختلاف اليسير الذي لا يضر عن الملائكة وبعض الأنبياء عليهم السلام فقال تعالى حكاية عن رسوله: (مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُون)، وحكى ما جري بين داود وسليمان، عليهما السلام، من الاختلاف في حكم الغنم، إذ نفشت فيه غنم القوم إلى قوله سبحانه: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً)، وحكى ما جرى بين موسى وهارون، عليهما السلام، حتى قال هارون لموسي: (لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي)، وقال: (فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ).

وثبت في الحديث اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب في حكم الذي قتل مائة نفس ثم تاب، وبعث الله ملكا يحكم بينهم، فحكم لملائكة الرحمة.

وثبت أيضا محاجة آدم وموسي في الخروج من الجنة. فصار مجموع ذلك دليلا قاطعا على أن العادة قد استمرت بوجوب الاختلاف في الأحكام عند التفاصيل في العلم والحكمة.

والتصور المنهجي لثبوت الخلاف كحقيقة قدرية تقوم على ثلاث عناصر:

أ) أن قدر الاختلاف من الأقدار التي لا تؤخذ بالتسليم، ولكن تؤخذ بالدفع. بمعني أن قدر الاختلاف يدفع بقدر التآلف.

ب) أن تحديد منهج الدعوة مداره الأمر التكليفي، فإذا كان هناك نص إخباري بأن الأمة ستختلف ونص تكليفي بالتألف وجب الأخذ بالنص التكليفي وعدم الاحتجاج بالنص الإخباري كدليل على استمرار الاختلاف.

ج) أن الأختلاف في الفروع هو الأمر الذي يمكن التسليم بوجوده ويستحيل عدمه، ولهذا أورده ابن القيم في إثبات سنة الاختلاف في أول العبارة (وهكذا جري الاختلاف بين سائر الخلائق حتى حكى الله تعالى الاختلاف اليسير الذي لايضر عن الملائكة وبعض الأنبياء)، وقال في أخر العبارة فصار مجموع ذلك دليللا قاطعا على أن العادة قد استمرت بوجوب الاختلاف في الأحكام عند التفاصيل في العلم والحكمة.

الحقيقة الثانية: في الاختلاف هي أن التفاوت في العلم سبب أصلي في هذه الظاهرة، يقول ابن القيم: وذلك يوجب استقباح العالم أفعال الأعلم قدر ما بنيهما من التفاوت، فأولي وأحري أن يوجب استقباح الجاهل لبعض أفعال الأعلم على قدر ما بينهما من التفاوت.

وقصة موسى والخضر مثال لحقيقة التفاوت في العلم وأثره في المواقف.

والمقتضي المنهجي لتلك الحقيقة هو الأمر بالعلم لزيادته ومعالجة التفاوت العلمي الضخم بين أصحاب الدعوة.

الحقيقة الثالثة: إن اختلاف، كسنة واقعة بقدر الله، هي بذاتها محصلة لمجموعة من السنن الاجتماعية والنفسية لايمكن تفاديها هي الأخرى، مثل سنن القلب البشري التي تؤكد تأثير السلوك على القلوب، من غير حيلة من الأنسان كقوله صلى الله عليه وسلم: لاتختلفوا فتختلف قلوبكم[235]، وقوله صلى الله عليه وسلم: الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وماتنافر منها اختلف[236]، وقد وضح من الحديثين أن الحقيقة هو تفادي الخلاف قدر المستطاع، وهو مضمون قول النبي صلى الله عليه وسلم: أقرءوا القران

[235] أبو داود في الصلاة 664 والنسائي 89-2/90 في الامامة وسنده صحيح

[236] أخرجه البخاري في الأنبياء 6/369 من حديث عائشة. واخرجه مسلم في البر والصلة رقم 2638 من حديث أبي هريرة.

ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفت فقوموا[237]، وكذلك ترك الجدل والمراء، لقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وهو محق[238]، ولعلنا نلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر بترك المراء رغم اعتقاد الطرف الذي سيترك المراء بأنه على حق لأن الرسول قال: وهو محق.

والحقيقة الرابعة... في مواجهة الخلاف: هي اليقين بأن هناك من بين الناس من يسعي إلى الاختلاف ويبحث جاهدا عنه، وعلى تلك الحقيقة المشاهدة في الواقع دلييل وهو قول ابن عباس: خلق الله للاختلاف أهل وذلك في تفسير قول الله: (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)، مما يعني أن هناك من خلق للاختلاف بجبلته وطبيعته، وأن لهذه الفئة شواهد سلوكية وإن مقتضى ذلك منهجيا هو حماية واقع الدعوة من تلك الفئة والتحذير منها ومقاومتها.

ولما كان الاختلاف هو مقتضى لإظهار أثر أسم الله الحكم لزم أن يكون الاتفاق ظاهرة قدرية خالصة وذلك باعتبار استثناء من طبيعة لخلق التي أرادها الله وهذا هو المعنى الثاني المأخوذ من قول الله عز وجل: (وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ).

فيصبح الأتفاق مقتضي اسم الرحمن كما ان الاختلاف مقتضي اسم الحكم فلا يخرج الخلق بكل أحوالهم عن مقتضيات أسماء الله الحسنى.

وفي تفسير عناصر مشكلة الاختلاف، تأتي بعض أيات من سورة النحل مجتمعة حول تلك المشكلة حيث جاء قول الله: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، وفي هذه الآية، ان الكتاب نزل لتبيين الاختلاف وهدي ورحمة لقوم يؤمنون ثم جاء بعدها: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، والعلاقة بين الايتين هي العلاقة بين الهدى وماء السماء وهي العلاقة الثابتة هي نصوص كثيرة، ومنها قول النبي صلى الله عليه والسلام: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيب أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب والكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها.

[237] متفق عليه: البخاري في فضائل القران باب اقرؤوا القران ما ائتلف عليه قلوبكم ومسلم في العلم 2667 من حديث جندب بن عبدالله الجبلي.

[238] سنده صحيح أو حسن اخرجه أبو داود في الأدب رقم 480 من حديث أبي أمامة الباهلي.

الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قبعان لاتمسك الماء ولاتنبت الكلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدي الله الذي أرسلت به[239].

والذي يؤكد أن المقصود بالماء هو التمثيل بالهدى هو التعليق على ظاهرة نزول الماء بقوله عز وجل: (لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)، ثم جاء بعدها: (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ).

والعلاقة بين الآية والتي قبلها من الايات هي تحديد صورة كونية بالفصل بين اللبن وبين الفرث والدم، كما بفصل بين الهدى وبين الضلال فلا يختلطان، ثم جاء بعدها قوله عز وجل: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) لتبين لنا صورة كونية لفعل الإنسان في تحول الأشياء عن أصلها وتغير فطرها مثلما يتحول الهدى بالاختلاف والابتداع عن طبيعته في عقول الناس وأفهامهم وبالايتين الاخيرتين يتحقق التقابل بين اللبن والخمر وهما المثلان الكونيان وهما المثلان الكونيان المضروبان للهدي وللغواية في حديث الاسراء والمعراج: حيث يقدم جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم لبنا وخمرا فاختار اللبن، فقال له جبريل: اخترت الفطرة ولو اخترت الخمر لغوت أمتك والذي يؤكد أن هذا هو المقصود من الآية (سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً) هو أن السكر هو الخمر والرزق الحسن هو أكل الثمر قبل أن يصير خمرا والتعقيب يؤكد ذلك بقول الله عز وجل (إذ في ذلك لايات لقوم يعقلون)، إذ ان التعقيب يتفق مع عبرة تحول الأشياء إلى خمر ولايتفق مع معنى التحريم الشرعي للخمر، فالمقصود هو معنى التحويل لامعني التحريم ولذلك يذكر ابن القيم هذه الحقيقة بصورة مباشرة فيقول: (الشراب المعتصر من العنب فإنه طيب يصلح للدواء والاصلاح للغذاء والمنافع التي يصلح لها فهو خلي على حاله لم يكن الا طاهرا صحيا ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرا، فخرج بذلك عن خلقته التي خلق عليها من الطهارة والطيب فصار أخبث شئ وانجسه. فلوا انقلب خلا وزال تغير الماء كان بمترلة رجوع الكافر إلى فطرته الأولى، فأن الحكم إذا ثبت لعلة زال بزوالها، والله أعلم.

ثم تأتي الآية التي بعدها: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)، لتحدد حقيقة الاختلاف الطبيعي الذي لايغير حقيقة الهدى مثلها مثل اختلاف ألوان العسل التي لاتغير من حقيقته

[239] البخاري في العلم باب فضل من غلم وعلم رقم 2282 في الفضائل من حديث أبي موسى الأشعري

حيث قال تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

ثم تأتي الايات التي بعدها لمعالجة العلاقة بين الانسان والعلم، من حيث عمر الأنسان وطبيعته، وهي قول الله: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)، (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً)، وهي الآية المؤكدة لحقيقة التفاوت في العلم كنتيجة لارتباطها بالانسان وحياته، ثم تأتي الآية التي بعدها لتؤكد مفهوم التفاوت في الرزق الذي يدخل فيه العلم لتتأكد حقيقة التفاوت في العلم باعتباره رزقا يتفاوت فيه الناس. (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...).

ومن مجموع هذه الايات التي تشرح هذه الحقائق حول قضية الهدى والاختلاف نري أن القران هو الهدى، وإن الهدى يهبه الله بقدرلمن يشاء من عباده، وان الله يقدررته قد جعل فرقانا بين الضلال والهدى، وان اختلاف الناس في حقيقته وجوهره هو الذي بضيعه، وأن اختلاف الناس الطبيعي المتعلق بالفوارق الشخصية لايؤثر على حقيقة الهدى طالما، وأن الاتفاق على طبيعة الهدى قائم.

وان تفاوت الناس في العلم لايمكن تفاديه بأعتباره ان العلم رزق، وأن الرزق لابد أن يتفاوت.

وبعد ايات سورة النحل التي تعالج مشكلة الاختلاف، تأتي أيات سورة البقرة التي تعالج مشكلة التفرق وذلك بفرض الإمارة الواحدة على واقع التفرق من خلال مقطع قصة طالوت حيث أن هذه القصة درس في الزعامة.

واعتبار هذا المقطع معالجا لواقع الدعوة في مراحل الفتنة جاء على أساس التماثل بين الواقع الذي تزلت فيه وبين واقع الفتنة القائمة الان من حيث الاستضعاف والتفرق رغم استضعاف والرغبة في الجهاد رغم التفرق. ومن هنا فإن الحقائق التي ارتبطت بنشأة الزعامة في هذا الواقع صارت ضرورية في تعحديد منهج الدعوة في مثل تلك المرحلة، وبعد التوافق بين واقع التجربة وواقعنا نحن لايبقي الا التقاط التجربة بإحساس أصحابها الذين عاشوا، حتى نصل إلى التصرف الواجب باطمئنان وثقة لانشاء الزعامة التي يتحدد بها إنهاء التفرقو تلك هي الايات: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ

لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ).

إن كلمة (قد بعث) تدل على أن نشأة الامارة في مثل هذا الواقع قضية قدرية خالصة، لأن المعايير للأمارة غير قائمة، وهذا لايعني الا للجوء إلى الله والاستعانة به في أن يبحث من تجتمع حوله القلوب.

ولكن ظروف مثل هذا الواقع لاتعني الشطط بتفكيرنا في قضية الأمارة نحو إسقاط واجب الجماعة الواحدة، أو العزلة، أو تعليق التجمع الواحد على ظهور المهدي[240] إلى أخر هذه الافكار.

<u>إن شروط الامارة المحددة في قصة طالوت هي:</u>

الشرط الأول: الاختيار الشرعي وهو المأخوذ من كون طالوت قد بعث لهؤلاء الملأ بخبر نبيهم.

والشرط الثاني: هو الكفاءة وهو الشرط المأخوذ من ايتاء طالوت بسطة العلم والجسم.

والشرط الثالث: هو الطمأنينة النفيسة إليه، وهو الشرط المأخوذ من الآية التي جعلها الله لطالوت.

[240] حيث يفهم أن الوصول إلى مرحلة الجماعة الواحدة مرهونا بظهور المهدي مستحيلا بدون، والصواب هو عدم توقف مهمة الوصول إلى مرحلة الجماعة الواحدة، لحظة واحدة وهذا هو الواجب الشرعي الذي لايجوز تعطيله.

والشرط الرابع: الامتداد الواقعي الصحيح لتاريخ الدعوة وهو الشرط المأخوذ من ان تكون الآية والعلامة: (وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ).

وهذه هي الشروط الأصلية لنشأة الأمارة في واقع التفرق والفراغ العلمي.

تأتي بعد ذلك شروط الاسامرار في الإمارة بعد نشأتها وأول هذه الشروط الدخول في الواقع العملي لأنه بمجرد أن تقرر اصطفاء طالوت تبين الايات أنه لم يكن هناك فروق زمني بين أختياره والعمل إذ تقول الايات: (قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ هذا هو الشرط الأول في الاستمرار يتبعه الشرط الثاني وهو التربية وانتقاء الصفوة القادرة: والجسم الشديد في هذه المهمة وهو المأخوذ من الابتلاء بالنهر كما في قوله: (إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ).

وبعد إنشاء الواقع العلمي بأبعاده الكاملة تنشأ معايير الاختيار الشرعية والعملية بصورة طبيعية، والمثال عليها اختيار داوود عليه السلام، وذلك أن داود كان فردا ضمن الذين كانوا مع طالوت، وكان له دور متقدم بين الصفوة مكنة من أن يقتل جالوت فتميز داود بصورة لم تجعل له قرينا فكان هو الملك بعد طالوت بصورة تلقائية: (وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ).

وبعد الاستفادة من مضمون الايات المبينة لقضية الإمارة في واقع الاستضعاف والتفرق ننتقل إلى الصياغة الفقهية لهذا المضمون، بأعتبار أن تلك الصياغة هي أساس التزامنا في واقع الحركة الإسلامية القائم الان، وهذه الحقائق التي تدور حولها أحكام تلك الصياغة هي:

الأولى: أن نشأة الإمارة بمقتضي الواقع والأشياع، يعني أن فرض الإمارة الواحدة على الواقع أسلوب معتبر شرطا بشرط أن يكون فرض الإمارة الواحدة بصفة سليمة عادلة.

وعلى هذا تسقط أساليب التهجم والتنقيص من الغير باعتبار عدم شرعيتها مهما كانت صحة الهدف وشرعيته.

الثانية: أن اعتبار الكفاءة في اختيار الإمارة الواحدة يعني أن القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي هو المعيار الاساسي للاختيار، وأن المقارنة بين أصحاب الفكر النظري وأصحاب القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي الصحيح عمليا يجب أن تكون لصالح أصحاب هذه القدرة العملية.

الثالثة: أن اعتبار السبق في اختيار الإمارة يعني أن عنصر السبق الزمني في اختيار الإمارة الواحدة أمر له اعتباره، إذ تتمثل فيه قيمة الفضل الذي يجب أن يبقي لأهله وقيمة التجربة التي تمثل إمكانية هائلة في تحقيق غاية الدعوة.

الرابعة: ان اعتبار درء المفسدة الأعظم في الأبقاء على الإمارة التي قد لاتكتمل فيها الشروط يعني أن العجز في اختيار الإمارة الكاملة الصواب لايمكن ان يكون سببا في إبقاء حالة التفرق، بل يجب اختيار الامارة الأقرب إلى الصواب، ويجب أن يكون تقييمها محصلة نهائية لبعدين الأول: المفروض الذي يجب أن يكون، الثاني الواقع الذي يجب مواجهته، وهنا تبرز قيمة تلك الأمارة.

وبعد طرح القضية الأساسية الأولى وهي قرآنية المنج الحركي وتفسير الفاعلية القدرية للنص القرآني وطرح القضية الأساسية الثانية وهي الدفع بين الإسلام والجاهلية بمقتضياه وافتراضاته نأتي إلى القضية الاساسية الثالثة في التصور القدري لمنهج الحركة الإسلامية.

ثالثا: المقتضي المنهجي لعلامات الساعة:

1) تقدير الزمان:

والتحديد القدري للزمان الذي ستمارس فيه الدعوة من أهم قواعد التحديد المنهجي لها، اذ انه سينشأ عن هذا التحديد حقائق ومقتضيات هامة في الأسلوب المباشر للحركة ولاجل قيمة التحديد القدري للزمان. في تحديد منهج الدعوة، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة بما كان وماهو كائن فعن ابي زيد الانصاري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضر الظهر نزل فصلي الظهر ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى العصر، ثم صعد المنبر فخطبنا

حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان ما هو كائن فأعلمناه أحفظنا[241] وفي حديث اخر قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لم أر كاليوم خيرا وشرا)، حتى سأل الصحابة[242].

وهذه هي أسس التحديد القدري للزمان:

الأساس الأول: التحديد العام لزمان الدعوة:

ومن أهم حقائق هذا التحديد أن الزمان ابتداء من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة هو الوقت المقدر للعمل الإسلامي، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: مثل المسلمين واليهود والانصاري كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم، فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لاحاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وماعملنا باطل. فقال لهم: لاتفعلوا، أكملوا بقية يومكم، وخذوا أجركم، فأبوا، وتركوا، واستأجروا أخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا. حتى إذا كان العصر قالوا ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شئ يسير فأبو فاستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس فاستكملوا جر الفريقين فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور[243]، ومن هذه الحقيقة يثبت أن واقع الدعوة الإسلامية هو الحركة المناط بها قدرا تحقيق إرادة الله عز وجل في الواقع البشري إلى اخر الزمان من خلال الخلافة عن الله وهداية البشر والشهادة عليهم.

كما ينشأ عن هذه الحقيقة ضرورة أن يكون المسلمون أداة صالحة لتحقيق هذه الإرادة الالهية.

كما يثبت بهذه الحقيقة مسئولية الدعوة الإسلامية، بصفة مستمرة، باعتبار أنهم يعملون لله إلى نهاية الزمان في كل أرض وهذا هو الأساس الأول في التحديد القدري للزمان في ممارسة الدعوة.

الأساس الثاني: تفصيل زمن الدعوة:

[241] أخرجه مسلم في الفتن رقم 2892 من حديث عمرو ابن أخطب أبو زيد الأنصاري.

[242] هو قطعة من حديث الكسوف في الصحيح وسبق تخريجه.

[243] البخاري في الاجارة باب الاجارة من العصر إلى الليل وفي مواقيت الصلاة باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب من حديث أبي موسي الأشعري.

وهو التحديد من خلال علامات الساعة، والحقيقة الأولى فيه: أن زمن الدعوة هو زمن الساعة، بدليل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: بعثت في نفس الساعة[244] وفي حديث أخر: وان كادت لتسبقني[245] ومقتضي هذه الحقيقة أن تكون أحداث الرسالة داخلة في أحداث الساعة وهذا ما كان دليله قول الله عز وجل: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ ما نعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ). مما يعني إجلاء اليهود كان ول الحشر وبدايته، بدليل ما ورد عن الحسن إذقال: لما أجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير قال: هذا أول الحشر وأنا على الأثر[246].

وفي تفسير الآية قال ابن عباس: من شك أن ارض المحشر هاهنا، يعني الشام، فليقرأ هذه الآية: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ).

قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرجوا. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ارض المحشر[247] وكيفية الحشر الواردة عن النبي تؤكد هذا المعنى أي تسوقهم إلى مكان حشرهم وهو أرض ببلاد الشام.

وقد ثبت في عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري[248] قال رحمه الله تعالى: عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ستخرج نار من حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس. قلنا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ قال: عليكم بالشام[249].

وعن معاوية بن حيدة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: انكم تحشرون ونحا بيده نحو الشام، رجالا، أي مشاة، وركبانا، أي راكبين على الجمال، وتجرون على وجوهكم.

---

[244] أخرجه الترمذي في الفتن 2213 وقال حديث غريب من حديث المستورد بن شداد يعني ضعيف وهو كما قال لأن فيه مجالد بن سعيد.

[245] أخرجه أحمد في المسند 5/348 من حديث بريدة الاسلمي وسنده صحيح حسن كما قال الحافظ في الفتح 11/348

[246] أخرجه ابن ابي حاتم كما في تفسيرابن كثير من سورة الحشر 8/597 وهو من مراسيل الحسن.

[247] أخرج أحمد وأبو يعلي من حديث ابن عمرو مرفوعا والترمذي 2217 في الفتن وصححه.

[248] 328/32/11

[249] أخرجه الترمذي والنسائي وسنده قوي كما قال الحافظ (11/380)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض ألزامهم مهاجر إبراهيم، أي بلاد الشام، ويبقي في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضهم، وتقذرهم نفس الله، أي يكره الله رخوجهم إلى الشام ومقامهم بها، فلا يوقفهم لذلك، فتحشرهم النار مع أول القردة والخنازير[250].

وعن أنس، رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أول اشراط الساعة نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب[251].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تبعث نار على المشرق فتحشرهم إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا – من القالة – وهي النوم وقت الضحي – والمراد أي النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا في الليل والنهار ويكون لها ما سقط منهم وتخلف، وتسوقهم سوق الجمل الكسير – أي تسوقهم ببطء[252].

وعن حذيفة بن أسيد، رضي الله عنه، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم: أواخر ذلك أي اخر العلامات الكبري نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس إلى محشر[253].

ووجه الجمع بين هذه الأخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن لاينافي حشرها من المشرق إلى المغرب وذلك ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت إلى المغرب إرادة تعميم الحشر، لاخصوص المشرق والمغرب وأما جعل الغاية إلى المغرب فإن الشام بالنسبة إلى المشرق مغرب.

وقد تضمنت هذه الأحاديث بيان خروج النار وبيان وقت خروجها وكيفية سوقها للناس ومنتهاها

وجاء في حديث بيان أحوال الناس وبيان وقت خروجها إلى المحشر روي البخاري في صحيحه[254] ومسلم في صحيحه أيضا[255] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى

[250] أخرجه أحمد وسنده لابأس به كما قال الحافظ (11/380

[251] أخرجه البخاري في الفتن باب خروج النار من حديث أنس.

[252] أخرجه الحاكم في مستدركه 4/458 وصححه ووافقه الذهبي على شرطهما.

[253] اخرجه مسلم في صحيحه في الفتن وهو حديث لن تقوم الساعة حتى ترو عشر ايات وسبق تخرجه...

الله عليه وسلم قال: يحشر الناس – أي إلى الشام – قبل قيام الساعة وهم أحياء على ثلاث طرائق أي ثلاث أحوال راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، هذا معطوف على محذوف وتقديره واحد على بعير واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير ةعشرة على بعير أي أنهم يتعاقبون.

علي ركوب البعير الواحد، فيركب بعضهم، ويمشي بعضهم: (وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا)، أي تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر. نسأل الله السلامة والعون.

وبهذا الأساس يمكن تحديد الزمن القائم الآن، والتزام بمقتضاه المباشر في ممارسة الدعوة بصورة تفصيلية من خلال العلامات التي حدثت، والعلامات التي تحدث.

وقد حدد ابن كثير في كتاب البداية والنهاية العلامات التي حدثت فقال: إنها خلافة أبي بكر، وعمر، وفتح مصر، وهلاك كسري وقيصر، ومقتل عمر بن الخطاب وعثمان، والفتنة بين على ومعاوية، وذكر الخوارج، ومقتل على والأخبار بأن الخلافة ثلاثون عاما، وقد اشتملت هذه الثلاثون سنة على خلافة إبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعثمان الشهيد، وعلى بن إبي طالب الشهيد، أيضا، وكان ختامها وتمامها الستة أشهر التي وليها الحسن بن على عن أبيه، وغزو البحر، وغزو الهند، وقد غزا المسلمون الهند سنة أربع وأربعين في إمارة معاوية، وقتال الأتراك وقد قاتلهم نواب بني أمية في أقصي بلاد السند والصين، وظهور الكذابين، وظهور نار من أرض الحجاز أضاءت لها أعناق الإبل ببصري وقد كان ذلك سنة أربعة وخمسين وستمائة في يوم الجمعة خامس جمادى الآخر.

كذلك ذكر ابن كثير الآيات والعلامات التي أخبر بها صلى الله عليه وسلم، حتى زمانه، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، ثم تلا ذلك بذكر الآيات والعلامات التي أخبر بها صلى الله عليه وسلم حتى زمانه، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، ثم تلا ذلك بذكر الآيات والعلامات التي أخبر بها صلى الله عليه وسلم حتى آخر الزمان.

[254] 326/11
[255] 194/17

وأول الأحاديث في ذلك هو حديث أبي زيد الأنصاري قال: (صلي النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح ثم صعد المنبر فخطب حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلي، ثم صعد المنبر فخطب حضرت العصر، ثم نزل فصلي العصر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غابت الشمس، فحدثنا بما كان وما هو كائن فأعلمنا وأحفظنا)[256]، وحديث عمر بن الخطاب يقول: (قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه، ونسيه من نسيه)[257]، ثم قد ذكر ابن كثير حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأن ما بقي من الدنيا فيما مضي منها ما بقي في يومكم هذا فيما مضي منه)[258] وفيه الدلالة على ما هو مقطوع به أن ما بقي من الدنيا بالنسبة إلى ما مضي منها يسيرا جدا.

ولما تبين من علامات الساعة أن مدار الزمان على الخير والشر، كما جاء في حديث حذيفة الذي حدد الزمان بأنه شر الجاهلية، وخير النبوة، وشر الفتنة، وخير به دخن، وشر الدعاة على أبواب جهنم؛ فإنه يمكن تحديد الزمان الذي نعيشه من خلال مراحل الخير والشر الذي يدور عليها الزمان.

ويدخل في تحديد الزمان وجود الأمانة الدال على أنه لم يرفع من الدين شيء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أول ما يرفع من دينكم الأمانة، وآخر ما يرفع من دينكم الصلاة)[259] حيث يبين صلى الله عليه وسلم أن رفع الأمانة يعني ألا يكون على الأرض رجل أمين. فدل وجود الأمانة على الأرض على أنه لم يرفع من الدين شيء حتى الآن.

وبذلك تكون عناصر هذا الأساس هي أن زمن البعثة من الساعة، وتفصيلا فإن هناك علامات حدثت وعلامات لم تحدث حتى الآن وأننا باعتبار مدار الخير والشر في مرحلة شر الدعاة على أبواب جهنم وباعتبار رفع الدين فإنه حتى الآن لم يرفع من الدين شيء.

---

[256] مسلم، وسبق تخريجه.

[257] أخرجه البخاري في بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده).

[258] حديث صحيح، أخرجه أحمد في المسند رقم (1673) عن ابن عمر مرفوعا، وجاء في نهاية البداية موقوفا على ابن عمر فهو خطأ أو سقط من الناسخ.

[259] أخرجه الطبراني في الصغير رقم (387) عن عمر بن الخطاب مرفوعا وفيه حكيم بن نافع أبو زرعة. وهو عند القضاعي رقم (216) من حدي انس مرفوعا وفيه ثواب بن حجيل وهو مجهول. قال حمدي السلفي: (للفقرة الأولي شاهد عن الطبراني في الكبير (7182) من حديث شداد بن أوس) انظر الزوائد (4/145). وله شاهد آخر عند أبي يعلي وفيه أشعث بن براز كما قال الهيثمي في المجمع (7/321).

الأساس الثالث: أحكام تحديد العلامات:

ومن هذه الأحكام تحديد الشروط الذاتيه والخارجيه الازمه والمتعلقه بالعلامه الواحده فمثلا للدجال علامات ذاتيه منها انه أعور وأنه قبيح وأنه لايولد له وأنه يهودي وأنه يخرج من أصبهان إلى آخر هذه العلامات. فيصير توافر هذه الشروط الذاتية شرط للجزم بأنه الدجال ومع هذه الشروط الذاتية يجب تحقق الشروط الخارجية اللازمة والمرتبطة بها في الواقع ومنها جفاف نخل بيسان وجفاف بحيرة طبرية فيصبح تحقيق هذه الأمور الخارجية شرط في الجزم بظهور العلامة الذاتية.

ومن هذه الأحكام الحذر من التقييم المادي للعلامة ولنضرب لذلك الحذر مثلا يوضحه فمن علامات ظهور الدجال جفاف بحيرة طبرية فإذا نظرنا إلى بحيرة طبرية الآن وجدناها تكاد تجف فننظر إلى العلامة مادية فنقيس الباقي من الزمن اللازم لجفاف البحيرة إلى الفترة الزمنية التي بدأ فيها جفاف البحيرة أصلا وإذا نظرنا هذه النظرة نقول أن المتبقي من الزمن اللازم لجفاف البحيرة قليل جدا لأن الباقي من مياة البحيرة قليل جدا وهذا خطأ لأن الباقي من البحيرة هو المانع من تحقق علامة الجفاف وهو أمر قدري غير مرهون بالمعدل الزمني الذي بدأ فيه جفاف البحيرة.

وبصفة عامة... فإن تقدير الزمان اللازم لتحديد منهج الدعوة بتصور العلامات يقابله ارتباط الحركة الجاهلية بحقائق العلامات بالصورة المضادة للحركة الإسلامية وأساس الارتباط هو التدخل المادي في محاولة القضاء على أي علامة تمثل أثر إيجابيا للحركة الإسلامية ومثال ذلك هدم النصارى للمارتين اللتين يترل بينهما عيسى عليه السلام وكذلك الحرص على أي علامة تمثل أثرا إيجابيا للحركة الجاهلية ومثال ذلك زراعة اليهود – الآن – لشجر الغرقد الذي سيخفي اليهود آخر الزمان دون أن يقول يا مسلم ورائي يهودي تعالى فاقتله وهذا التصرف المادي وإن كان ساذجا وغير مؤثر إلا أنه يدل دلالة قاطعة على إدراك الجاهلية للعلامات وقيمتها في الصراع بين الجاهلية والإسلام وأن هذا الإدراك يبلغ درجة قد لا يصل إليها المسلمون أنفسهم وفي هذا نقص كبير يجب معالجته.

2) العلاقة بين النص التكليفي والإخباري:

والنص الشرعي أما أن يكون تكليفيا أو إخباريا، لذا لزم تحديد العلاقة بين هذين النوعين في إطار مهمة التحديد المنهجي للدعوة وهذه العلاقة هي أهم حقائق المقتضي المنهجي للتصور القدري.

وتفسير هذه الحقيقة هي أن النصوص التكليفية هي مدار التحديد المنهجي للدعوة، وهي المحققة للالتزام الشرعي بصورته المباشرة. أما النصوص الإخبارية فقيمتها دائرة بين الاستشهاد بها على علم الله المحيط والاستدلال على قدرة الله المطلقة.

ونبدأ التفصيل بحديث يوضح العلاقة بين المر التكليفي والإخباري في نص واحد وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لو أن بيد أحدكم فسيلة[260] وعلم أن القيامة غدا فليغرسها)[261] [رواه مسلم]. فتضمن الحديث الأمر بغرس الفسيلة في وقت اليقين أن القيامة غدا، وأن الفسيلة لن تخرج، وعلى هذا كان غرس الفسيلة هو التكليف، وكان عدم خروجها هو الخبر، وأن الخبر لا يمنع الالتزام بالتكليف.

وعلى ضوء هذا النص تناقش قضايا الدعوة الإسلامية فلا يمنع خبر (عودة الإسلام غريبا) تكليف الدعوة والجهاد، ولا يمنع خبر (تفرق الأمة) تكليف الجماعة الواحدة والتآلف، وبذلك يكون النص التكليفي هو أساس التحديد المنهجي للدعوة.

وكما ينفصل الأمر التكليفي عن الإخباري في بعض النصوص مثل حديث الأمر بزرع الفسيلة وحديث الأمر بالتآلف رغم خبر الفرقة، فإنه تأتي نصوص يكون فيه الأمر التكليفي لازم الخبر، مثال قول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان)، وهذا هو الجزء الخبري: (فدوروا مع القرآن حيث دار)، وهذا هو الجزء التكليفي اللازم للخبري.

وجدير بالذكر أن هناك نصوصا تكليفية ولكنها جاءت في صيغة إخبارية، مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله اليهود[262] والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد)، وهذا ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم تقول بعده عائشة: يحذر مثل ما صنعوا، فأصبح للخبر مضمونا تكليفيا هو هذا التحذير.

والقيمة الأساسية للنص الإخباري، من الناحية المنهجية، ترجع إلى الإستفادة بمضمونه لتحقيق الالتزام تجاه هذا الإخبار، ومثال ذلك أخبار فتنة على ومعاوية فقد

[260] الفسيلة: هي النخلة الصغيرة.

[261] أخرجه أحمد في المسند (184، 3/191)، والبراز (2/81 كشف) من طريق حماد بن سلمة عن هشام بن زيد عن أنس قال البزار: (لا نعلم رواه عن هشام).

[262] متفق عليه: البخاري في الصلاة (1/532) [باب الصلاة في البيعة)، ومسلم (530) في المساجد من حديث أبي هريرة ولفظة (وصالحيهم) عند مسلم في الصحيح 0

علمها الرسول صلى الله عليه وسلم كما أخبره الله سبحانه وتعالى، فكان لرسول الله تجاه هذه الأخبار عدة مواقف تهدف إلي: تقليل ضرر الفتنة وكان ذلك من خلال عدة أمور:

1) الدعاء في مسجد معاوية بأن لا يجعل الله بأس المسلمين بينهم شديدا، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد معاوية هو شكل من أشكال الربط بين موضوع الدعاء ومجاله الكوني. ومن أمثلة هذا الربط دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لجابر بن عبد الله بالبركة في حديقته وهو يسير بين الأشجار ومن أمثلة هذا الربط أيضا وضع اليد على الذي يألم من الجسد عند الدعاء بالشفاء وكذلك الاتجاه نحو الجهات الأربعة عند الدعاء برد الضالة.

2) الأمر بقتل أي زوجة من زوجاته تتجاوز بعد وفاته مكانا حدده لهن وهذا الأمر الذي ذكر على عائشة فعادت قائلة: (حسبي حسبي)، [حديث رواه أحمد والبخاري].

وقد كان هذا الحديث سببا في تقليل الأضرار التي نشأت عن الفتنة.

3) الإذن لبعض الصحابة بالتعرب في هذه الفتنة، وذلك كما ورد في حديث سلمة بن الأكوع فعنه أنه قال رضي الله عنه: (دخل علي الحجاج فقال: يابن الأكوع ارتددت على عقبيك؟ تعربت؟ قال: لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في التعرب)[263].

4) وصف الحسن بالسيادة باعتباره المصلح بين الطائفتين فيما سيكون بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين[264].

5) التقييم الذي يفيد معرفة الحق في هذه الفتنة، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويح عمار تقتله الفئة الباغية[265].

263 أخرجه البخاري في الفتن (13/40) من حديث يزيد بن أبي عبيدة عن سلمة بن الأكوع

264 أخرجه البخاري في المناقب (7/94) من حديث أبي بكر رضي الله عنه

265 البخاري في الصلاة باب التعاون في بناء المساجد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

واتماما لتحديد القاعدة العامة للعلاقة بين النص التكليفي والاخباري نواصل تحديد الموقف الشرعي من الأحكام القدرية. المماثلة للنصوص الاخبارية وهذا الموقف يقوم بثلاث عناصر:

التسليم وهو نوع تسليم بغير دفع: لانه لامجال فيه للدفع مثل المصائب التي تنزل فجأة، ونوع تسليم أختياري وهو الذي يكون فيه مجالا للدفع ولكن يختار فيه العبد التسليم بغير الدفع، وهو نوع استثنائي يتطلب الدليل واليقين على أن الخير في التسليم بغير دفع، ومثال ذلك تسليم عثمان بن عفان في ليلة مقتلة ثم أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في رؤية رآها أن سيفطر معه الليلة فاختار التسليم عندما أراد الخوارج قتله حيث رفض طلب على بن أبي طالب بالدفاع عنه.

وأبرز أمثلة هذا الموقف في واقع الدعوة هو الأمر بالتسليم للقتل في حال الفتنة، وفيه يقول النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر أرايت ان قتل الناس بعضهم بعضا حتى تغرق حجارة الزيت في الدماء كيف تصنع؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: اقعد في بيتك واغلق عليك بابك. قلت: فإن لم اترك أأخذ سلاحي؟ قال: إذ تشاركهم فيما هم فيه ولكن ان خشيت ان يروعك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك كي يبوء بإثمه وإثمك[266].

الدفع: ذلك أن الأحكام القدرية نوعان: حكم كوني قدري فيه للعبد كسب واختيار وإرادة فهذا حقه شرعا أن ينازع ويدافع بكل ممكن، مثل دفع قدر الجوع بقر الأكل. زلكن النوع الثاني هو الحكم القدري الكوني الذي يبذل فيه جهده في المدافعة والمنازعة ثم يقع، فهذا حقه أن يتلقي بالاستسلام، وعليه أن يشهد عزة الحكم في حكمه وعدله وقضائه، ومثال ذلك قدر البلاء.

التخيير: وهو الذي يخير فيه العبد بين حكمين قدريين فيختار أحدهما مثلما خير الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة التي كانت تصرع عندما طلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بأن يشفيها الله فقال لها: (إن شئت دعوت الله لكي فشفاكي وإن شئت صبرت ولكي الجنة)، فقالت: (أصبر ولكني أتكشف فأدعو الله لي أن لا أتكشف).

---

[266] أخرجه أبو داود (4261)، وابن ماجة (3958) - وغيرهما - من حديث عبدالله بن الصامت عن أبي ذر، وسنده صحيح على اختلاف في إسناده.

فدعا الله لها أن لاتتكشف[267]. ومثل أن يقع الانسان بين حكم: أن يكون مظلوما أو ظالما، فيختار أن يكون مظلوما، ودليل ذلك حديث الطفل الذي تكلم في المهد[268].

رابعا: التصور القدري لمنهج التربية:

واذا كان منهج التربية يهدف بالاعتبار العقيدي إلى تكوين (العبد الرباني) لتحقيق التجريد.

ويهدف بالاعتبار الاخلاقي إلى تكوين المثال الأنساني لتحقيق الدعوة وبهدف بالاعتبار المادي إلى تكوين الامكانية البشرية لاستخلاص الطاقة فإن منهج التربية يهدف بأعتبار القدري إلى تكوين (أداة الخير لتحقيق الهداية).

وبهذا الأعتبار يكون منهج التربية هو أسلوب تكوين تلك الأداة، ليكون المسلم صاحب دعوة ورسالة، وذلك من خلال سنن النفس البشرية كما أوجدها الله.

مرتكزا على الخصائص التي أودعها الله في تلك النفس، مستفيدا بالفاعلية القدرية للنفس البشرية في الواقع الكوني بالصفة العامة والفردية، مستحدثا بهذا المنهج أثر هائلا في النفس وبهذه النفس اثر هائلا في الدعوة وبهذه الدعوة أثر هائل في الوجود.

والتصور القدري لمنهج التربية له عدة مراحل الكمالات:

1) مرحلة الكمال الأولى وهي المرحلة المحققة للشروط الواجبة في الداعية وهي:

أ) الاطمئنان إلى صفات الله لتحقيق صفة النفس المطمئنة.

ب) والرضا بالقضاء لتحقيق التفويض، وسلامة القلب، والتجرد من حظ النفس.

ج) والارداة من خلال حب الله واللالتزام بالجماعة والعلم.

د) والبصيرة لتحقيق اليقظة والعلم.

[267] متفق عليه: البخاري في المرضى 10/114 ومسلم في البر والصلة 2567 من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

[268] وفيه أن غلاما في المهد تكلم عندما مر على أمه وهي ترضعه رجل جبار ظالم فدعا الله الا يكون مثله ومر على أمه أمرأة مظلومة فدعا ان يكون مثلها.

أ) الطمأنينة إلى صفات الله:

فالتصور القدري لتربية الدعاة وتكوينهم يبدأ الطمأنينة إلى صفات الله سبحانه، وهذا يقول ابن القيم: والطمأنينة إلى صفات الرب تعالى نوعان: طمأنينة إلى الأيمان بها وإثباتها واعتقادها، وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجيه من أثار العبودية.

مثاله: الطمأنينة إلى القدر واثباته به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدروة له على دفعها، فليسلم لها، ويرضى بها، ولايسخط، ولايشكو، ولايضطرب، فلا ييأس على ما فاته، ولايفرح بما أتاه، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق، كما قال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌلِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ)، وقال تعالى: (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ).

قال غير واحد من السلف، هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها واثاهرها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها، وكذلك سائر الصفات واثارها ومتعلقاتها: كالسمع، والبصر، والعلم، والرضا، والغضب، والمحبة، فهذه طمأنينة الايمان وبذلك تصبح النفس مطمئنة.

ومايقابلها النفس الأمارة وفيها يقول ابن القيم: وقد انتصبت الأمارة في مقابل المطمئنة ومن أعجب أمرها أن تسحر القلب والعقل فتأتي إلى أشرف الأشياء وأفضلها وأجلها فتخرجه في صورة مذمومة وتريه صورة الصدق مع الله وجهاد من خرج عن دينه وأمره في قالب الانتصاب لعداوة الخلق وأذاهم وحربهم، وأنه يعرضه نفسه من البلاء لما لايطيق وأنه يصير غرضا لسهام الطاغين، وأمثال ذلك من الشبهة التي تقيما النفس السحارة والخيالات التي تخيلها، ويريه حقيقة الجهاد في صورة تقتل فيها النفس، وتنكح المرأة ويقسم المال.

ب) الرض بالقضاء:

ومن طمأنينة الدعاة إلى صفات الله يتحقق الرضى بقضائه سبحانه وتعالى ومن هنا كانت المقارنة التي عقدها ابن تيمية بين الرضى والجهاد فقال: الرضى من أعمال القلوب نظير الجهاد من أعمال الجوارح، فإن كلا منهما ذروة سنام الايمان، قال ابو الدرداء: ذروة

سنام الايمان الصبر للحكم، والرضى بالقدر، ومن حيث أثار الجهاد يواصل ابن القيم الربط بين الجهاد والرضى فيقول: وكراهة النفس لاتنافي الرضى كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا المجاهد مما يحصل له في سبيل الله من ألم وجرح.

كما يفسر ابن القيم العلاقة بين الرضى واحساس الالم والمكاره فيقول: وليس شرطا الا يحس بالألم والمكاره، بل الا يعترض على الحكم ولا يسخط هذا في مدارج السالكين.

ويقول في الداء والدواء: وان يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه.

وإذا علمنا شروط الرضى وجدناها شروط الدعاة. وإذا تتبعنا طريق الرضا وجدناه طريق الدعوة. وإذا رأينا علامات الرضى وجدناها علامات هذا الطريق.

ويقول ابن القيم: وشروط الرضى أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد، وأولي الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة.

وطريق الرضى همة عالية ونفس زكية وتوطين النفس على ما يرد عليها من الله، وعلامات الرضا ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب في حشو البلاء.

وفي النهاية فالرضى هو سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد.

والرضى بالقدر هو الرضى بالأسماء والصفات، لقول ابن القيم: جميع ما في الكون أوجبته مشئة الله وحكمته وملكه، فهو موجب أسمائه وصفاته، فمن لم يرضى بما رضي الله به لم يرض بأسمائه وصفاته ولم يرضى به ربا، والرضى هو تفويض الأمر إليه، وهذا التفويض هو الموقف القدري الصحيح للدعاة كما قال صاحب سورة غافر: (فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ).

وإذا كان القلب هو مناط الاظهار لآثار أسماء الله وصفاته، وهو لب الداعية وجوهر واقع الدعوة، فإن الرضى هو الذي يفتح للعبد أبواب السلامة، فيجعل قلبه سليما، فهو الذي يخرج الهوي من القلب، وهو الذي يحقق للقلب راحته وطمأنينته ومن ملأ قلبه بالرضى ملأه الله قناعة وغني وأمنا.

واذا كان التجرد من حظ النفس أمرا لازما للداعية، فإن الرضا هو محقق التجرد، إذ ان الرضى هو الا يريد العبد مصلحة نفسه من كل وجه، وأن ينتفي عنه الحرص، وأن يعلم أن حقيقة حظه هي الرضا بالمقدور.

واذا كان اليقين هو شرط الامامة في الدين والقيادة في الدعوة، فإن اليقين هو قرين الرضا، ذلك أن السخط يفتح على العبد باب الشك في الله. فإن الرضى واليقين قرينان، والشك والسخط قرينان، وإذا حدث الشك كان التلون، وذلك السخط يوجب تلون العبد وعدم ثباته مع الله.

ومن الطمأنينة إلى صفات الله والرضى بقضائه تكون الارادة والبصيرة.

ج) الإرادة:

والارادة بالتصور القدري، لها منبع أساسي هو معرفة الله، لأن معرفة الله تحقيق محبته، ومحبته تحقق الإرادة ذلك أن محبته لله تتحقق الأنس به سبحانه، والانسان في أول الأمر يجد تعب التكليف، ومشقة العمل، لعدم أنس قلبه بمعبوده، فإذا حصل للقلب روح الأنس زال عنه تعب التكليف والمشاق فصارت له قوة ولذه تصير الصلاة قرة عينه بعد ان كانت عملا عليه: وليستريح بها بعد أن كان يطلب الراحة منها فله ميراث من قوله صلى الله عليه وسلم: أرحنا بالصلاة يا بلال[269]، وجعلت قرة عيني في الصلاة[270] بحسب إرادته ومحبته وانسه بالله تعالى ووحشته مما سواه.

ومن سنن النفس البشرية أن يعمل الانسان وفق ما يحبه، وهذا تفسير قوله الله تعالى: (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)، فإن معنى الآية قل كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به، فالفاجر يعمل على ما يليق به، وكذلك الكافر والمنافق، ومريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يناسبه ولايليق به سواه، والمحب لله يعمل ما هو اللائق به والمناسب، فهويعمل على شاكلته وإرادته وماهو الاليق والأنسب.

[269] أخرجه أبو داود في الأدب (4985)، و (4986) من طريق عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد وسنده صحيح.
[270] الطبراني في الكبير عن المغيرة بن شعبة وهو عند غيره وسنده صحيح

ومن سنن النفس البشرية والداخلة في معنى الآية ان يعمل الانسان على شاكلة من يحبهم من الشر، ولاريب أن كل من تعلق بأنفاس قوم انخرط في مسلكهم ودخل في جماعتهم، ومن هنا تصبح الجماعة والماعيشة من أهم منابع الإرادة بعد حب الله عز وجل.

وتعريف الإرادة أنها ترك العادة، لأن عادة الناس غالبا التعريج على أوطان الغفلة، وأجابة داعي الشهوة الاخلاد إلى أرض الطبيعة.

وترك العادة يكون بالعلم، فإنه النور الذي يعرف العبد به مواقع ما ينبغي إيثار طلبه وما ينبغي إيثار تركه، فمن لم يصحبه العلم لن تصح له إرادة، ومن هذا كان الانتفاع بالعلم من علامات الإرادة، فكان قولهم إنه سمع شيئا فعمل به صار حكمه في قلبه أخر عمره ينتفع به، وإذا تكلم انتفع به من يسمعه.

وبذلك ينضم العلم إلى منابع الإرادة فتكون هي: حب الله... والالتزام بالجماعة... والعلم.

ويقول سفيان الثوري: أول العلم الاستماع ثم الانصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر[271] وبذلك يتحقق الارتباط الطبيعي بين العلم والدعوة.

صفات صاحب الإرادة:

والملاحظة الأساسية في هذه الصفات أنها مقتضى حب الله والصبر على طاعته. وهي:

التحبب إلى الله بالنوافل، تقابلا مع المعاناة في أداء الفرائض. والأخلاص في النصيحة، تقابلا، لمن لاتتجاوز إرادته حدود نفسه، بل تقل عن تلك الحدود.

والتعرض لكل سبب يواصل إليه تقابلا مع السعي لتفادي الواجب والتكليف بالعلل والمعاذير.

والقناعة بالخمول وهو عدم الشهرة، والقناعة بعدم الشهرة هو مقتضى الإخلاص، والسعي للشهرة يتنافي مع الارادة لتعلقها الاخلاص وهذه الحقيقة تنبهنا إلى خطأ خطير في

[271] فتح الباري ص317

مجال التربية وهو استثارة حب الظهور والمدح هو أسلوب غير شرعي لتوليد الارادة في كيان الأنسان،

والارادة الصحيحة لاتؤثر فيها الأيام، أما من لم تصح إرادته بابتداء فإنه لايزيده مرور الأيام عليه إلا ادبارا، ومن لم يكن في زيادة فهو إلى نقصان.

ويحدد ابن القيم الأساسي المحقق: لمعني أن تكون حياة الآنسان لدعوته، فنجد كذلك، قائما على حقيقة الإرادة فيقول: من علامات الأرادة أن يكون نومه غلبة، وأكله فاقة، وكلامه ضرورة، وهذه العلامات قائمة على معنى أن تكون حياة صاحب الإرادة كلها لله سبحانه.

ويحدد ابن القيم الصيغة العلمية للحياة التي تكون لله سبحانه وتعالى، فنجد ذلك قائما على حقيقة العبادة إذ يقول: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته[272].

فأفضل العبادات في وقت الجهاد: الجهاد وان آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل، وصيام النهار بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الأمن.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقة والاشتغال به عن الورد المسنحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل في أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقران والدعاء والذكر والاستغفار.

والافضل في وقت أسترشاد الطالب: تعليم الجاهل والاقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان: ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن.

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح في إقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع وان بعد كان أفضل.

[272] مدارج السالكين ج1 (ص69 - 71)

والأفضل في صورة أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن او المال: الاشتغال بمساعدته واغاثة لهفته وإيثار ذلك على أوردك وخلوتك.

والأفضل في وقت قراءة القران: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه حتى كأن الله تعالى يخاطبك به فتجمع قلبك على فهمه، وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره اعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

والأفضل في وقوف عرفة: الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك.

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة: الإكثار من التعبد، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد.

والأفضل ف العشر الأخير من رمضان: لزوم المسجد فيه، والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاسشتغال بهم.

والأفضل في وقت رمض أخيك المسلم أو موته: عيادته، وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك.

والأفضل في وقت نزول النوازل وإيذاء الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لايخالطهم ولايصبر على أذاهم[273].

والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه فإن علم أنه إذا خالطهم ازاله او قلله فخلتطهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

فهذه أفضل العبادة وهذا دأب صاحبها في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن

[273] هو معنى حديث صحيح أخرجه ابن ماجة في الفتن.

رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، .. حر مجرد دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين الآمر أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق ويستوحش منه كل مبطل؛ كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها. وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله فهو: لله وبالله، ومع الله.

البصيرة:

ولها مقدمات وهي اليقظة؛ وتعني انزعاج القلب من رقدة الغافلين، ثم العزم وهو العقد الجازم على السير ومفارقة كل معوق، ومرافقة كل معين. والعزم يكون بحسب اليقظة، فإذا استيقظ وجبت الفكرة وهي تحديق القلب نحو المطلوب الذي استعد له مجملا ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه فغذا صحت فكرته أوجبت له البصيرة وهي نور القلب يرى به الحق وهي ثلاث درجات:

بصيرة في الأسماء والصفات: وهي أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه.

بصيرة في الأمر والنهي: وهي تجريده عن المعارضة بتأويل أو تقليد أو هوي؛ فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه، ولا شهوة تمنع تنفيذه وامتثاله والأخذ به، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص.

بصيرة في الوعد: وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت في الخير والشر عاجلا وآجلا.

ومقتضي البصيرة أن تؤدي ما أمرت منه سبحانه من غير شك ولا شكوي وأن تغضب على من يخالف ذلك غيره عليه سبحانه أن يضيع حقه ويهمل جانبه.

أما الفراسة فهي من آثر البصيرة تفجر المعرفة، وتثبت الإشارة؛ فإنه بهذه البصيرة تنفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تنال بكسب ولا دراسة إن هو إلا فهم يؤتيه الله في كتابه ودينه على قدر بصيرة قلبه. يعني أن البصيرة تنبت في القلب الفراسة الصادقة وهي نور يقذفه الله في القلب يفرق به بين الحق والباطل والصادق والكاذب.

وبتمام مرحلة الكمال الأولى يتحقق مفهوم كمال الدعوة وهو الوارد في تفسير قول الله تعالى: (أولوا الأيدي والأبصار)[274].

إذ يقول ابن القيم: الكمال الإنساني مداره على أصلين: معرفة الحق والباطل وإيثاره عليه. وما تفاوت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثني بهما الله سبحانه على أنبيائه وهما في قوله تعالى: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ). فالأيدي القوية في تنفيذ الحق. والأبصار والبصائر في الدين فوصفهم بكمال إدراك الحق. وكمال تنفيذه فهؤلاء أشرف الأقسام من خلق وأكرمهم على الله تعالى.

الثاني: بعكس هؤلاء من لابصيرة له في الدين، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولايستفاد بصحبتهم الا العار والشنار.

الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به لكنه لاقوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله منه.

الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة ولكنه ضعيف البصيرة بالدين ولايكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وليس هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولاهو موضع لها سوي القسم الأول[275]

ويقول الفخري الرازي في تفسير: (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ). أن من مراتب العباد اثنان: التام، وفوق التام، أما التام فهو ان يكتسب من الصفات الفاضلة والتي لأجلها يصير كاملا في ذاته، فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بعدها بتكميل الناقصين. وهو فوق التام، وفي تفسير قول الله عز وجل: (وَزِدْنَاهُمْ هُدىً).

في سورة الكهف ان هداهم تعداهم إلى غيرهم فصاروا دعاة.

وقد مر سفيان الثوري: أول العلم الاستماع ثم الانصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر[276].

---

[274] ص: 45

[275] الداء والدواء ص 174

[276] فتح الباري ص 317

والواقع ان ارتباط حياة الانسان بالدعوة أمر طبيعي لأن الله سبحانه خلق الانسان صاحب دعوة، وأودع فيها خصائص والقدرة على تحمل تكاليفها.

ولأجل أن خصائص الدعوة لكل أنسان أمرا طبيعيا فإنها أن لم تستوعب في الدعوة إلى دين الله، فإنها ستبدد في غيرها.

ومن عبادته وطاعة أمره: الأمر بالمعروف والنهي بالمنكر بحسب الامكان، والجهاد في سبيله لأهل لأهل الكفر والنفاق، فيجتهدون في إقامة دينه مستعنين به دافعين مزيلين بذلك ما قدر من السيئات، دافعين ما قد يخاف من ذلك، كما يزيل الإنسان الجوع الحاضر بالأكل، ويدفع به الجوع المستقبل، وكذلك إذا زال البرد ودفعه باللباس وكذلك كل مطلوب يدفع به مكروه كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أتابيت الأدوية فتداوي بها ورقي تسترقي بها وتقاه نتقيها هل ترد من قدر الله شيئا، قال: هي من قدر الله.

ولذلك يقول ابن تيمية[277]: إذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني ادم فإن لم يأمربالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، وينهي عن المنكر الذي نهي الله عنه ورسوله، ويؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله وينهي عن المنكر الذي نهي الله عنه ورسوله، والا فلا بن ان يامر وينهي إما بعد يضاد ذلك وإما يشرك فيه الحق، الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله، وإذا تنخذ ذلك دينا مبتدعا، وهذا كما أ، كل بشر فإنه متحرك بل في إدارته همام وحارث.

وهذا هو المعنى الأساسي للكمال الانساني في واقع الدعوة.

يتبعه معنى اخر ان يكون حياة الانسان كلها للدعوة، ويفسر ابن القيم معنى ان تكون حياة الانسان للدعوة فنجده يلخص ذلك في ان تكون الدعوة بالنسبة للانسان قضية حياته، وهدف عمره وغاية امكانيته، فتبين أن أي قوة أو حال، أو وقت او امكانية او مكانة او ذكاء مسخرة للدعوة في سبيل الله فهذا منه من الله على العبد والا فهي حجة عليه فيقول:

فكل علم صحبع عمل يرضى الله سبحانه وتعالى والا فهو حجة عليه، وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأمره فهي منة والا فهي حجة، وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة اليه فهو منه والا فهو حجة، وكل حال اقترن به انفاق في

[277] الحسبة لابن تييمية

سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء ولا الشكور فهو منة من الله عليه والافهو الحجة وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه والا فهو حجة، وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار ومعرفة بعيب النفس والعمل وبذل النصيحة للخلق فهو منه وإلا فهو حجة، وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبودية ومزيد في العقل ومعرفة في الإيمان فهو منة وإلا فهو حجة وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل بالسير إلى الله وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله وإن صحبة الوقوف عند غيره[278]، والرضا به، وإيثار مقتضاه. من لذة النفس، وطمأنينتها، وركونها إليه حجة من الله عليه فليتأمل العبد هذا الموضوع العظيم الخطر.

وجماع الأمر في ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله في الظاهر والباطن؛ فتكون حركات نفسه وجسمه كلها في محبوبات الله. وكمال عبودية العبد موافقته لربه في محبة ما أحبه وبذل الجهد في فعله، وموافقته في كراهة ما كرهه، وبذل الجهد في تركه. وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة لا الأمارة ولا اللوامة فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل. وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة في معرفة الاسماء والصفات والأفعال له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالسير إلى الله طريق الأسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولامكدود ثم نأتي إلى الحكمة وايثار رضى الله تعالى وهما ثمرة المرحلة الأولى والعنصران الأساسيان في كمال الدعاة.

الحكمة:

ومن حيث الابتداء فقد ارتبط مفهوم الكمال الانساني بواقع الدعوة من خلال حقيقة الحكمة، ذلك أنه بالحكمة تكون الدعوة ويكون الكمال من له ميراث كامل من أبيه، ونصف الرجل كالمرأة له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لايحصيه الا الله تعالى، واكمل الخق في هذا الرسل صلوات الله عليهم، وأكملهم أولو العزم، وأكملهم محمد عليه الصلاة والسلام.

ثم تكون ثانية الثمار للكمال الانساني في واقع الدعوة وهي إيثار رضى الله عنه.

[278] أي غير الله سبحانه.

الإيثار:

إيثار رضا الله تعالى على رضا غيره وان عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن ضعف عن الطول ةالبدن، وايثار رضا الله عز وجل على غيره هو ان يريد ويفعل ما فيه مرضاته ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء، واعلاها لنبينا صلى الله عليه وسلم، فإنه قاوم العلم كله، وتجرد للدعوة إلى الله واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، واثر رضا الله على رضا الخلق من كل وجه، ولم يأخذ في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همة وعزمه وسعيه كل مقصورا على ايثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته واعلاء كلماته، وجهاد أعدائه، حتى ظهر دينه على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين، فبلغ الرسالة، وأدي الامانة، ونصح الامة وجاهد في الله حق جهاده ما نال صلوات الله وسلامه عليه.

أما قوله: وان عظمت فيه المحن، وثقلت فيه المؤن فإن المحنة تعظم فيه اولا ليتأخر من ليس من أهله. فان احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحا وصارت تلك المؤن عونا، وهذا معروف بالتجربة الخاصة والعامة فإنه ما اثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته الا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤؤنة نعمة ومسرة ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته فانقلبت مخاوفا أمانا، وعطبة نجاة، وتعبة راحة، ومؤنثة معونة، وبليته نعمة، ومحنته محنة، وسخطه رضا.

فيا خيبة المتخلفين، وياذلة المتهيبين.

وبعد مرحلة الكمال الأولي وهي تحقق الاطمئنان إلى صفات الله والرضى بقضائه وتحقق الإرادة والبصيرة وهي مرحلة كمال الدعاة، وتحقق ثمرة هذه المرحلة وهي الحكمة وايثار رضى الله تأتي المرحلة الثانية.

مرحلة الكمال الثانية وهي الإمامة في الدين:

الصبر واليقين:

والصبر واليقين هما شرط الامامة في الدين ولهذا قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ).

ففيها يقول ابن تيمية: أخذو برأس الأمر فجعلهم رؤساء)، وقال الامام ابن القيم: بالصبر واليقين تنال الامامة في الدين فالصبر واليقين هما مادة جميع المقامات والحامل عليها وهذا تفسير أنهما رأس الأمر

ومن هنا اقتران الصبر واليقين والايمان والتقوي والتوكل والشكر والعمل الصالح في القران الكريم، أما الصبر فتوريثه للامامة في الدين، لأنه صفة أهل العزائم، ولهذا قال الله تعالى: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ).

ولأن الصبر هو تعويد النفس الهجوم على المكاره، وان نرضي بتلف نفسك في رضى من تحبه والسكون مع البلاء ولهذا كان صعبا على العامة احتمال البلاء، وعز عليه وجدان البصر.

ولابن القيم عبارة في مدارج السالكين تحتاج إلى تفسير وهي قوله: العلم بأمر التأخر والاحجام فإن لم يصحبه اليقين قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم والله اعلم والمعنى ان العلم اذا كان تفكيرا نظريا مجردا فإنه هو الذي يصور لصاحبه مقام القعود على انه مقام الصواب والحق فينعدم عنده دافع المواجهة.

لذا لزم اليقين مع العلم فيتحقق الدافع باليقين والصواب بالعلم، ولذا يقول ابن القيم: اليقين يحمل على الاهوال وركوب الاخطار، وهو يأمر بالتقدم دائما ولهذا فإن اليقين يلزمه العلم، لأن اليقين إذا لم يقارنه حمل على المعاطب وهي الإقدام في غير صواب.

ولهذا فإن اليقين يورث للدعاة صفة الحكمة، وفي هذا يقول ذو النون اليقين يدعو إلى قصر الامل يدعو إلى الزهد، والزهد يورث الحكمة وهي تورث النظر في عواقب الأمور.

ب) أساسيات منهج التربية:

1) التأثير في السلوك:

وبعد عرض التصور القدري لتربية الدعاة نبدأ في أحكامه الواقعية وأساليبه العملية وأول ذلك كله.

العناية بالقلب.

واتفقنا أن القلب مناط الإخبات والزهد والورع والتبتل.

وواجبات القلب: الاخلاصالتوكل، المحبة الصبر، الإنابة، الخوف التصديق الجازم، النية في العبادة.

لذا كان من الضروري أن تكون العناية بالقلب وسلامته هي الأساس في تحديد منهج التربية في واقع الدعوة، والعناية بالقلب تكون بتحديد الأسباب التي تحجب القلب عن نور الله وهي عدة أسباب:

1) نفي حقائق الأسماء والصفات وهو أعظمها
2) حجاب الشرك
3) حجاب البدعة القولية والعملية
4) حجاب أهل الكبائر الباطنة، والظاهرة، والصغائر
5) حجاب أهل الفضائل تنشأ عن أربعة عناصر هي النفس الهوي والشيطان والدنيا.

ويختص ابن القيم مفسدات القلب في أربعة أمور:

1) كثرة الخلطة والتمني.
2) التعلق بغير الله.
3) المنام.

والعلاج:

وبعد هذه الحجب وأسبابها يعالج ابن القيم الواردات التي ترد على القلب فتمنعها من مطالعة الحق فيقول: أما الفتنة التي تقطع فهي الواردات التي ترد على القلوب فتمنعها من مطالعة الحق وقصده، فإذا تمكن من منزلة الاخبات وصحة الارادة والطلب لم يطمع فيه عارض الفتنة، وهذه العزائم لاتصح الا لمن أشرف على قلبه أنوار اثار الأسماء والصفات، وتجلت عليه معانيها، وكافح قلبه حقيقة اليقين بها، واعلم انه متي استقرت قدم العبد في منزلة الاخبات وتمكن فيها ارتفعت همته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم، فلا يفرح لمدح الناس ولايحزن لذمهم هذا وصف من خرج نفسه للفناء في عبودية ربه وصار قلبه مطرحا لأشعة أنوار الأسماء والصفات وباشر حلاوة الايمان واليقين قلبه وبعد تمام المعالجة القلبية يناقش ابن القيم بعض الظواهر المتعلقة بالقلب مثل التجسيد الحسي للظواهر الغيبية وذلك اعتبار ان القلب هو أساس تحقيق هذه الظاهرة.

ولعل أهم الأمثلة على هذه الظاهرة هي قسم عبد الله بن حزام على انه يشم الجنة دون احد ورؤية أسيد بن حضير لغمامة عند قراءة القران إلى غير ذلك من الامثلة، وتفسير هذه الظاهرة أن البصيرة تنقسم إلى قسمين: القلب، والواقع، فمن ناحية القلب يقول ابن القيم معاينة البصر ومعاينة الأبصار معروفة: وأما معاينة القلب فهي انكشاف صورة المعلوم له بحيث يكون نسبة إلى القلب كنسبة المرئي إلى العين، وقد جعل الله سبحانه القلب يبصر ويعمي كما تبصر العين وتعمي فإنها لاتعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب في الصدور.

ومعاينة البصيرة هي وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخالق حتى يكون إدراكه له بمنزلة ادراك العين للصورة وقد يقوي سلطان هذا الإدراك الباطن، بحيث يصير الحكم له، ويقوي استحضار القوة العاقلة لمدركها بحيث يستغرق فيه فيغلب حكم القلب على حكم الحس، والمشاهدة فيستولي على السمع والبصر بحيث يراه ويسمع خطابه في الخارج وهو في النفس والذهن ولكن لغلبة الرغبة وقوة الاستحضار وتمكن حكم القلب واستيلاءه على القوة صار كأنه مرئي بالعين مسموع بالأذن.

وهذا هو تفسير الذي وجده عبد الله بن حزام الانصاري يوم احد لما قال واها لريح الجنة أني أجد والله ريحها دون احد.

أما الواقع فهو المقصود، بقول ابن القيم: وقوع القوة العاقلة على المثال العلمي المطابق للخارجي فالخارج هنا هو الواقع.

فرؤية هذه الحقائق الغيبية مرده إلى ان هناك واقعا لتلك الحقائق، فإذا اخذنا المثل المضروب وهو قسم عبد الله حزام على ان يشم الجنة دون احد، فإن الواقع في هذا المثال هو أن الجنة تحت ظلال السيوف[279] كما قال النبي صلى الله عليه وسلم فعندما شم الصحابي الجنة فكان هذا، لآنه بلغ درجة المعاينة القلبية لواقع غيبي قائم وهو الجنة التي تكون تحت ظلال السيوف.

[279] أخرجه الحاكم (3/394) عن أبي موسي ونحوه في الصحيحين، . فرقة صرفت قواها وقوي أعمالها إلى سكره وحبسه وايقافه فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر فإنه يوشك أن يجتمع، ثم يحمل على السكر فيكون إفساده وتخريبه أعظم.

وبعد تحديد التصور القدري لمنهج التربية نأتي إلى الاساليب التطبيقية لتنفيذ هذا التصور، وتطبيق هذا التصور التربوي يقوم ابتداء على أساس النظرية الأجتماعية الإسلامية المتضمنة لسنن النفس البشرية.

2) النظرية الأخلاقية:

ويحدد ابن القيم هذه النظرية الأخلاقية المتضمنة لسنن الفتن النفس البشرية فيضرب ما يمكن أن نسميه بالمثل النهري للأخلاق الأنسانية فيقول: فالأخلاق... نهر جار ففي صببه ومنحدره ومنته إلى تغريق أرض وعمران ودور وأصحابها يعلمون أنه لاينتهي حتى يخرب دورهم ويتلف اراضيهم وأموالهم فانقسموا ثلاث فرق.

وفرقة: رأت هذه الحالة وعلمت أنه لايغني عنها شيئا، فقالت لا خلاص من محذوره الا بقطعة من أصل الينبوع، فرامت قطعة من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الاباء، فهم دائما في قطع الينبوع وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة الثة خالفت رأي الفريقين وعلموا انهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم فأخذوا فيصرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله اليه ولا يتضررون به، فصرفوه إلى ارض قابلة للنبات وسقوها به، فانبت أنواع العشب والكلأ والثمار المختلفة والأصناف فكانت هذه الفرقة هي أصوب الفرق في شأن النهر.

فإذا تبين هذا المثل فالله سبحانه وتعالى قد اقتضت حكمته أن ركب الانسان، بل وسائر الحيوان، على طبيعة محمولة على قوتين، غضبية، وشهوانية وهي الادارية وهاتان القوتان هما الحاملتان لأخلاق النفس وصفاتها، وهما مركوزتان في جبلة كل حيوان، فبقوة الشهوة والارادة يجذب المنافع إلى نفسه ويقوي الغضب يدفع المضار عنها، فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه تولد منها الحرص واذا استعمل الغضب في دفع المضرة عن نفسه تولد منه القوة والغسرة فإذا عجز عن ذلك الضار أورثه قوة الحقد، وان عجز وصول ما يحتاج إليه ورأي غير مستبدا به أورثه الحسد، فإن ظفر به أورثته شدة شهوته وإرادته خلق البخل والشح، وإن اشتد حرصه وشهوته على الشيء ولم يمكنه تحصيله إلا بالقوة الغضبية فاستعملها فيه أورثه ذلك العدوان والبغي والظلم؛ ومنه يتولد الكبر والفخر والخيلاء فإنها أخلاق متولدة من بين قوتي الشهوة والغضب وتزوج أحدهما بصاحبه.

إذ تبين هذا فهذه الفرقة الثالثة رأت أن هذه الصفات ما خلقت سدي ولا عبثا وأنها بمنزلة ماء يسقي به الورد والشوك والثمار والحطب، وأنها صوان وأصداف لجواهر منطوية عليها، وإن ما خاف منه أولئك هو نفس الفلاح والظفر فرأوا أن الكبر نهر يسقي به العلو والفخر والبطر والظلم والعدوان

ويسقي به علو الهمة والأنفة والحمية والمراغمة لأعداء الله وقهرهم والعلو عليهم. وهذه درة في صدفته فصرفوا مجراه إلى هذا الغرس واستخرجوا هذه الدرة من صدفته وأبقوه على حالة في نفوسهم لكن استعملوه حيث يكون استعماله أنفع. وقد رأي النبي صلى الله عليه وسلم أبا دجانة بين الصفين فقال: (إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموضع).

فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟

قلت: يمكن أن يقع كسبيا بالتخلق والتكلف حتى يصير له سجية وملكة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأشج بن عبد القيس رضي الله عنه: (إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والإناة) فقال: أخلقين تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ فقال: (بل جبلك الله عليهما)، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

فدل على أن من خلق ما هو طبيعة وجبلة وما هو مكتسب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعاء الاستفتاح: (اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت[280] واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت)، فذكر الكسب والقدر والله أعلم.

فمن سنن الله في النفس البشرية أن الله يحسن خلقها إذا سعي صاحبها ابتداء إلى هذا التحسين. وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحري الصدق حتى

[280] قطعة من حديث صحيح أخرجه مسلم في المسافرين (771) من حديث على رضي الله عنه قال ابن القيم في (203): (والمحفوظ أن هذا الاستفتاح إنما كان يقول في قيام الليل)

يسمي[281] عند الله صديق، وإياكم والكذب فإن الكذ يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، وما زال الرجل يكذب حتى يسمي عند الله كذابا[282].

فتبين من الحديث أن الله سبحانه يكتب بقدره الخلق على صاحبه إذا داوم عليه فلا يفارقه أبدا.

وفي تفسير: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ) يعرف ابن القيم خلق الرضى بالقضاء والقدرة فيقول: إن بدايته كسبي باعتبار سببه ونهايته قدري وهي باعتبار حقيقته. ومن هنا يتبين أثر الأخذ بسبب الأخلاق الطيبة في ثباتها وبقائها مع صاحبها الذي أخذ بسببها.

ومن سنن النفس البشرية سنة الارتباكط الأخلاقي فيها وينقسم الارتباط إلى نوعين:

الأول: ارتباط مجموعة من الأخلاق بأل واحد من أصول الجبلة البشرية.

وفيه يقول ابن القيم: أصل الاخلاق المذمومة كلها الكبر والمهانة والدناءة، وأصل الأخلاق المحمودة كلها: الخشوع وعلو الهمة فالفخر والبطر، والأشر والعجب والحسد والبغي والخيلاء والظلم واقسوة والتجبر والإعراض واباء قبول النصيحة، والاستئثار وطلبب العلو، والرئاسة، وأن يحمد بما لم يفعل وامثال ذلك كلها ناشئة من الكبر، وأما الكذب والخسة والخيانة الرياء والمكر والخديعة والطمع والفزع والجبن والبخل والعجز والكسل، والذل لغير الله، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونحو ذلك فإنها من المهانة والدناءة وصغر النفس، وأما الاخلاق الفاضلة: كالصبر والشجاعة والعدل والمروءة والعفة والصيانة، والجود والحلم، والعفو والصفح والاحتمال والايثار وعزة النفس عن الدناءات والتواضع والقناعة والصدق والأخلاق، و الاحسان بمثله أو أفضل والتغافل عن زلات الناس وترك الاشتغال بما لايعنيه وسلامة القلب من تلك الاخلاق المذمومة ونحو ذلك فكلها ناشئة عن الخشوع وعلو الهمة، والمقتضي التربوي لهذه الحقيقة هو التركيز على مقاومة أصول الاخلاق الذميمة وتنمية أصول الاخلاق الحميدة.

والنوع الثاني: ارتباط خلق بخلق اخر مثل الجبن والبخل والارتباط بين الشجاعة والكرم حيث أن مرد كل خلقين منهما إلى أصل واحد فيعد كل خلق دليلا على الاخر،

[281] وفي رواية يكتب 0

[282] متفق عليه: البخاري في الأدب (باب قول الله تعالى): (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، وما ينهي عن الكذب)، ومسلم البر (2606)، و (2607)

فيتم التقييم على أساس أنه غالبا ما يكون كل بخيل جبان وكل كريم شجاعا وناخذ من البخل دليلا على الجبن قبل أن ينشأ الموقف الذي يظهر هذا الجبن ونأخذ من الكرم دليلا على الشجاعة قبل أن ينشأ الموقف الذي يظهر هذه الشجاعة وهكذا نتصور الناس ونضعها في موضعها الصحيح.

ومن سنن النفس البشرية والفترة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل شئ شره وفترة[283] والشرة والفترة هي الحماس والخمول. وتقلب النفس بين هاتين الحالتين سنة سنة قدرية، والتعامل مع النفس بهذا الاعتبار يعني، منهجيا محاولة الوصول بها تربويا إلى مرحلة التوازن، ومن هنا كان التوجية النبوي، بقول النبي صلى الله عليه وسلم: أحب الأعمال إلى الله أدومها وان قل[284] وقوله: ان المنبت لا أرضا قطع ولاظهر أبقى. والتحذير من الحماس الزائد باعتباره ظاهرة غير صحيحة لقول النبي صلى الله عليه وسلم إن لكل شئ شره ولكل شرة فترة فإن صاحبها سدد وقارب فارجو وان اشير اليه بالأصبع فلا تعدوه[285] وكذلك التحذير من الفتور والتأخر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: ولايزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله[286] وقوله: بادروا الأعمال[287].

وبهذا التصور كانت البيعة على الإسلام والسمع والطاعة كما قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره. حيث أن المنشط هو استعداد النفس وحماسها، والمكره هو تباطؤ النفس وفتورها.

ومن أهم الحقائق الأخلاقية في النفس هو الارتباط بين الطبع وبين الحق والباطل؛ فيكون الطبع من حيث الصورة خلقا كريما إذا ارتبط بالحق، وخلقا رذيلا إذا ارتبط بالباطل. ومن هنا كان تحديد الفرق بين الأخلاق الكريمة والرذيلة والناشيء عن هذا الارتباط في كتاب (الروح) لابن القيم؛ حيث ذكر أمثلة كثيرة لهذه الأخلاق منها: الفرق

[283] أخرجه الترمذي في صفة القيامة رقم 2453 من حديث أبي هريرة وسنده حسن لأن فيه ابن عجلان وقال الترمذي: حسن صحيح غريب من هذا الوجه

[284] متفق عليه: البخاري في الأيمان باب أحب الدين أدومه، ومسلم في الصلاة رقم 782 من حديث عائشة.

[285] سبق تخريجه قريبا.

[286] أخرجه أبو داود في الصلاة 679 وفي سنده اضطرب وله شاهد في مسلم وهذا الحديث ورد في التأخير عن الصف الأول تأخيرا مطلقا 0

[287] قطعة من بضعة أحاديث يصحح بعضها منها عند الترمذي 2307 في الزهد والنسائي (4/4) في الجنائز وغيرهم من حديث أبي هريرة 0

بين الشرف والتيه، والتواضع والمهانة، والقوة في أمر الله والعلو في الأرض، والغضب لله والغضب للنفس، والجود والسرف، والمهابة والكبر، والعفو والذل، والثقة والغرور، وحب الرياسة، وحب الإمارة في الدعوة إلى الله، والتوكل والعجز، والاحتياط والوسوسة.

ويقول في النهاية: فالشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو منقسم إلى محمود ومذموم. والمقتضي المنهجي لهذه الحقيقة هو تقييم النفوس على أساس ارتباط أخلاق أصحابها بالحق والتدقيق في هذا الارتباط.

ومن سنن النفس البشرية أن الإنسان كلما كبر ازداد حبا للحياة والمال؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب الحياة، وطول العمر)[288].

والمقتض المنهجي لهذه الحقيقة هو الاستفادة بمرحلة الشباب؛ باعتبار مرحلة الاستعداد الطبيعي للبذل والتضحية، ولا يمنع هذه القاعدة وجود البذل والتضحية بين الشيوخ، ولكن ارتباط الاستعداد للبذل والتضحية بمرحلة الشباب هو الذي تقوم عليه حسابات الدعوة ومنهجها التربوي باعتباه ارتباط أساسيا عاما.

ويقابل أساسية التأثير في السلوك أساسية التكليف الصحيح حيث يتحقق بالأساسيتين الاستفادة الصحيحة الكاملة بالفرد في دعوته وجماعته.

3) العلاقة الصحيحة بين الفرد والجماعة:

فيجب أن يقوم تكليف الأتباع على أساس قدر الله فيهم فيكون التكليف مناسبا لقوة الإيمان باعتبار أن التكليف نوع من البلاء، وأن القاعدة القدرية في البلاء تناسبه مع هذا الإيمان، ولهذا يقول ابن القيم في مدارج السالكين: إذا عرفت مقام الخلق ومقاديرهم وجريان الأحكام القدرية عليهم، وأنهم مقيدون بالقدر، لا خروج لهم على الحكم الكوني القدري لا يتعدونه، استفدت بهذه المعرفة ثلاثة أشياء: أمن الخلق منك وذلك أنه إذا نظر إليهم بعين الحقيقة لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه، وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأخذ العفو منهم فأمنوا من تكليفه إياهم، والزامه لهم ما ليس في قواهم وقدرتهم.

---

[288] متفق عليه: البخاري في الرقائق (11/239)، ومسلم في الزكاة (7/138) من حديث أنس رضي الله عنه وألفاظهما غير هذه 0

ولأجل أن التكليف بحسب مقادير الأتباع وجريان الأحكام القدرية عليهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعالج أي أمر خارج عن الطاقة بصورة قدرية خالصة، فكان يدعو الله عز وجل بأن يعين المكلف على تكليفه كما في الحديث الذي قال فيه جرير قال[289]: (ألا تريحني من ذي الخلصة)، كان بيتا في خثعم يسمي الكعبة اليمانية قال: فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل. قال: وكنت لا أثبت على الخيل فضرب صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري قال: (اللهم ثبته واجعله هاديا مهديا)[290] فانطلق إليها فكسرها وحرقها.

وكما في حديث فتح خيبر حيث قال النبي صلى الله عليه سلم يوم حنين: (لأعطين الراية غدا رجلا يفتح عليه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله). فبات الناس ليلتهم أيهم يعطي، فغدوا كلهم يرجوه فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فبصق في عينيه، ودعا له فبرأ كأن لم يكن فيه وجع فأعطاه[291].

وكما يكون التكليف مناسبا؛ كذلك يكون العطاء. وهذا التناسب كان أساس العطاء والمنع عند النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الأتباع مثلما (أتي النبي مال فأعطي قوما ومنع آخرين، فبلغه أنهم عتبوا فقال: (اني أعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، أعطي أقواما في قلوبهم من الجزع والهلع، وأكل أقواما إلى ما جعل الله في قلوبهم من القناعة والخير)[292].

ومع التناسب في التكليف والعطاء يكون التناسب في التعامل مع كل فرد بحسب ميزته التي أودعها الله فيه كما قال ابن القيم: وإن الله قد وزع كمالاته على جميع خلقه. فيقوم منهج التربية على أساس التناسب بين ميزة الشخص والتكليف المطلوب.

ونظروا إلى الضعفاء والخصوم بمعني التحقير والأزدراء، وتعذر على العلماء المتلطفين محوها مع ظهور فسادها.

للاستفادة الكاملة منها، لتحقق في النهاية الهدف العام للجماعة من خلال مزايا كل أفرادها.

---

[289] أي رسول الله صلى الله عليه وسلم 0

[290] البخاري في المناقب (7/131)، وإعادة في المغازي في اواخرها0

[291] البخاري في فضائل الصحابة (7/70) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه 0

[292] متفق عليه: البخاري في المغازي باب الطائف وفي مواضع أخرى. ومسلم في الزكاء (1059) من حديث أنس رضي الله عنه 0

خامسا: التصور القدري لأساليب الدعوة:

أ) التبليغ: والتبليغ بالتصور القدري مرتكز على خمي حقائق:

1) الداعية المبلغ عن الله.
2) سنن التأثير في النفس البشرية.
3) التصور القدري لمن هو موضع للبلاغ.
4) حدود إقامة الحجة واستحقاق الهلاك بمقتضاها.
5) قضية الأسماء والبلاغ.

1) الداعية المبلغ:

وتحديد التصور القدري للبلاغ يقوم على أساس أن المبلغ عن الله (بين الله وعباده)، ومن هنا يجب أن يكون أداة صالحة، ولذلك يقول ابن القيم في قول الله: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)، بمعني الاصطفاء لموسى. والاصطناع في الأصل اتخاذ الصنيعة؛ وهي الخير تسديه إلى غيرك. قال ابن عباس: اصطنعتك لوحي ورسالتي. وقال الكلبي: اخترتك بالرسالة لنفسي لكي تحبني وتقوم بأمري. قال أبو إسحاق: اخترتك بالإحسان إليك لإقامة حجتي[293].

وكون المبلغ عن الله أداة صالحة؛ فإنها قدرا، لا يجب أن تتجاوز حدود الأداة والسبب. وسببية الدعاة إلى الله تحمي الدعاة من ثلاثة أخطار[294]:

1) خطر الغرور إذا تحققت الاستجابة، والاعتقاد أن الداعية مجرد سبب في الهداية يحميه من هذا الشعور.

2) خطر اليأس إذا كان الإعراض؛ لأن الاعتقاد بالسببية يجعل الداعية يشعر انه أدي ما عليه وأن المر بيد الله.

3) خطر الخروج بالعوة عن موضعها بملاحقة من لا يستحقون الدعوة، وإهمال دعوة من يستحقون الدعوة؛ وذلك عندما يتجاوز الداعية حدود السببية في الدعوة بتصوره الشخصي دون توسم الانتفاع بتلك الدعوة فيمن يدعوه.

[293] مدارج السالكين ص 123 ج 3
[294] سبق ذكر أمثلة التعامل مع الأفراد بحسب مزاياها التي قدرها الله فيهم

أما من حيث الأسلوب والتبليغ عن الله فيجب أن يجمع كل سنن التأثير في النفس وممارسة الدعوة باعتبار الجبلة التي خلق الله الناس عليها.

2) سنن التأثير في النفس البشرية:

العمل: إن التصور القدري للبلاغ يفرض علينا ألا نفهم ممارسة الكلام دون عمل أو مخالفة الكلام للعمل على أنه مجرد مخالفة شرعية؛ ولكن على أنه تناقض يعبر القرآن عنه في سورة الصف بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ). ذلك أن آيات السورة التي بدأها هذه الآية تدور حول موضوع واحد: هو تمام الانحراف عن الحق أو التناقض، وأن الكلام بغير جهاد هو الصورة الكاملة لهذا التناقض؛ ولهذا جاء في السورة: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)، فالإيذاء واقع وهم يعلمون أنه رسول الله إليهم وجاء.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإسلام). فالافتراء واقع منهم. وهم يدعون إلى الإسلام)، فالافتراء واقع منه وهم يُدعون إلى الإسلام، جاء ايضاً (يريدون ان يُطفئوا نور الله بأفواههم)، وهذه هي الصورة النهائية للتناقض: محاولة إطفاء نور الله بأفواه البشر. وهكذا يعالج القرآن ظاهرة الكلام بغير عمل في إطار معالجة التناقض بصوره النهائية والمتعددة.

والتصور القدري للبلاغ يفرض علينا أن نفهم أن ممارسة الكلام دون عمل يفقده أثره لأنه تناقض بين الدعوة وسنن الله في خلق الإنسان إذا إنه من السنن النفسية أن يتأثر الإنسان بالعمل.

فالعمل هو أهم أساسيات البلاغ القدرية، ذلك أن طبيعة هذا الدين عملية – وهكذا أنزله الله سبحانه – وأن مقتضى هذه الطبيعة أن ترتبط غاية الدعوة بقدر ضخم من العمل وقدر قليل من الكلام. ومن هنا آتي الله نبينا عليه الصلاة والسلام (جوامع الكلم)، ولذلك تقول الصحابة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم: (لو عده العاد لأحصاه)، ويرتبط هذا المعنى بطبيعة العلم وهو أنه نور يقذف في القلب وليس بكثرة الكلام. وفي هذا يقول ابن القيم: انظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعلى ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كان كلامهم أقل من كلام من بعدهم من الصحابة وهم أعلم منهم، وكذلك كلام التابعين أكثر من كلام الصحابة والصحابة أعلم منهم، وكذلك تابعوا التابعين كلامهم أكثر من كلام التابعين والتابعون أعلم منهم، فليس العلم بكثرة الرواية ولا بكثرة المقال ولكنه

نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد.

وفي تأثير الدعاة العاملين في غيرهم يقول ابن القيم: ومن هنا كان الانتفاع بالعلم من علامات الإرادة فكان قولهم إنه إذا علم شيئا من العلوم فعمل به صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به، وإذا تكلم انتفع به من سمعه.

سنة القدوة: وأوضح المواقف المؤكدة لهذه السنة هو ما كان يوم الحديبية[295].

سنة المنفعة: وهو تأليف القلوب بالمنافع من خلال الدعوة وإقامة الحجة مثلما جاء في قصة أصحاب الأخدود[296].

ويربط ابن تيمية بين الحجة والمنفعة بقوله: (الخوارق ثلاث أنواع: إما أن تعين صاحبها على البر والتقوي فهذه أحوال نبينا ومن اتبعه كانت خوارقهم لحجة في الدين أو حاجة المسلمين (النبوات 10).

التواضع: ويقول الإمام الشاطبي في الموافقات وكذلك في الاعتصام نقلا عن الإمام الغزال: (أكثر الجهالة إنما رسخت في قلوب العوام بتعجب[297] جماعة من جهال أهل الحق أظهروا الحق في معرض التحدي والإدلاء

سنة القوة: وفيها قول الله عز وجل: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ).

وواضح من الآية أن رؤية شعيب له ضعيفا هي علة عدم فقههم للدعوة.

3) التصور القدري لمن هو موضعا للبلاغ:

غير أن أخطر أساس في التصور القدري هو أن يتم تقييم من نتوجه إليهم بالبلاغ من خلال هذا التصور ونحدد أسلوب البلاغ بناء على هذا التقييم، ومن هنا يمكن مقارنة

[295] حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يحلقوا فلم يفعلوا فلما حلق هو إقتتلوا هم ليلحق كل واحد قبل الآخر

[296] وكان الغلام يبريء الأكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء.

[297] أي: إعجابهم بأنفسهم.

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى اليهود باعتبار أن قدر الله فيهم أنهم مغضوب عليهم، ودعوته إلى النصارى باعتبار أن قدر الله فيهم أنهم ضالون. وأن المقتضي المنهجي في ممارسة الدعوة مع اليهود كان يقوم على إثبات الوحي والرسالة دون استفاضة معهم في الحوار والمناقشة؛ ذلك ما رواه مسلم: جاء حبر من أحبار اليهود فقال: جئت أسألك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أينفعك شيء إن حدثتك؟ فقال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه وقال: (سل)[298] ولعلنا نلاحظ تردد النبي صلى الله عليه وسلم في إجابة اليهودي وذلك بنكت العود الذي معه.

وفي هذا المعنى يقرر النبي صلى الله عليه وسلم تبعية اليهود لأحبارهم وأن هذا هو المانع من هدايتهم فيقول: (لو آمن عشر من اليهود لآمن بي اليهود)[299].

أما النصارى فكان أسلوب دعوتهم يقوم على استفاضة الحوار والمناقشة، ودليل ذلك ما رواه الربيع بن أنس البكري أحد التابعين رحمة الله تعالى مرسلا قال: إن النصارى أتوا رسول الله فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلي قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلي قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلي، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا. قال: أفلستم تعلمون أن الله عز وجل لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلي قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما علم الله؟ قالوا: لا قال: فإن ربنا صور عيسى في الرحم كيف شاء فهل تعلمون ذلك؟ قالوا: بلي. قال: ألستم تعلمون أن ربنا يأكل الطعام ولا يشرب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلي قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته امة كما تحمل المرآة، ثم وضعته كما تضع المراة ولدها، ثم غذي كما تغذي المرأة الصبي، ثم كان يطعم ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلي قال: فكيف يكون هذا إلها كما زعمتم؟ قال: فعرفوا فأنزل الله عز وجل: (الم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)، أخرجه ابن جرير وابن حاتم كما في (الدر المنثور) من أول سورة آل عمران.

4) حدود إقامة الحجة:

[298] أخرجه مسلم في الإيمان (315) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

[299] البخاري في مناقب الأنصار (7/274) من حديث أبي هريرة.

ويجب أن يكون البلاغ في الدعوة تحقيقا لمفهوم حجة الله، وهذا المفهوم يقوم على عدة جوانب:

جانب الميثاق والفطرة: كما في قوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا)، وعلى هذا يجب الارتكاز في التبليغ على الفطرة والتعامل معها. ولعل المثال الطيب لهذا الأسلوب هو ما كان من سيدنا إبراهيم مع قومه[300]، حيث ارتكز في كلامه معهم أنه مركوز في الفطرة ان الله فوق فنظر في السماء، ومركوز أن الله لا يغيب فرفض الكوكب بعد أن أفل، ومركوز أن الله أكبر فاتجه إلى القمر لأنه أكبر من الكوكب ومركوز أن العبادة غاية الحب فكان يرفض هذه الظواهر بقوله: (أنا لا أحب).

جانب العقل: ولذلك يقول ابن تيمية في تفسير قول عز وجل: (فلله الحجة البالغة): (وهي التي بلغت إلى صميم القلب وخالطت العقل وتحدث بها فلا يمكن للعقل دفعها ولا جحودها).

جانب تنوع الخلق في الهداية: ولذلك يقول ابن تيمة: فأقام الله الحجة وصرف الآيات والمثال، ونوع الأدلة. ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال.

ويبين ابن القيم مفهوم الحجة فيبين أنها قائمة في الأسباب ومسبباتها فيقول: إذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب علم ان الله سبحانه قدره سببا مقتضيا لأثره من العقوبة، كما قدر الطاعة مقتضية للثواب. وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر كجعل الماء سببا للموت والنار سببا للإحراق، فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك – وقد عرف أنه سبب لهلاكه – فالحجة مركبة عليه، والمؤاخذه لازمة، كالحريق مثلا، والذنب كالنار وإتيانة كتقديمه نفسه للنار.

ثم نأتي إلى الأساس الذي تقوم به الحجة وهو الحد العلمي لها وهو أن تبلغ الحجة حد المثل.

وفي هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء من نبي إلا أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر إنما كان الذي أوتيته قرآنا فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا

[300] يراجع تفسير سورة الأنعام الآيات 75، 68.

يوم القيامة)[301] وأهم مرتكزات التصور القدري للبلاغ لإقامة الحجة هو تلك الحقيقة الخطيرة وهي أن البلاغ عندما يستوجب قدرا استحقاق الذين قامت عليهم حجة البلاغ إما للعذاب القدري والإهلاك وإما للعذاب قتالا بأيدي المؤمنين. وعندما يكون الإهلاك والقتال مرتبطا بالبلاغ فإن تمام هذا البلاغ وكماله يعتبر شرطا قدريا هاما فإذا لم يتم البلاغ كما أراده الله؛ فإن استحقاق القوم للهلاك لن يقع.

وعلى هذا يكون من الخطأ انتظار إهلاك القوم او البدء بقتالهم قبل تمام مرحلة البلاغ باستفاضة. ويكون هذا الخطأ خروجا عن مقتضيات التصور القدري للدفع بين الحق والباطل.

5) قضية الأسماء وقرآنية البلاغ:

وأهم أسس التصور القدري للبلاغ هو أن يكون التعريف بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكماله وقدرته وسننه هي الموضوع الأصلي في هذا البلاغ.

ولهذا يقول ابن القيم: والرسل من أولهم إلى خاتمهم، صلوات الله عليهم جميعا أرسلوا بالدعوة إلى الله وبيان الطرق الموصولة إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه؛ فهذه القواعد الثلاثة ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول فعرفوا المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه وينظرون إليه يدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويري أفعالهم وحركاهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم: يأمر وينهي، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم وقرب خيره، ويجيب مضطرهم وملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويحيي ويميت ويمنع يعطي، ويؤتي الحكمة من يشاء، ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. كل يوم هو في شأن يغفر ذنبا، ويفرج كربا، ويفك عانيا، وينصر مظلوما، ويقصم ظالما، ويرحم مسكينا، ويغيث ملهوفا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه ويؤخر ما يشاء تأخيره فأزمة الأمور كلها بيده ومدار تدبير الماليك كلها عليه.

وهذا مقصود الدعوة وزبد الرسالة وأوصاف المدعو إليه ونعوت كماله، وحقائق أسمائه هي الجاذبة للقلوب إلى محبته وطلب الوصول إليه. وقد جاءت الرسالة بإثبات

---

[301] سبق تخريجه وهو صحيح.

الصفات مفصلا على وجه أزال الشبهة وكشف الغطاء وحصل العلم واليقين، ورفع الشك والريب؛ ففصلت الرسالة الصفات والنعوت والأفعال أعظم من تفصيل الأمر والنهي؛ ذلك أن تأويل الصفات وإضرارها بما يخرجها عن حقائقها هو أصل فساد الدنيا والدين وزوال المماليك وتسليط أعداء الإسلام عليه، ويعرف هذا من له أطلاع وخبرة بما جري في العالم[302].

وباعتبار أن القرآن منهج الدعوة...

وباعتبار أن الأسماء الصفات هي قضية القرآن الأساسية فإنها صارت أساسا في ترتيب آياته وتحقيق الموضوعية القرآنية. ومثال ذلك أواخر سورة النساء وهي قول الله عز وجل في الآيات (170 – 175)، والتي تبدأ بالآية: (يَا أَهْلَ الْكِتَاب لا تَغْلُوا فِي دِينكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا باللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى باللَّهِ وَكِيلاً). بدأت الجولة الثانية مع النصارى أتباع عيسى بن مريم لتصحيح غلوهم في أمر المسيح عبد الله ونبيه وكذبهم عن هذا الغلو وتقرير الحق في شأنه فهو عبد الله لا يستنكف أن يكون عبد الله وكذلك الملائكة تصحيحا لمزاعمهم عن روح القدس ونفي التثليث ونفي الأبوة عن الله سبحانه وتعالى وتختم السورة بآية تحتوي على أحكام المواريث وقد سبق في السورة حكم بعضها وهذه هي بقيتها وهي الآية: (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

وهكذا تختم الآية التي بدات بعلاقات الأسرة وتكافلها الاجتماعي وتضمنت الكثير من الأحكام الاجتماعية في ثناياها تختم بتكميل أحكام الكلالة وهي على قول أبي بكر رضي الله عنه: (ما ليس فيها ولد ولا والدة).

ومن خلال النص القرآني وتفسيره نري كيف عالج القرآن قضية عيسى ابن مريم ثم جاءئت أحكام المواريث فتوافقت الآيات في إظهارها كمقتضي وحدانية الله بنقي الولد عنه سبحانه مع أحكام المواريث كمقتضي من مقتضيات الواقع البشري المتوالد. ولا نجد علة للربط بين قضية عيسى وأحكام المواريث إلا بهذا التصور.

[302] مدارج السالكين: 3/350

هذا... وقد اتفقنا من قبل على قرآنية المواجهة، ومقتضي ذلك قرآنية البلاغ ولذلك نواصل الموضوعية القرآنية للأسماء والصفات كأساس للدعوة إلى دين الله عز وجل.

فالقرآن كلام الله تجلي الله فيه لعباده بصفاته فتارة يتجلي بصفات الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق وتنكسر النفوس وتخشع الأصوات ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلي في صفات الجمال والكمال وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدالة على كمال الذات؛ فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغا إلا من محبته؛ فإذا أراد منه الآخرون أن يعلق تلك المحبة به أبي قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء فتبقي المحبة له طبعا لا تكلفا.

وإذا تجلي بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان انبعثت قوة الرجاء من العبد وانبسط أمله وقوي طمعه وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره وكلما قوي الرجاء جد في العمل؛ كما أن الباذر كلما قوي طمعه في المغل غلق أرضه بالبذر وإذا ضعف رجاؤه قصر في البذر.

وإذا تجلي بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة انقمعت النفس الأمارة وبطلت أو ضعفت قواها من الشهوة والغضب واللهو واللعب والحرص على المحرمات وانقبضت أعنة رعوناها فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلي بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإنزال الكتب وشرع الشرائع انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها وتذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلي بصفة السمع والبصر والعلم انبعث من العبد قوة الحياء فيستحيي من ربه أن يراه على ما يكره أو يسمع منه ما يكره أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه فتبقي حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوي.

وإذا تجلي بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصرة أوليائه وحمايته ومعيته الخاصة لهم انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به وما في كل ما يجريه على عبده، ويقيمه فيه مما

يرضى به هو سبحانه والتوكل معنى يلتئم من علم العبد بكفاية الله وحسن اختياره لعبده وثقته ورضاه بما يفعله ويختار له.

وإذا تجلي بصفات العز والكبرياء أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته والخضوع لكبريائه وخشوع القلب والجوارح فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته ويذهب طيشة وقوته وحدته.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات الهيبة تارة، وبصفات ربوبيته تارة، فيوجب له شهود صفات الإلهية والمحبة الخاصة والشوق في لقائه، والأنس والفرح به والسرور بخدمته والمنافسة في قربه والتودد إليه بطاعته واللهج بذكره والفرار من الخلق إليه ويسير هو وحده همه دون ما سواه.

ويوجب له شهود صفات الربوبية التوكل عليه والافتقار إليه والاستعانة به والذل والخضوع والانكسار له، وكمال ذلك أن يشهد ربوبيته في الهيته، وحمده في ملكه، وعزه في عفوه، وحكمته في قضائه وقدره ونعمته في بلائه، وعطاءه في منعه، وبره ولطفه وإحسانه ورحمته في قيوميته، وعدله في انتقامه، وجوده وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزه في رضاه وغضبه، وحلمه في إمهاله، وكرمه في إقباله، وغناه في إعراضه.

وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف وأن تقضي عليه بأراء المتكلمين وأفكار المتكلفين أشهدك ملكا قيوما يدبر أمر عباده يأمر وينهي ويرسل ويترل الكتب، ويرضى ويغضب ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل ويخفض ويرفع ويسمع ويعلم السر والعلانية، فعال لما يريد، موصوف بكل كمال، متره

عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي شفيع.

ولذلك يقول ابن القيم: من الناس من يعرف الله بالجود والإفضال والإحسان، ومنهم من يعرفه بالعفو والحلم والتجاوز، ومنهم من يعرفه بالبطش والانتقام، ومنهم من يعرفه بالعلم والحكمة، ومنهم من يعرفه بالعزة والكبرياء، ومنهم من يعرفه بالرحمة والبر واللطف، ومنهم من يعرفه بالقهر والملك، ومنهم من يعرفه بإجابة دعوته وإغاثة لهفته وقضاء حاجته.

وأعم هؤلاء معرفة من عرفه من كلامه فإنه يعرفه بأنه قد اجتمعت له صفات الكمال ونعوت الجلال متره عن المثال بريء من النقائص والعيوب، له كل اسم حسن وكل وصف كمال فعال لما يريد، فوق كل شيء ومع كل شيء، وقادر على كل شيء ومقيم لكل شيء آمروناه، متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين، أقدر القادرين، وأحكم الحاكمين فالقرآن أنزل لتعريف عباده ويبصر أهله الطريق الموصل إليه وبحال السالكين بعد الوصول إليه.

وفي تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أو علمته أحدا من خلقك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري، وجلاء همي وحزني)[303] .

دل الحديث على أن التوسل إليه سبحانه بأسمائه أحب إليه وأنفع للعبد من التوسل بمخلوقاته وكذلك سائر الأحاديث كما في حديث الاسم الأعظم: (اللهم إني أسألك بان لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والارض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم)[304] وفي الحديث الآخر: (أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)[305] وفي الحديث الآخر: (اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق)[306] وكلها أحاديث صحاح رواها ابن حبان والإمام أحمد والحاكم وهذا تحقيق لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا).

وقوله. (أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري)[307] يجمع بين أصلين: الحياة والنور. فإن الربيع هو المطر الذي يحي الأرض فينبت الربيع، فيسأل الله بعبوديته وتوحيد أسمائه وصفاته أن يجعل كتابه الذي جعله روحا للعالمين ونورا وحياة لقلبه بمترلة الماء الذي يحي الأرض ونورا له بمترلة الشمس التي تستنير بها الأرض، له الحياة. والنور جماع الخير كله فقال تعالى: (فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ).

[303] صحيح أخرجه أحمد رقم (3712)، وابن ماجه (2372)، والحاكم (1/509) من حديث مسعود رضي الله عنه وهو حديث الهم أول: ما أصاب عبداهم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماضي في حكمك... الحديث.

[304] أخرجه النسائي في السهو (3/52) من حديث أنس وسنده صحيح.

[305] صحيح أخرجه النسائي (3/52) من حديث محجن بن الأدرع.

[306] النسائي في السهو (3/54) من حديث عمار بن ياسر

[307] قطعة من حديث السهم السابق قريبا.

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)، فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ونورتحصل به الهداية.

مثال لاظهار الأسماء في واقع الدعوة:

وفي قصة أصحاب الخلود مثال إظهار أسماء الله عز وجل بالصورة الواقعية الصحيحة، فقد كان الغلام من حيث العمل يبرئ الأكمة والأبرص، ويداوي الناس من سائر الادواء وكان لايزيد في دعوته من حيث الكلام عن قوله: أنا لاأشفي انما الله يشفي وكان لايزيد عن قوله بعد نجاته من أعدائه كفايتهم الله وفي النهاية يطلب من الملك ان يقول وهو يقتله بسم الله رب الغلام فكانت هذه العبارات الثلاث هي كل ما قاله الغلام في دعوته ولكنها كانت خطا لاثباته العقيدي لاسماء الله عز وجل فالله الشافي والله الكافي والله المحي والله المميت ولم يذكر الغلام كقضايا كلامية ولكنه يذكرها كحقائق في واقع قائم لايمكن ردها أو حتى مناقشتها، هذا من حديث الموضوع[308].

وكان الغلام يبرئ الاكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الدواء وينطلق بدعوته فيسير بالمعروف بين الناس مؤلفا قلوبهم بالمنافع والخير مؤكدا إنسانية الدعاة وحبهم للبشر عمله هذا تحقيقا لقدر الله في حياة هؤلاء الناس ليؤمنوا بعد ذلك من خلال شفائهم ومداوتهم من سائر الادواء بعد ان يحب الناس.

القدر الذي يتحقق فيهم باعتباره مداواة وشفاء ويصير حب القدر حبا لله وهو محقق هذا القدر وحبا للغلام، وهو سبب هذا القدر وحبا للدعوة وهي حكمة هذا القدر وقد كان هذا شأن جميع الانبياء ومعجزاتهم، وأوضح مثال على هذا عيسى عليه السلام الذي كانت معجزاته كما قال: (وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ).

وصالح عليه السلام الذي كانت معجزاته الناقة التي تشرب ماء القوم يوما وتعطيهم لبنا وتترك لهم الماء يوما: (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ).

غير انه في معجزة موسى تاكدت بوضوح الأبعاد الكاملة للمعجزات وهي اثبات النبوة والقيمة الحركية، والنفع الانساني، فهي التي تأكدت بها نبوة موسى.

[308] يراجع أصحاب الاخدود للكاتب

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِين)، وهي ايضا التي نجاً بها موسى ومن معه من فرعون.

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)، وهي ايضا التي ضرب بها الحجر (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ).

فالمعجزة وهي القدر الألهي الذي يتحقق على يد الانبياء ووسيلة اقناع الناس لم تكن خارقة كونية فحسبولكنها كانت أيضا منه مادية لكي يعلم من يمارس الدعوة بعد الانبياء أن الاقناع مهما بلغت امكانياته لايكفي دون تقدم الخير للناس ليكون الاقناع بالعقل في الدعوة مع تأليف القلوب بالحب لها، وان نطاق الدعوة لن يعتدي نطاق المنافع التي يؤلف بها هؤلاء الدعاة قلوب الناس[309].

ب) التصور القدري للحركة القتالية:

1) من حيث طبيعة العداء:

والعلاقة بين المسلمين والكفار مرتبطة بطبيعة العداء بينهما كما هي في قدر الله، وهو العداء التقليدي بين العناصر المتقابلة ولقد ذكر النبي لي الله عليه وسلم لتلك العناصر أمثلة عند نزول الأمنة على الأرض بعد توقف الجهاد في اخر الزمان فقال: حتى ترفع الأسود مع الأبل، والانمار مع البقر، والذاب مع الغنم[310].

ومن هنا أصبح القتال سنة باقية للدفع حتى نزول الامنة على الأرض عند نزول عيسى وهو تفسير قول الله عز وجل: (حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا). حيث جاء في تفسيرها قول مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم، وقال ابن كثير وكأنه اخذ من قوله صلى الله عليه وسلم: ولاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقال اخرهم الدجال[311] وذلك أنه بنزول عيسى ابن مريم ترفع العداوة.

قال الامام احمد: (عن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إني سيبت الخيل والقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت لاقتال فقال

[309] أصحاب الأخدود للكتاب

[310] سبق تخريجه عند الكلام على المهدي ونزول عيسي

[311] أخرجه البخاري ومسلم سبق تخريجه ايضا

له النبي صلى الله عليه وسلم الان جاء القتال لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يرفع الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى يأتي امر الله وهم على ذلك، ألا ان عقد دار المؤمنين بالشام والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)[312].

والعداء التقليدي هو العداء الذي ليس معه مقاومة حيث تكون العلاقة بين طرفي العداء هي الهجوم من جانب والاستسلام أو الفرار من الجانب الآخر: وهي طبيعة العلاقة بين المسلمين والكفار إذا توافر في المسلمين الشروط المطلوبة فيهم.

وله ضرب الله مثلا للكفار في موقفهم من الإسلام فكان هذا المثل هو قول الله: (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)، من حيث التصور المرحلي.

ومن هنا أن ترتبط الحركة القتالية بسنة الله في الدفع وانها يجب ان نلتزم بالمرحلة القدرية المحددة للدعوة وهي الواردة في قول الله: (كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)، والحركة القتالية تتوافق مع مرحلة الاستغلاظ فيجب ان لايكون قتال في مرحلة خروج الشطأ والمؤازرة القدرية وانما يكون الامر بكف الأمر بكف الأيدي كما في قوله سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)، من حيث غاية الهداية وتحقيقا لسنة الدفع من خلال الحركة القتالية يكون الارتباط بين أحكام القتال وغاية الهداية، وذلك باعتبار ان مفهوم الدفع بين الحق والباطل يقتضي الا يكون القتال حركة عسكرية لاتستهدف الا القتل بل تقتضي ان تكون الحركة العسكرية ذاتها مجالا للدعوة والهداية.

والحركة القتالية للدعوة في ارتباطها بالتصور القدري ترتبط بهدف الهداية باعتباره هدفا اصليا ذلك ان القتال كعذاب من الله بأيدي المؤمنين يجب ان يراعي فيه استحقاق الهداية بجانب استحقاق العذاب ولقد كانت هذه الحقيقة في غاية الوضوح في غزوة بدر عندما قاتلت الملائكة مع المؤمنين فان سيرة تثبت ان الملائكة بجانب انها قتلت المشركين فإنها اسرت اخرين وان كل من أسرتهم الملائكة كتب الله لهم الهداية وأسلموا وكان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من أسري الملائكة.

[312] أخرجه احمد في المسند 4/104 من مسند سلمة بن نفيل وسنده صحيح

وقد أوحي الله سبحانه وتعالى إلى نبيه عليه السلام هذا التصرف الملائكي في حصار الطائف حيث أوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن الطائف لن تفتح له بالقتال فقال: سنرحل غدا فطلبت الصحابة القتال فقاتلوا وجرحوا جراحات شديدة فقال: سنرحل غدا فلم يتكلم فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم وأسلمت طائفة بعدها.

ولكن هذه الحقيقة، سواء كانت ملائكيا أو عملا نبويا بوحي من الله عز وجل، لا يمكن للبشر إدراكها بنفس الصورة المباشرة التي فعلتها الملائكة في بدر والنبي في الطائف، غير أن الأحكام الشرعية الضابطة للحركة القتالية المتعلقة بالتعامل مع الكفار هي التي تتضمن هذا المفهوم القري العظيم وبصفة عامة يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الموازنة الصحيحة بين غاية الهداية وبين القتال والغنائم وهي حمر النعم الواردة في الحديث: (لئن يهدي الله ربك رجلا واحدا خيرا لكم من حمر النعم)[313].

ولعل أهم هذه الأحكام هو حث الأسري على الإسلام كما في قوله عز وجل: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)، وكذلك قبول استجارة المشرك (فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ).

وكذلك العفو عن الكافر إذا تاب قبل أن تصل إليه يد القدرة كما في قوله تعالى: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، والالتزام الشرعي العام هو الذي يحقق التوافق بين غاية الهداية وأسلوب القتال وما قدره الله سبحانه في مصائر الخلق فذلك ينتهي إليه سبحانه له الخلق والأمر.

4) التصور القدري لحد الاستطاعة القتالي:

واتفاقا مع التصور القدري نفهم معنى العدد والعدة فيكون الشرط فيه بلوغ الاستطاعة وهو قول الله عز وجل: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)، ولأجل أن الخيل للقتال وأن القتال باق إلى يوم القيامة فقد عقد الخير في نواصي الخيل إلى يوم القيامة: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الخير معقود في نواصي الخيل إلى يوم القيامة)[314] وليس أدل على أن العلاقة بين الخيل والقتال قدرية من أن يأتي جبريل

---

[313] أخرجه البخاري في المغازي باب مناقب على بن أبي طالب، ومسلم في (فضائل الصحابة (2406) من حديث سهل بن سعد الساعدي).

[314] البخاري في الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ومسلم في الغمارة رقم (1783) من حديث عروة بن الجعد. وأخرجاه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والملائكة لتأييد المسلمين في القتال وهم يركبون الخيل، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر (هذا جبريل آخذ بعنان فرسه)، ذلك أن الخيل بالنسبة لجبريل لا يمثل سببا ماديا لأنه لجبريل ستمائة جناح تسد الأفق كما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم في نزول الوحي.

وفي العدد قوم التصور القدري على الإيمان، ومن هنا لم يكن الرسول خائفا الغار ويقول للصديق: (ما بالك باثنين الله ثالثهما)، وكما قال القرآن: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

ولكنه في غزوة بدر يخشي الهزيمة ويدعو الله حتى يسقط الرداء من فوق عاتقه.

أما يوم حنين فيعجب المسلمون بكثرتهم وتتجاوز السببية حدودها القدرية، فيهزمون، كما قال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)، ويقوم التصور القدري للعدد على الكثرة، وكما نزلت الملائكة في غزوة بدر على الخيل فإنها نزلت بأعداد كثيرة، كما قال الله: (أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)، رغم أن جبريل بمفرده قادر على إهلاك أهل الأرض، ولكنها السببية القدرية للعدد في القتال.

وهناك حكم خاص في العدد تضمنه قول الله صلى الله عليه وسلم: (لن يهزم اثنا عشر ألفا من قلة)، ولهذا الحكم وقفة تفسيرية وهو أن بلوغ المسلمين هذا العدد بمستوي الإيمان الصحيح يعني أن الأمة قدرا قد تجاوزت مرحلة الوجود الثابت إلى مرحلة الامتداد التي يؤيد الله فيها مقاتليها، وتلك هي الدلالة القدرية لتأييد هذا العدد والوعد بعدم هزيمته.

غير أن مادية الأسباب والإعداد والعدد والعدة له في التصور القدري ما يعالجها لإثبات طلاقة المشيئة الإلهية وفوقية القدر على مادية الأسباب فيأتي الدعاء وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام ومعه الجيش والسيوف مرفوعة والقوة معدة والأسباب مأخوذة بها ومابين

هذا والنصر الا الدعوة البراء اذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم ان من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره ادع الله ان ينصرنا عليهم[315].

كما ان خطر المفاهيم التي تعالج المادية الاعداد والعدد هو قوله النبي صلى الله عليه وسلم: انما تنصرون وترزقون بضعفائكم[316] وبرغم بلوغ أقصي حد استطاعة للامكانية المادية، الا ان قدر وجود الأمة المسلمة وامتدادها لا يدخل في حدود تلك الامكانيات لانه قدر ومشيئة الهية خالصة، ومن هنا كان الواقع القتالي هو واقع التدخل القدري المباشر ومجال الخوارق والكرمات ولذا يقول ابن القيم في مدارج السالكين في قوله تعالى (وما رميت إذ رميت...).

فهذه الآية نزلت في شأن رمية صلى الله عليه وسلم المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء فلم تدع وجه احد منهم الا أصابته، ومعلوم ان تلك الرمية من البشر لا يبلغ هذا المبلغ فكان منه صلى الله عليه وسلم مبدأ الرمي وهو الحذفق ومن الله سبحانه وتعالى نهايته وهو الايصال فأضاف اليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفي عنه رمي الايصال الذي هو نهايته ونظير هذا قوله في الآية نفسها: (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ)، ثم قال: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى).

فأخبره انه هو وحده الذي تفرد بقتلهم و لم يكن ذلك بكم انتم كما تفرد بإيصال الحصي إلى اعينهم و لم يكن ذلك من رسوله.

ولكن وجه الاشارة بالآية انه سبحانه اقام أسبابا ظاهرة لدفع المشركين وتولي دفعهم واهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب الذي تظهر للناس فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا اليه وبه هو خير الناصرين.

5) القتال عذاب الله:

والذي يؤكد العلاقة بين حقيقة العذاب بالاهلاك والعذاب بالقتال هو ان الاسلوب القدري للعذاب كان الاهلاك ثم انزلت التوراة فكان الاسلوب القدري للعذاب بعد ذلك

[315] مر تخريجه ودرجته وانه صحيح مسلم.

[316] أخرجه ابو داود في الجهاد 2594 والترمذي في الجهاد 1702 والنسائي في الجهاد ايضا 45) 6/46 وهو حديث صحيح ومعناه في البخاري في الجهاد باب من استعان بالضعفاء والصالحين.

هو القتال، وهذا تفسير قول الله عز وجل: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

حيث جاء في التفسير بعد انزل الله التوراة لم يهلك أمه بعامة بل امر المؤمنين بقتال الكافرين[317] مما يعني ان العذاب بالقتال هو الاسلوب القدري البديل للعذاب بالاهلاك منذ نزول التوراة حتى قيام الساعة.

والتصور القدري للقتال مبني حقيقة ان القتال هو عذاب الله بأيدي المؤمنين، وهذا هو المعنى الصريح في قوله تعالى: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ).

وقول الله في ذي القرنين: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً)، وبذلك يتوافق القتال مع سنن الاهلاك في الدنيا ويتوافق ويتوافق ايضا مع عذاب الاخرة بأيدي المؤمنين قتالا مع العذاب بأيدي الملائكة جهنم الغلظة، واليك قول الله عز وجل: (عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)، الذي يجييء بعده قول الله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)، ولعلنا نلاحظ صفة الملائكة بأنهم لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذا الوصف في هذا المقام له اهمية بالغة، لان الملائكة وهي اداة تحقيق ارادة الله في عذاب الكفار، لابد ان يتحقق منها الخضوع لاوامر الله عز وجل وتلك صفة لازمة في كل ما أداه محققة لارادة الله عز وجل ومن هنا يجب ان يتوافق المؤمنون مع الاملائكة في صفة الخضوع والسمع والطاعة المطلقة لأوامر الله عز وجل كما يتواقفون في صف اللغظة على الكفار، وهذا ما يرجع بنا إلى مفهوم الالتزام الشرعي في القتال كما في الأحكام القتالية وكما في الآية (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)، والآية (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ)، مثلما ان الملائكة غلاظ شداد.

6) التوافق القتالي مع سنن الأهلاك:

وبمقتضي التصور للقتال باعتباره عذابا من الله تعالى بأيدي المؤمنين فإن الحركة القتالية يجب ان ترتكز على سنن الاهلاك، وقد كانت هذه السنن أحكاما قتالية ثابتة في غزوات النبي صلى الله عليه وسلم فكان الغزو صبحا. وفي هذا يقول النعمان بن مقرن: (غزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا طلع الفجر أمسك حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قاتل، فإذا انتصف النهار أمسك حتى تزول الشمس، فإذا زالت الشمس قاتل حتى العصر، ثم أمسك حتى يصلي العصر، ثم يقاتل قال: وكان يقاتل عند هيج رياح

[317] ابن كثير ح5 ص 469

النصر ويدعو المؤمنين لجيوشهم في صلاتهم[318] هذا وقد جاءت عدة آيات تربط بين الرياح والنصر منها قول الله في سورة الروم: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ). قال النعمان بن مقرن: (شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب ويترل المطر)[319] ولقد بلغ الالتزام بتلك السنة حدا أصبحت به الخيل هي (فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً)، كما في سورة العاديات قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح خيبر (الله أكبر خربت خيبر إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين). توافقا مع قول الله في الإهلاك: (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ)، وهكذا كل آيات العذاب حيث يرتبط وقوع العذاب بالصباح.

وأخيرا... نذكر ربطا عاما بين سنن الإهلاك والقتال جاء في كتاب النبوات لابن تيمية قوله: أما عن قصة إبراهيم فإنه لم يذكر أنهم أهلكوا كما ذكر عن غيرهم بل ذكر أنهم ألقوة في النار ليجعلها الله بردا وسلاما وأرادوا به كيدا فجعلهم الله الأسفلين الأخسرين وفي هذا ظهور برهان آياته وأنه أظهره عليهم بالحجة والعلم وأظهره أيضا بالقدرة حيث أذلهم ونصره وهذا من جنس المجاهد الذي هزم عدوه.

أما قصص إهلاك الأمم مثل قوم نوح وصالح وشعيب... فهو من جنس المجاهد الذي قتل عدوه حيث تم إهلاكهم والقضاء عليهم نهائيا.

7) سنة المداولة والسجال:

والسجال من عناصر التصور القدري للقتال تحقيقا لسنة مداولة الأيام بين الناس كما قال الله عز وجل: (إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)، وبذلك يتحقق البلاء من خلال التدافع بين المسلمين والكفار كما يتحقق التوازن بين أطراف الدفع ولهذا أورد ابن كثير حديثا عن على بن أبي طالب يؤكد هذه السنة. عن على رضي الله عنه قال: (جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال: خير أصحابك في الأساري إن شاؤوا الفداء وإن شاؤوا القتل على أن يقتل عاما

---

[318] أنظر مسند أحمد (444) 5/445 حديث النعمان بن مقرن.

[319] انظر التعليق السابق.

مقبلا منهم مثلهم قالوا: الفداء ويقتل منا)[320] رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه. وقال عون عبيدة عن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أساري يوم بدر: (إن شئتم قتلتموهم وإن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستشهد منكم بعدهم)، قال: (فكان آخر السبعين ثابت بن قيس قتل يوم اليمامة رضي الله عنه)[321].

8) الفتح ومقام النبوة:

والعلاقة بين الفتح ومقام النبوة تتبع تعلق قدر الأمة بنبيها. ودليل هذه العلاقة هو قول النبي صلى الله عليه وسلم: (يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس، فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزون فئام من الناس فيقال: فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح له)[322].

هو كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة[323] وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (زويت لي الأرض فرأيت مشرقها ومغربها وستبلغ أمتي ما زوي لي منها)[324] رواه ومسلم.

وعلى ضوء هذه الحقيقة ندرك كيف أن الآية التي كانت مع طالوت عندما بعثه الله إلى بني إسرائيل ليكون ملكا عليهم: (وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ)، لتكون الصلة بين القوم ونبيهم هي السكينة والبشري لهم في قتالهم لأعدائهم

---

[320] الترمذي في السير (5/185 تحفة)، والنسائي في السير من الكبري كما في تحفة الأشراف (430 – 7/431) من طريق عبيدة عن على، وقال الترمذي – عقبة – هذا حديث حسن غريب... وقال ابن كثير (سورة الأنفال آية 67) [3/347] [هذا حديث غريب جدا).

[321] انظر تفسير ابن كثير من سورة الأنفال (3/317)،

[322] البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: (باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم) [3/7)، ومسلم في فضائل الصحابة رقم (2532)، وفي رواية هل فيكم من قاتل مع رسول الله. بدلا من (هل فيكم من صاحب رسول الله)، ويبين مجاهد أن كل فتح على المسلمين هو من الفتح الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم وذلك في تفسير قوله الله: (وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ)

[323] ابن كثير ص 161 ج 4)

[324] مسلم في الفتن رقم (2889) من حديث أبي أسماء عن ثوبان.

وندرك أيضا لماذا جاء في سورة الصف قول الله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ).

ثم جاء بعدها: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)، لتبين ان حفظ مقام النبوة مع وحدة الصف هي من السنن الثابتة للنصر وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية في كتاب النبوات: والمقصود هنا ان آيات الأنبياء ودلائل صدقهم متنوعة قبل البعث وحين البعث في حياتهم وبعد موتهم فقيل مثل أخبار من تقدم من النبياء ومثل الإرهاصات الدالة عليه، وإما حين البعث فظاهرة، وأما في حياته فمثل نصره وإنجائه وإهلاك أعدائه وأما بعد موته نصر أتباعه وإهلاك أعدائه كما قال تعالى: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)، وقال: (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)، وقال للمسيح: (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

فمبدأ النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك[325].

9) الفتح والمغفرة:

ومن الحقائق القدرية في واقع الحركة القتالية حقيقة الارتباط بين الفتح والمغفرة والدليل عليه قول الله عز وجل: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً).

وأصل هذا الارتباط هو تنفيذ شرط ميراث الأرض وهو العبودية الخالصة لله التي يعتبر الاستغفار دليلها الأول والشاهد على ذلك قول الله: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ).

وحديث سيد الاستغفار: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وابوء بذنبي، فاغفر لي لا يغفر الذنوب إلا أنت)[326].

---

[325] النبوات

[326] أخرجه البخاري في الدعوات (97) (11/98) من حديث شداد بن أوس.

وقد بلغ الارتباط بين الفتح والمغفرة حد الاقتضاء، ومن هنا كان قول الله عز وجل: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ). فالله قد فتح على النبي ليغفر له فجاءت المغفرة مقتضى للفتح لازمة له. ومن هنا أيضا كان قول الله لبني إسرائيل: (وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ)، ولذلك دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة ساجدا وأمر الصحابة أن تقول: حطة، فلما قالتها قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (إنها الكلمة التي أمر الله بني إسرائيل أن يقولوها فلم يقولوها).

ولعل قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)[327] دليل على الارتباط بين المغفرة والفتح باعتبار أن بدر كانت الفرقان وبداية الفتح وأعظمه.

وارتباط الفتح بالمغفرة هو الذي أنشأ الارتباط بين الفتح والجنة بإعتبار أن المغفرة أثرا للفتح وسببا للجنة وهو المعنى الواضح في قوله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ).

حيث قال ابن كثير في تفسيره الآية: وهذه الآية كقوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)، وكقوله: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ).

وقوله: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ).

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وكائن لا محالة.

قال ابن عباس عن على بن طلحة: أخبر الله سبحانه وتعالى في التوراه، الزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يروث أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون.

ولعل هذا المعنى هو مضمون النداء الذي نادي به على ابن أبي طالب من البراءة من المشركين بعد فتح مكة كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (لا يحج بعد العام

[327] البخاري في التفسير وسبق تخريجه وهي قصة حاطب بن أبي بلتعة.

مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة)[328] فربط النبي صلى الله عليه وسلم بين الفتح والجنة.

قدر النصر والشهادة:

وفيه يربط ابن عباس بين القدر والنصر في تفسير قول الله: (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ باللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّة)، قال ابن عباس وغيره: يظنون أن الله لم يقدر ما جرى وأنه لا ينصر رسوله. فكما أن القدر يجب الإيمان به ويعلم أن كل ما كان فقد سبق علم الرب به، فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر الله رسله والذين آمنوا. وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف القدر فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا.

وكذلك في تفسير قول الله: (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ)، حيث أن معنى الآية متعلق بأن يكون أصحاب بيعة الرضوان هم الذين يحضرون غزوة خبير وهذا تقدير الله سبحانه. ولذلك يقول ابن كثير في تفسير الآية: ولا يقع غير ذلك شرعا ولا قدرا. أما عن الشهادة ففي قول الله عز وجل: (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاء).

تعني أن الشهادة في تصور الحركة غاية أو مقتضى قدري. وعلى هذا فيجب أن ينشأ الموقف الحركي للدعوة بهذا المقتضي في كل مراحلة فيكون الموت في سبيل الله هو مضمون كل مرحلة ابتداء من مرحلة البيعة والدخول في واقع الحركة. عندئذ ينشأ الفكر الصحيح المحدد للأساليب والمراحل والمحقق للهدف والغاية؛ لأن الدعوة ستتوجه نحو تحقيق مقتضى من مقتضيات القدر الإلهي فيها، وهي أن يتخذ الله منا شهداء.

وتحقيق نشأة الموقف الحركي للدعوة بهذا المقتضي يعني الصدق في عهد الله، وهي حقيقة قلبية.

أما من حيث الواقع، فإن لهذا الصدق، كحقيقة قلبية، نتيجتان، القتل وانتظار القتل، وهذا قول الله عز وجل: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)، ولا نتظار الشهادة دلائل من حيث الواقع هي نفس الدلائل النفسية للانتظار، ولعل أهمها أن يكون من ينتظر القتال قلقا في

[328] متفق عليه. البخاري في باب لا يطوف بالبيت عريان ومسلم في الحج (1348) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حياته غير راكن اليها متوقعا أن يتحقق الأمر في شوق المنتظرين، لتكون هذه الدلائل هي الالتزام بمقتضي قدر الشهادة في واقع الدعوة.

ثالثا: قيام السلطة الإسلامية:

والحكم بما أنزل الله هو التحقيق لمقتضي أن لله الخلق والأمر، كما أن الحكم بما أنزل الله هو مقتضى وعد الله بإظهار الدين، رغم السنة الثابتة بقلة أهل الخير ذلك أن السلطة الإسلامية هي غلبة القلة الخيرة ومن هنا ارتبطت ضرورة الحكم الإسلامي بظاهرة فسق الكثرة في قوله تعالى: (وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ).

وقد كان لحقيقة غلبة الخير رغم قلة أهله عدة مقتضيات فقهية ومنهجية لعل أهمها هو الحكم على الديار باعتبار شخص الحاكم والسلطة القائمة ونظام الحكم إذ تصبح الدار إسلامية إذا كان الحاكم مسلما والحكم فيها بما أنزل الله حتى لو كانت الغالبية فيها غير مسلمين.

وكما يقوم مفهوم السلطة الإسلامية على سنة نفسية واجتماعية وهي أن السلطان بقدر الله له أثر في الواقع البشري وهو مضمون قول عمر بن الخطاب: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)، وباعتبار الفاعلية القدرية لموقع السلطة في الواقع البشر جعل الله في هذا الموقع تقابل بين الخير والشر يحقق التوازن بقدر الله ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: في الحديث الذي أورده البخاري في كتاب القدر عن أبي سعيد الخدري قال: ما أستخلف خليفة إلا له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله).

ومن هنا كان لاختيار الحكم تصور ثابت يضمن تحقيق التوازن بين اختيار الحاكم من قبل الناس مع علم الله بمن يستحق هذا الاختيار. ويتضمن هذا التوافق حقيقتين أساسيتين في اختيار الحاكم:

الأولى: النهي عن تزكية النفس دليل قوله عز وجل: (فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى). وعلة النهي عن تزكية النفس هو أن يزكي الله من يشاء كما قال سبحانه: (بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاء).

لهذا جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم عليه أسلوبا دعائيا فيقول: أعطني فإن مدحي زين وذمي شين فيرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا: (ذاك الله)[329].

والحقيقة الثانية: أن إجماع المسلمين وهم شهداء الله في الأرض كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنتم شهداء الله في الأرض) دليل على تزكية الله للعبد وباعتبار أن مدح المسلمين لشخص هو عاجل بشري المؤمن بمدحه عند الله وباعتبار أن وضع القبول لشخص في الأرض دليل على حب الله. ومن هنا كان خير الأمراء من يحبون الرعية وتحبهم الرعية كما قال صلى الله عليه وسلم: (خيار الذين تحبونهم ويحبونكم)[330].

والحكم بما أنزل الله حرز لجميع المحكومين به من الشيطان فكما تدخل أسباب الحرز الفردي من الشيطان أساس لإسقاط الحكم الجاهلي؛ باعتبار أن الذين سيقومون بهذه المهمة هم عباد الله المخلصين فإنه بهذا التصور، أيضا يكون الحكم الإسلامي هو الحرز العام الذي يحقق النجاة الاجتماعية من سلطة الشيطان ابتداء من أبسط مستويات هذا الحكم وهي سلطة الرجل في بيته إلى أعلاه وهي سلطة الحاكم على المجتمع.

فسلطة الرجل على بيته تجعل تصرفه إذا أصاب حماية لبيته من الشيطان وإذا أخطأ ينال الشيطان بخطئه التأثير في هذا البيت؛ بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر اسم الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء[331].

أما سلطة الحاكم في المجتمع فالدليل على كونها حزرا من الشيطان إذا كانت صحيحة هو إمارة عمر بن الخطاب؛ ذلك أن عمر كان يخاف منه الشيطان، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما سلك عمر فجأ إلا سلك الشيطان فجا غيره)[332] فكانت إمارة عمر حزرا للأمة من الشيطان وكانه عمر هو الباب المغلق أمام الشيطان في محاولة الدخول إلى الأمة، وكان كسر الباب هو قتل عمر بن الخطاب، بدليل حديث

---

[329] أخرجه أحمد في المسند (3/488) أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس والرجل الذي نادي رسول الله هو الأقرع بن حابس.

[330] أخرجه الطبراني عن سلمة بن الأكوع كما في الجامع الضغير للسيوطي وأحمد في المسند (3/179) من حديث أنس (وفي مواقع من مسنده)، وسنده صحيح، وصححه العلامة الألباني.

[331] مسلم في الإمارة (1855) من حديث عوف بن مالك وهو ما انفرد به مسلم.

[332] مسلم في الأشربة رقم (2018) من حديث جابر بن عبد الله.

حذيفة قال: (كنا عند عمر فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ قال: فقلت: أنا قال: إنك لجريء وكيف قال؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره يكفرها الصيام والصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فقال عمر: (ليس هذا أريد إنما أريد التي تموج كموج البحر قال فقلت: ما لك ولها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها بابا مغلقا قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: لا بل يكسر. قال: ذلك أحري ألا يغلق أبدا. قال فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما يعلم أن دون غد الليلة إني حدثته حديثا ليس بالأغاليط قال: فهبنا أن نسأل حذيفة من الباب المكسور فقلنا لمسروق سله فسأله فقال: عمر[333] وفي رواية: (كان عمر يعلم أنه الباب وكان يعلم أن كسر الباب قتله).

ولأجل أن خطورة السلطة الإسلامية على الشيطان قد بلغت أن تكون حرزا للأمة فإننا نجد أنه لا يطيق قيامها ويعتبر هذف إسقاطها إذا قامت مهمة أساسية عنده؛ ودليل ذلك هو موقف الشياطين من ملك سليمان حيث جاء في تفسير قول الله: (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ)[334].

قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والحسن: جسد يعني شيطان مؤكدين هذا القول بقصة مضمونها أنه كانت هناك محاولة انقلاب شيطانية ضد حكم سليمان فقدر الله إخفاقها ونجاته منها بعد بلائه بها.

ولعل هذه الحقيقة تكون تنبيها للذين يتلهفون على قيام السلطة الإسلامية دون الاستعداد للمحافظة عليها بعد قيامها إذ أن العقبات الضخمة التي يضعها الشيطان في سبيل قيام هذه السلطة ستكون قليلة بجانب الأساليب والوسائل التي سيمارسها الشيطان لمحاولة إسقاطها إذا قامت، وهذا التصور يؤكد لنا أن السلطة الجاهلية في حقيقتها ولاية شيطانية تتبع في ولائها ونظامهما إبليس وجنوده مهما اختلفت هذه السلطة في أشكالها وأشخاصها.

ومن هنا فإن مواجهة هذه السلطة لن تكون صحيحة إذا تحولت إلى مجرد صراع مع شكل من تلك الأشكال أو صارت تحديا شخصيا لواحد من أصحاب تلك السلطة.

---

[333] أخرجه مسلم (2/171/170) شرح النووي في الإيمان.
[334] ص: 34.

ولكن المواجهة الصحيحة إنما تكون بالاعتقاد بأنها مع إبليس ذاته في ولايته وسلطانه.

وتلك المواجهة وهذا الاعتقاد هو البعد المتم لكل الأبعاد الاعتقادية المرتبطة بمهمة إسقاط أي حكم جاهلي، وهو كذلك الأساس السياسي للصراع الإسلامي مع جميع النظم الجاهلية، رغم ما بين هذه النظم من اختلافات سياسية شكلية.

وعلى هذا يجب أن يتحدد، بهذا التصور النظرية الثابتة الواحدة للسياسة الجاهلية التي تتحقق المواجهة الإسلامية باعتبارها.

جماع القول في سنة الله في باب الإمامة:

هذا وأريد الآن ان أبين لكم بكلمات موجزه تلك السنة التي سنها الله تعالى في باب الإمامة والتي ما زالت نافذة من الأزل، وستبقي جارية ما دام النوع البشري حيا قائما على فطرته في هذه المعمورة فهاكم إياها:

إذا لم تكن في الأرض طائفة منظمة متصفة بكل من الأخلاق الأساسية والأخلاق الإسلامية وهي تستخدم – مع ذلك – الوسائل والأسباب المادية، فلا بد أن يسلم زمام القيادة والسيادة في العالم إلى طائفة تكون أكثر جمعا واحتيازا للأخلاق الأساسية والإنسانية والأسباب المادية من غيرها.

وذلك بأن قد جرت مشيئة الله أن يبقي نظام هذا العالم جاريا مطردا على كل حال فمن ثم يفوض أمر إدارته وتسيير دفة شؤونه إلى أعظم الطوائف المعاصرة قدرة وأكثرها كفاءة أما إن كانت في الأرض فئة منظمة تمتاز من بين سائر الفئات الموجودة وتفضلها جميعا في الأخلاق الإسلامية والأخلاق الإنسانية العامة معا ثم لا تقصر في الوقت نفسه في استخدام الأسباب المادية حق استخدامها فمن المستحيل عندئذ أن تتسلم أزمة قيادة الأرض وتتمتع بسيادتها فئة أخرى بإزائها؛ فإن ذلك مما يناقص من فطرة الكون ويناقص سنة الله التي سنها في الشؤون البشرية ويناقض مواعيده التي وعد بها المؤمنين الصالحين من عباده في غير موضع من كتابه العزيز.

والله تعالى لا يحب الفساد في أرضه وأي فساد أشنع وأبشع من أن ينقاد زمام أمور الأرض لفئة تعيث فيها وتملؤها ظلما وجورا مع أن فيها فئة صالحة قادرة على تسيير دفة حكمها طبقا لمشيئة الرب ومرضاته تعالى.

ومما ينبغي أن لا يغيب عن البال أن نظام الاستخلاف في الأرض لا يمكن أن يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح أو أفراد صالحين مشتتين في الدنيا ولو كانوا في ذات أنفسهم أولياء الله تعالى بل ومن أنبيائه ورسله. إن الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لأفراد متفرقين مشتتين وإنما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الإدارة والنظام قد أثبتت نفسها – فعلا – أمة وسطا أو خير أمة في الأرض)[335].

[335] منهاج الانقلاب الإسلامي: الاستاذ أبو الأعلي المودودي.